رواية

مكسيم غوركي

الجاسوس

قِصةُ رَجُلٍ وُجودُه كَعَدَمِه

ترجمة

أيمن بن مصبح العويسي

الرافدين

الجاسوس

قِصةُ رَجُلٍ وُجودُه كَعَدَمِه

الجَاسُوس

قِصةُ رَجُلٍ وُجودُه كَعَدَمِه

مكسيم غوركي

ترجمة: أيمن بن مصبح العويسي

The Spy

The Life of a Useless Man

By Maxim Gorky

Translated by Ayman bin Musabeh Al-Owaisi

الطبعة الأولى: يوليو ـ تموز، 2020 (1000 نسخة)

الطبعة الثانية: أكتوبر ـ تشرين الأول، 2021 (1000 نسخة)

This Edition Copyrights@Dar Al-Rafidain2020

(c) جميع حقوق الطبع محفوظة / All Rights Reserved

حقوق النشر تعزز الإبداع، تشجع الطروحات المتنوعة والمختلفة، تطلق حرية التعبير، وتخلق ثقافةً نابضةً بالحياة. شكراً جزيلاً لك لشرائك نسخةً أصليةً من هذا الكتاب ولاحترامك حقوق النشر من خلال امتناعك عن إعادة إنتاجه أو نسخه أو تصويره أو توزيعه أو أيٍّ من أجزائه بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن. أنت تدعم الكتّاب والمترجمين وتسمح للرافدين أن تستمرّ برفد جميع القراء بالكتب.

بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 634 - 04 - 3

مكسيم غوركي

الجاسوس

قِصةُ رَجُلٍ وُجودُه كَعَدَمِه

ترجمة

أيمن بن مصبح العويسي

www.daralrafidain.com

مُقدمة المترجم

يرتحلُ بنا الأديب الروسي الكبير مكسيم غوركي (ت1936م) إلى مطلع القرن العشرين ليحكي لنا قصة طفلٍ عاش يتيمًا متنقلًا من مسكنٍ لآخر ومن عملٍ لآخر، يعيش بعيدًا عن أسرته التي لم يتبقَ منها سوى عمه، يعيش معاناة ألم اليُتم والغربةِ وجشع الناس، يكبرُ هذا الطفل فيجدُ نفسه جاسوسًا في حكومة القيصر الذي يُوشكُ أن يَفقد ملكه إثر تفشّي الإحتجاجات في البلاد، شهدت تلك الفترةُ انتشار الجواسيس في كلِّ البلاد فأصبح بطل القصة جزءًا من هذه المنظومة، يعيش هذا الجاسوس دوامةً من المشاعر المختلطة التي تتصارع بداخله غير مدركٍ لما يفعله، يعيش حياةً من العدمية والفراغ تجعلُ من «وجوده كعدمه»، فيقرر في نهاية القصة اتخاذ قراره الحاسم للخروج من هذه الدوامة.

انتهى مكسيم غوركي من كتابة هذه الرواية في عام 1907م باللغة الروسية، شرع المترجم الروسي ـ الأمريكي توماس سيلتزر (ت1943م) بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية لينشرها في عام 1908م بعد عام من نشرها باللغة الروسية، وأعادت المترجمة مورا بودبرج ترجمتها في عام 1971م، وقد اعتُمدت الترجمة العربية لهذه الرواية على الترجمة الأولى لتوماس سيلتزر.

كتب غوركي رواية «الجاسوس» إبان الفوضى التي انتشرت في إمبراطورية القيصر مطلع القرن العشرين ومطالبات الشعب بالإصلاحات. يُعد غوركي مؤسسًا للمدرسة الواقعية الإشتراكية التي تجسد النظرة الماركسية للأدب. رُشح خمس مرات للحصول على جائزة نوبل في الآداب، وقد عُرف بكتاباته المناهضة للقيصر دخل على إثرها السجن عدة مرات؛ زرتُ شخصيًا سجنه في سان بطرسبرج في شتاء عام 2017م كما زرت منزله في موسكو؛ وكأني عشتُ الحياة التي عاشها وأنا أتجوُّل بين غرفِ منزله الذي بات مفتوحًا للزائرين.

في 21 يناير من عام 1984م عُرضت مسرحية «حياة عميل قيصري» في مسرح ترافيرس في إدنبرة، وقد اُقتُبست أحداثها من هذه الرواية ولاقت رواجًا آنذاك وأثنت عليها مجموعةٌ من الصحف البريطانية ومنها صحيفة التايمز.

ترجمتي لهذا العمل أشبه بتحدٍ خضتُ غماره مع نفسي؛ فلطالما قرأتُ عن مدى صعوبة ترجمة نصٍ كُتب بلغةٍ أخرى يجهلها المترجم؛ فيترجمُ من لغةٍ وسيطةٍ إلى لغته؛ كما هو الحال مع هذه الرواية، لأن هناك حاجزًا يمنعه من الوصول إلى اللغة الأصل التي كُتب بها العمل. وقد تطرق المترجم محمد آيت حنَّا إلى هذه القضية في مقالةٍ عنْوَنَها بـ«أترجم لأن الآخرين يكتبون أفضل مني!»، اقتبسُ منها هذه الإستعارة عن الترجمة: «أثناء تقديمي للكاتب البرتغالي غونزالو طافاريش، بالدّار البيضاء، أثار انتباهي إلى استعارة جميلةٍ عن الترجمة هو نفسه اقتبسها من كاتبٍ آخر، المترجم ناقل ماء، ينقل الماء بيديه من أرض إلى أرض، فليس غريبًا أنّ بعض المترجمين حين يصلون إلى أرض حِلِّهم يجدون الماء كلّه قد تسرّب من بين أصابعهم وسقط في الطريق. ماذا عن أولئك الذين يترجمون عن ترجمة؟ أن تأخذ الماء من يد مترجم آخر؟»[1]. أثارت هذه الإستعارة رغبةً بداخلي لأجد حلًا يوصلني لمنبع الماء حين تواجهني مشكلةٌ أثناء ترجمة النص الإنجليزي، فكيف أصل إلى الأصل الروسي وأنا أجهل اللغة؟ كان الحل بالرجوع إلى الأصل الروسي باستخدام تقنية الترجمة

الآلية العصبية التي أعانتني على تجاوز حدود اللغة والوصول إلى النص الأصلي؛ فبات هذا الحل رفيقي خلال رحلتي في ترجمة هذه الرواية وساعدني كثيرًا في حلّ تلك الإشكالات التي واجهتني، فعلى سبيل المثال؛ صادفتني كلمة «car» التي تعني بكلّ بساطة «سيارة»، لكنها جاءت في سياقٍ يصفُ دخول المتظاهرين إلى جزءٍ من هذه السيارة يُسمى بـ«platform» فأصبحت الفكرةُ غامضةً حول هذا النوع من السيارات؛ فكان الحل العودة إلى الكلمة التي استخدمها الكاتب في النصِ الروسي، وبمساعدة الترجمة الآلية العصبية وتقنية البحث عن الصور على موقع جوجل وجدتُ أنها ليست سيارةً كسياراتِ اليوم وإنما عبارة عن عربة لنقل الركاب تسير على سكةٍ حديدية، وهكذا الحال مع أمثلةٍ كثيرةٍ في هذه الرواية. إذن يُمكننا الوصول إلى منبع الماء وتجاوز هذا الحاجز في حال غموض الفكرة المُترجمة باستخدام الترجمة الآلية العصبية.

وفي الختام أرجو أن تنال ترجمةُ هذا العمل على استحسانِ القارئ، وأنْ تكون إضافةً للأدب الروسي المترجم إلى العربية، ولا يسعني في هذا المقام إلّا أن اشكر كلّ من كان له بصمة في هذا العمل وخاصةً زوجتي التي كانت القارئة الأولى لهذه الترجمة وأنارتني بملاحظاتها القيِّمة، كما أشكر الصديق المترجم يعقوب المفرجي على قراءته الثانية للرواية وإرشاداته الثمينة، ولن أنسى شكر دار الرافدين التي آمنت بالفكرة وجعلتها واقعًا ملموسًا.

أيمن بن مصبح العويسي

مسقط، فبراير 2020

الفصلُ الأول

حينَ بلغَ يافسي كليمكوف الرابعة من عمره فارق أبوه الحياة إثْرَ رصاصةٍ طائشةٍ تلقَّاها من بندقية حارسِ الغابة، ثُمَّ في سن السابعة خطف الموتُ روح أمه من دون سابق إنذارٍ بينما كانت تجني الحصاد في الحقل، لكن يافسي ظلَّ ثابتًا لم ترتعد فرائصه وهو يرى جسد أمه يستحيلُ جثةً هامدة.

حينئذٍ وضع عمه الحدّاد بيوتر يده على رأس الصغير قائلًا: «ماذا سنفعل الآن؟»، ألقى يافسي نظرةً خاطفةً على جسد أمه المُمدد على المقعد ثمَّ أجاب هامسًا: «لا أعلم».

مسح الحدَّادُ الدموع من وجنة ابن أخيه بكُمِّ قميصه، وبعد صمتٍ مطبقٍ أخذه على جنبٍ بلطفٍ وقال له: «ستعيش معنا، ولعلِّي سأرسلك إلى المدرسة لكيْلا نراك أمامنا أيها العجوز!».

ومنذُ ذلك الحين التصق لقبُ «العجوز» بيافسي؛ فكان لقبًا لائقًا به بالنظر إلى قصر قامته مقارنةً بطفل في مثلِ عمره، كان متثاقلَ المشية، واهنَ الصوت، أشعثَ الشعر، أنفه الصغير أشبهُ بطائرٍ صغيرٍ متشبثٍ على وجهه الذي بدتْ عظامه من شدة نحافته، أمَّا عيناه الباهتتان فترمشان وكأنَّ خطبًا ألمَّ بهما، من ينظرُ إليه يحسبه عجوزًا واهنًا برزت تجاعيد وجهه. يكيلُ له زملاؤه في المدرسة السخرية، يتهكمون عليه ويضربونه؛ فمظهره المُكتهلُ ووجههُ الذي يبدو كبومةٍ يُثيرهم واحدًا واحدًا، عاش في معزلٍ عنهم، وحيدًا صامتًا، مختفيًا في ظل، منزويًا في ركنٍ، قابعًا في حفرة، ينظرُ إلى الناس من عزلته بحذرٍ دون أن يرمش بعينيه، فكأنه حلزونٌ مُحتبسٌ في قوقعته. عندما يبلغُ التعبُ مبلغه من عينيه يغلقهما ليغرقا في ظلامٍ دامس، يُبحرُ في خيالاته متمايلًا بجسده رويدًا رويدًا.

يتحاشى يافسي أن يراه أحدٌ حتى في بيت عمه، ولكن الأمر هناك لم يكن بتلك السهولة، فقد كان عليه تناول العشاء برفقة العائلة، عندما يجلس على طاولة العشاء كان ابن عمه الصغير ذو الوجه المحمَّر ياكوف يبذل كل ما بوسعه ليشاكسه ويجعله يضحك، فتارةً يرسمُ تعابيرَ مضحكةً على وجهه، وتارةً يُخرج لسانه ويركل رجل يافسي من تحت الطاولة ويقرصه؛ لكن كلَّ هذه المحاولات باءت بالفشلِ ولم ينجح في إضحاك «العجوز»، بل أدت محاولاته إلى نتائج معاكسة، فكان يافسي يتألم ويتحولُ وجهه من أصفرٍ إلى رماديٍ وتجحظُ عيناه وترتعش الملعقة في يده.

في إحدى المرات رآه عمه على هذه الحال وسأله: «ماذا بك؟».

فأجابه يافسي بصوتٍ لم تبدُ فيه الشكوى: «إنه ياكوف».

حين يوبِّخُ العمُ بيوتر ابنه أو يلْكُمُ أذنه أو يسحبُ شعره تُقوِّس العمة أجفيا شفتيها امتعاضًا وتتمتمُ بغضبٍ وتقول ليافسي «أيها الواشي»، بعدها سينفرد به ياكوف ويجده بعيدًا عن ناظر أبيه في مكانٍ ما ويضربه ضربًا متواصلًا في ظهره وجنبه وبطنه، لن يكون بمقدور يافسي عندها إلا تحمِّل هذا الضرب. لم تكن الشكوى من ياكوف في صالح يافسي؛ فإذا ضرب العم بيوتر ابنه ياكوف فسترد

العمة أجفيا هذا الضرب على يافسي، وضرباتها أشد إيلامًا من ضربات ابن عمه، أصبح يافسي يفرُ هاربًا من ابن عمه عند مهاجمته ولكن دائمًا ما كان يلحق به فيُسلّم الأمر حينها وينبطح على الأرض ويُثبِّت نفسه في التربة بكلِ قوةٍ بحيث يُلصق ركبتيه ببطنه ويغطي رأسه ووجهه بكلتا يديه ويُسلّم ظهره وجانبيه لقبضة ابن عمه، تحمُّلُ يافسي ضربات ابن عمه كان مدعاة لأن يشتاط ياكوف غضبًا، حتى أنه يصرخُ في بعض الأحيان وهو يضرب ابن عمه قائلًا: «أيتها القملة القبيحة...اصرخي!».

عندما يجدُ يافسي حدوة حصان يعطيها لابن عمه الملاكم لأنه يعلمُ أنه سيأخذها منه بأي ثمن، فور استلامه لهذه الهدية يهدأ ياكوف ويسأل ابن عمه قائلًا: «هل آذيتك عندما ضربتك في تلك المرة؟»، فيجيبه يافسي قائلًا: «نعم كثيرًا». عند سماع هذا الجواب يصمت ياكوف هنيهةً ويحكُّ رأسهُ ويقول بخجل: «هذا الوقتُ سيمضي»، ثم يرحل إلا أنَّ كلماته تبقى عالقة في قلب «العجوز» ويظلُّ يرددها مرارًا وتكرارًا بصوت يَمْلَؤُه الأمل: «هذا الوقتُ سيمضي».

في إحدى المرات رأى يافسي مجموعةً من النساء في رحلةِ عبادة فإذا بِهنَّ يدهُنّ أرجلهن اللاتي أخذ منهن التعب مأخذه بنبات القراص، قلَّد يافسي ما فعلته النسوة ووضع القراص على جنبه الممتلئ بالكدمات؛ ليشعر بسكونٍ عارم يرخي سدوله على جنبه، ومنذ ذلك الحين أصبح يدهن جراحه بتلك الأعشاب الضارة التي لا قيمة لها.

حُضوره الذهني ضعيفٌ أثناء الحصة الدراسية لأنه يدخُل المدرسة وقلبه خائفٌ وجلٌ من تلقي ضربات زملائه فيخرُجُ منها مهانًا محتقرًا، تبدو عليه علامات الخوف من التعرض للظلم، فيُثيرُ بهذا المظهر رغبةَ زملائه لينقضُّوا على وجهه وجسده بلكماتهم.

اكتشفَ معلمهُ يومًا أن لديه نبرةٍ صوتٍ مميزة؛ فأخذه للانضمام إلى كورال الكنيسة، ومنذ تلك اللحظة أصبح يافسي يقضي جلَّ وقته بين المدرسةِ والكنيسة، يلتقي بزملاء المدرسة في وقت التمارين فيتصارعون معه أكثر مما يتصارع معه ياكوف.

شكَّلت تلك الكنسيةُ العتيقةُ مصدر سعادة في قلبِ يافسي، تراه يُرسل نظراتٍ خاطفةٍ على زواياها الدافئةِ المظلمةِ الساكنةِ أملًا في أن يجد في إحدى تلك الزوايا شيئًا غير مألوف يحتضنه، يدنيه منه بلطفٍ ويحدثه بنبرةٍ اعتاد سماعها من أمه. تُعيد إليه تلك الصور المقدَّسة بملامحها السوداءِ الحالكةِ كلَوْنِ الأدْلَمِ صورة عمه بيوتر ذي اللحية الكثَّة.

عند مدخلِ الكنيسة تربَّعَت لوحة رُسمت عليها صورة قديسٍ يُمسك بشيطانٍ ويضربه ضربًا مبرحًا، بدا القديسُ مَديدَ القامةِ قاتمَ الوجه مفتولَ العضلاتِ طويلَ اليدين، أما الشيطان فقد كان مُحمَّر الوجهِ هزيلَ البنيةِ قصيرَ الهيئةِ كأنه نعجةٌ صغيرة، لم ينظُر يافسي إلى الشيطان في بادئ الأمر، فقد أحسَّ برغبةٌ في البصق عليه سرًا، ولكنه بات بعد ذلك مشفقًا على الشيطان الصغير التعيس، عندما يختلي بالصورة يضع يده بلطفٍ على ذقن الشيطان الذي يبدو كذقن نعجة شوَّهه الفزع والألم؛ كانت تلك المرة الأولى التي ينبض فيها قلب الطفلِ بالشفقة.

أحبَّ يافسي الكنيسة لسببٍ آخر وهو أن جميع من فيها ـ حتى الأشرار سيئي السمعة ـ يضعون صخبهم جانبًا ويدخلون إلى الكنيسة تَكسُوهم السكينة والوقار، كان يافسي من النوع الذي يخافُ الأحاديث الصاخبة؛ فَتَرَاهُ يركضُ بعيدًا عندما تتعالى الأصوات وتَحمرُّ الوجوه. في أحد الأيام بينما كان في السوق رأى عددًا من الفلاحين في مشاجرةٍ بدأت بصراخٍ يتعالى في وجوه بعضهم البَعض؛ وفجأةً تحوَّلتْ تلك الصرخات إلى لكمات، أمسك أحدهم بعمود وضَرب به رجلًا آخر، تعالتْ الصرخات وبدأ الناسُ بالهرب من المكان، فإذا بهم يضربون «العجوز» يافسي في رجله ويطرحونه أرضًا في الوحل، عندما قام من مكانه رأى فلاحًا ضخم الهيئة متجهًا نحوه وهو يلوِّح بيديه المرتعشتين والملطختين بالدماء، كان منظرًا مروعًا بالنسبة ليافسي لدرجةِ أنه صاح وظنّ أنه قد أُلقيَ به في حفرة سوداء، لم يستعد شعوره بما حوله إلا بعد أن نضحوا عليه الماء.

يخاف يافسي من السّكارى أيضًا، فقد أخبرته أمه أن الشيطان يتخذ من جسد السكران سكنًا له، يُخيَّل «للعجوز» أن هذا الشيطان شائكٌ مثل القنفذ، رطبٌ مثل الضفدع، مُحمرُّ الجسد أخضرُ العينين، يعيش في معدة السكران ويثيره ويحوِّله إلى شيطانٍ شرير مثله.

أحبَّ يافسي أشياءً أخرى في الكنيسة؛ فإلى جانب الهدوء والسكينة التي تغشى المكان أحبَّ أصوات الغناء؛ عندما يغني من دون الاستعانة بالنوتات الموسيقية يُغلقُ كلتا عينيه بقوة ويُرسل صوته الحزين ليمتزج مع أصوات زملائه في الكورال محاولًا ألا يعلو صوتُه صوتَ رفاقه، يُخبئ نفسه في مكانٍ ما وكأنه غارقٌ في نومٍ هانئ فيغشاه النعاسُ ويُحلِّق به إلى عالمٍ آخر مليءٍ بالأمنِ والأمان.

راودته فكرةٌ في أحدِ الأيام فقال لعمه: «هل يمكن لأحدنا أن يعيش حياةً يذهب فيها إلى كلِّ مكانٍ ويرى كلَّ شيءٍ دون أن يراه أحد؟».

ردَّ عليه عمه الحدّاد قائلًا: «أتعني أن يكون مخفيًا؟»، ثُم أخذ يُفكر لبعض الوقت وتابع حديثه قائلًا: «أعتقد أن الأمر مُحال»، بعدها صوَّب وجهه المُكْفَهِرُّ تجاه ابن أخيه وأردف بنبرةٍ جدية: «سيكون الأمر جميلًا بالتأكيد إن فعلتَها أيها اليتيم».

عندما بدأ أهالي القرية في تسمية يافسي بـ«العجوز» بدأ عمه بيوتر بمناداته بـ«اليتيم». كان عمه الحدّاد غريب الأطوار في كلِّ جزئيةٍ من جزئيات حياته؛ حتّى أنه يزداد طيبًا حين يُفرط في الشرب؛ فيخلعُ قبعته من رأسه، يسير في الشارع ملوَّحًا بها ومغنيًا بصوتٍ حزين ومرتفع، يمشي مبتسمًا ورأسه يترنَّحُ يمنةً ويسرة، ترى الدموعَ تنهمرُ من عينيه بغزارةٍ أكثر من انهمارها وهو في وعيه.

أحبَّ يافسي عمه بيوتر لكونه أفضل رجالِ القرية وأكثرهم حكمة، فقد كان بمقدوره الحديث معه عن كلِّ شيء، كان دائمَ التبسم إلا أنه لا يضحكُ إلا نادرًا، يتحدث بدون تردد بنبرةٍ هادئةٍ وجديةٍ. عندما يكون في دُكانه يسترسل في الحديث مع نفسه بحضور يافسي إمّا أنه نسي وجود يافسي أو لم يلحظ أنه معه؛ الأمر الذي كان يُسعد يافسي. تراه يدخُل في نزاع دائمٍ مع شخصٍ مخفيٍ وكأنه يخاطب شبحًا ويعاتبه مرارًا وتكرارًا.

يُتمتم بنبرةٍ هادئةٍ وهو يتحدَّث لذلك الرجلِ المخفي قائلًا: «هل أخفتك؟ يا لك من رجلٍ جشع! ألا تراني أعمل؟ ها أنا قد أحرقتُ عينيَّ بهذه النار، وسيزول نور البصر عنها عمّا قريب، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل تنتظر أن تصيبني لعنةٌ في هذه الحياة! يا لتعاستي! ليس هناك جمالٌ! ليس هناك مرح!».

تبدو كلماته المتقاطعة والممتلئة بعلامات التعجب وكأنها مقتبسةٌ من ترنيمة مسيحية، خُيِّل ليافسي أن عمه يُكلِّم شخصًا موجودًا في المتجر مما دفعه لسؤاله قائلًا: «مع من تتحدث يا عمي؟».

ردَّ عليه عمه دون النظر إلى وجهه قائلًا: «مع من أتحدث؟»، ومن ثُم أطلق ابتسامةً بدت على محياه وقال: «أتحدث مع غبائي».

حديثُ يافسي مع عمه بهذه الطريقة من الأمورِ النادرة كونه يعيش وحيدًا منزويًا عنهم، أما ياكوف فقد كان ينشر صخبه في المكان حتى أن صوتَ المطرقة وهي تضرب الحديد تختفي بصرخاته المدوية، وبحضوره يتسمَّرُ يافسي في مكانه دون أن يجرؤ على النظر إلى عمه.

يقعُ دكانُ الحدادةِ في حافة الوادي الضحل، يقضي يافسي وقت فراغه في بطنِ الوادي بين الشجيرات في الربيع والصيف والخريف، شكَّل هذا المكان مصدر أمانٍ وسلام له كما هو الحال في الكنيسة؛ ففي هذا المكان تزقزق الطيور ويدندن النحل لتمتزج هذه الأصوات مُشكِّلةً أغنيةً هادئة تملأ المكان بلحنها. يجلس الفتى في هذا المكان وهو يميل بجسده يمنةً ويسرةً مُطبقًا كلتا عينيه وغارقًا في التفكير في أمرٍ ما، في بعض الأحيان يتجوَّل بين الشجيرات وهو يستمع إلى الصوتِ المزعج الذي يخرجُ من بين جنبات دكانِ الحدادةِ، وعندما يكونُ عمه وحيدًا يصعدُ إليه فيحييه وهو يحدِّق بعينيه اللتين بللتهما الدموع قائلًا: «ماذا تريد أيها اليتيم؟».

في إحدى المرات سأل يافسي عمه قائلًا: «هل تزور قوى الشر الكنيسةَ ليلًا؟».

فكَّر الحدَّاد هُنَيْهَةً وردَّ قائلًا: «لم لا؟ فالشر يحوم في كلِّ مكان، فهذا أسهل بالنسبة له».

رفع الطفلُ كتفيه وأخذ يلوِّح بعينيه الدائريتين ويصوبهما ناحية زوايا الدكان المظلم.

أردف عمه ناصحًا إياه: «لا تخف من الشياطين».

تنهَّد يافسي وأجاب عمه قائلًا: «لستُ خائفًا».

ردَّ عليه عمه بكل ثقةٍ وهو يمسح عينيه بأصابعه المتلطخة بالسواد ويقول: «لن يمسُّوك بأذى».

بعدها طرح يافسي سيْلًا من الأسئلة على عمه وأخذ عمه يجيبه:

ـ «ماذا عن الإله؟».

ـ «ماذا به؟».

ـ «لماذا يسمحُ للشياطين بدخول الكنيسة؟».

ـ «وما شأنُ الإله في ذلك؟ الإله ليس حارسًا للكنيسة».

ـ «ألا يعيش هناك؟».

ـ «من؟ الإله؟ لم يتوجب عليه أن يعيش هناك؟ الإله في كل مكان أيها اليتيم، أما الكنائس فهي للبشر».

ـ «ماذا عن البشر لماذا هم موجودون؟».

ـ «البشر.... يبدو أنهم... بشكلٍ عام... موجودون لكلِّ شيء، فلن تستطيع إكمال حياتك من دون البشر».

ـ «هل هم موجودون لخدمة الإله؟».

نظر الحدَّاد إلى ابن أخيه نظرة ارتيابٍ وأجابه بعد أن توقف عن الحديث لثواني قائلًا: «بالطبع».

أردف قائلًا وهو يمسح يديه بمئزره ويحدِّق بنظره اتجاه النار المشتعلة في الفرن: «لا أعرف عن هذه الأمور أيها اليتيم، لم لا تسأل المعلم أو القسِّيس!».

«أخشى منهم يا عم».

نصحه عمه بلهجة شديدة قائلًا: «يستحسن بك ألاَّ تفكر بمثل هذه الأشياء، فأنت طفلٌ صغير، يُستحسن بك أن تلعب في الهواء الطلق وتحافظ على صحتك، وإذا ما أردت العيش فعليك أن تعيش صحيحِ الجسم، فلن تستطيع العمل إن لم تكنِ قويًا، عندئذٍ لن تستطيع إكمال مسيرك في هذه الحياة، هذا كلُ ما أعرفه، ولا نعلمُ ما يريده الإله منَّا». أطلق هذه الكلمات على ابن اخيه وظل متسمِّرًا في مكانه دون أن يزيح عينيه عن النار. وبعد صمتٍ لم يطل تابع حديثه بنبرة تعتليها الجدية والحِدة قائلًا: «لا أدري ما أقول لك؛ لكنهم يقولون إن الإله منبعُ الحكمة، وكلما ازدادت سماكة الحجاب الحائل بيننا وبين الإله أصبح القلبُ أكثر قسوةً ووحشية».

أخذ العمُ يُقلِّب بصره حول الدكان فوقعت عيناه على الفتى المنعزل في زاويته وقال له: «لماذا تنزوي في هذه الحفرة الضيقة، قلتُ لك اذهب والعب في الخارج»، همَّ يافسي حينها بالخروج على استحياءٍ وأثناء ذلك قال له الحدّاد: «شرارة واحدة تصيب إحدى عينيك كفيلةٌ بأن تسلب النور منها لتصبح بعدها بعينٍ واحدةٍ، من سيرغب بمرافقة شخصٍ أعور؟».

كانت أمُ يافسي تسردُ عليه القصص في جنح ليالي الشتاء الباردة التي تخوض فيها العاصفة الثلجية معركةً غير متكافئةٍ مع جدران الكوخ وسقفه، تضع قوتها على كل شيءٍ فيه وكأنها تلتمس طريقها بحثًا عن شيءٍ ما والألمُ يعتصرها، تتسلل من تحتِ المدخنةِ، تَنتحبُ هناك وكأنها تعزفُ ألحانًا حزينة. في خِضَمِّ هذه العاصفة تسردُ الأمُ حكاياتها وهي تكابد النعاس، يصبحُ حديثها في بعض الأحيان مشوشًا فتعيد ذات الكلمات مرارًا وتكرارًا، كان يُخيّل للطفل أن أمه رأت كل تلك الأحداث التي تسردها، ولكنها لم تستطع رؤيتها بوضوح وكأنها وسط عتمة الظلام.

جيرانُ يافسي يذكِّرونه بحكايات أمه دائمًا، يبدو عمه الحدَّاد وكأنه قد رأى الشياطين والآلهة وجميع أهوال الحياة في نارِ الفرنِ؛ ولهذا السبب كان كثير البكاء. حين يستمع يافسي لحديثه يرتعش قلبه مترقبًا لأمرٍ جلل؛ بَيْدَ أنَّ أملًا يبزغُ بداخله غير مكترثٍ بكلام عمه المرعب؛ أملٌ يخبره بأن هناك يومًا قادمًا سيرى فيه شيئًا مميزًا، شيءٌ يختلفُ عمَّا تعيشه القريةُ بفلاحيها الثملين وأطفالها المزعجين ونسائها المُتحجِرات، يومٌ مختلفٌ بلا ضجيج ولا خوفٍ ولا حقد ولا شجار، يومٌ سيرى فيه شيئًا محببًا إلى قلبه مثل قداس الكنيسة.

ارتبط يافسي بعلاقةٍ حميمة مع إحدى جاراته الضّريرات، يصحبها للمشي في القرية ويساعدها على عبور الوادي، يتحدث إليها بنبرةٍ رقيقةٍ وهو يفتح عينيه الدامعتين والخوف ساكنٌ فيهما، لم تكن هذه العلاقة بمنأى عن أنظار أهالي القرية الذين أحبوا هذه الصداقة؛ ولكن في أحد الأيام أتتْ أم الفتاة الضريرة إلى العم بيوتر تشتكي من يافسي بأنه بثّ الذعر والخوف في قلب ابنتها تانيا بحديثه، لدرجة أنها لا تستَطيع تركها وحيدةً، أصبحت تبكي ولا تنام إلا قليلا وتراودها أحلامٌ مزعجة فتستيقظ من نومها تصرخُ من الفزع، لم يستطع أحدٌ معرفة ما قاله يافسي لها، فقد ظلَّت تتمتمُ بكلمات حول الشياطين وتتحدث عن سماءٍ سوداءٍ مليئةٍ بثقوبٍ تخرجُ منها ألسنة نيران، تتحدث عن شياطينٍ في تلك الثقوب تسخر من الناس وتضحك عليهم. ماذا يعني كل هذا الكلام؟ ومن يتجرأ على قول أشياءٍ كهذه لطفلةٍ في عمرها.

نادى العم بيوتر ابن أخيه قائلًا: «تعال إلى هنا».

ترك يافسي الركن الذي انزوى فيه واقترب من عمه بهدوء فوضع عمه يده الخشنة الثقيلة على رأسه وسأله قائلًا: «هل قلت للفتاة هذا الكلام؟».

ـ «نعم قلت لها».

ـ «لماذا؟»

ـ «لا أعلم».

من دون أن يحرك الحدَّاد يده من رأس ابن أخيه دفعه للخلف ونظر في عينه نظرة غضبٍ قائلًا: «لماذا تقول لها أن السماء سوداء؟ ألا تعلمُ أنَّ الطفلة ضريرةٌ ولا تستطيع أن ترى!».

ردَّ عليه يافسي متمتمًا: «من؟ تانيا؟».

أجاب عمه الحدَّاد: «نعم». بعد لحظةٍ من التأمل سأله مرةً أخرى قائلًا: «وماذا عن النار الملتحفة بالسواد؟ من أين أتيت بهذا الكلام؟».

نكَّس الطفل رأسه دون أن ينبس ببنت شفة.

قال له عمه: «تحدَّث فلن يضربك أحد، لماذا قلت لها كلَّ هذه الترهات يا هذا؟».

همس يافسي قائلًا: «لقد أشفقت عليها».

ردَّ عليه عمه: «يجب ألا تتحدث إليها مرةً أخرى، هل تسمع كلامي يا فتى؟ مطلقًا! لا تقلق فستتولى العمة براسكوفيا مسؤولية وضع حدٍ لهذه الصداقة».

قالت أم الفتاة: «يجب أن تجلده عقابًا على ما اقترفت يداه، فقد كانت ابنتي تعيش حياةً هانئة ولم تزعج أحدًا قط، أما الآن فباتت تخشى البقاء لوحدها».

ما إن خرجت براسكوفيا من المنزل حتى أخذ الحدَّاد بيدِ يافسي يجرُّه إلى الفناء دون أن ينبس بكلمة، ثمَّ قال له: «الآن أريد منك أن تخبرني لماذا أخفتَ الفتاة الصغيرة؟».

لم يكُن صوتُ العم عاليًا بيْدَ أنه كان صارمًا، أصاب الخوفُ يافسي وبدأ سريعًا في تبرير فعلته وأخذ يتلعثمُ في كلامه وكأن الحروف قد أضاعت مخارجها.

«لم أُخفها... فعلتُها لأنها... كانت تشتكي... قالت لي أن كل ما تراه هو السواد ولكنكم... ترون كلَّ شيء... لذلك بدأتُ أخبِرُها أن كل شيءٍ ملتحفٌ بالسواد لكي أجعلها تترك غيرتها من الآخرين، لم أقصد إخافتها مطلقًا».

بدأ يافسي يذرف الدموع ظنًا منه أنه وقع في خطأ، ابتسم العمُ بيوتر وقال له: «كم أنت أحمق! هل نسيت أنها أصبحت عمياء قبل ثلاث سنواتٍ فقط، فهي لم تُولد عمياء وإنما فقدت بصرها عندما أُصيبت بمرض الجدري؛ لذا فهي تتذكر كلَّ هذه الأشياء المشرقة في الكون، ما أغباك من فتى!».

ردَّ عليه يافسي وهو يمسح الدموع من على وجنتيه قائلًا: «أنا لستُ غبيًا فقد صدَّقت الفتاة كلامي».

ـ «حسنًا، لا ترافقها بعد الآن مطلقًا، هل تسمعني؟».

ـ «حسنًا».

ـ «واصل بكاءك لكي يحسبوا أني ضربتك».

ربتَ الحدَّاد على كتف يافسي وتابع حديثه وهو يبتسم قائلًا: «أنا وأنت محتالان».

وضَعَ الفتى الصغير رأسه على جسد عمه وسأله وهو يرتعش قائلًا: «لماذا يعاملني الجميع هكذا؟».

أجابه عمه بعد لحظات من التفكير: «لا أعرف السبب أيها اليتيم».

ألقتْ تلك الأخطاءُ التي تعرّض لها الفتى بظلالٍ من المرارة على قلبه، تشكَّلتْ بداخله قناعةٌ قاتمةٌ أنه ليس كباقي أقرانه؛ الأمرُ الذي جعل الآخرين ينظرون إليه نظرةً مليئةً بالسخط، رأى الفتى أن قلوب الناسِ غارقةٌ في الخديعةِ والكراهيةِ والضغينة، فهم يخادعون جيرانهم ويستغلونهم ويشربُون الخمر حتى يثملون، كلُّ واحدٍ منهم يسعى للسيطرةِ على صاحبه وهو غيرُ قادرٍ على السيطرة على نفسه، كُلُّهم غارقون في خوفٍ من شيءٍ ما، حياتهم مليئةٌ برعبٍ مزَّقهم إلى أشلَاء.

تتربعُ قريته على تلةٍ منخفضةٍ، يمرُّ عبرها نهرٌ ينتهي بمستنقعٍ صغير، ضبابٌ أرجواني اللونِ خانقُ الرائحةِ يتصاعدُ من هذا المستنقعِ في فصل الصيفِ، يُلقي بأنفاسه الكريهة على أهالي القرية مرسلًا معه جحافلًا من البعوض، يشتاطَ الأهالي غضبًا ويضيقون ذرعًا من هجوم البعوض عليهم فيَحكُون جلودهم حتى تخرج الدماء منها، هناك خلف الغابة ذاتِ الأشجار الرقيقة يبزغُ القمر الدائري الكبير المحْمَر، يتراءى له من وراء الضباب وكأنه عينٌ مليئةٌ بالشر.

اعتقد يافسي أن القمر يُشكِّل مصدر تهديدٍ دائم له بكلِّ ما تحمله الكلمة من بؤسٍ ورهبة، كان خائفًا من وجه القمرِ المحمَّرِ الداكن، عندما يراه منعَكسًا على سطح المستنقعِ يُخبِّئ نَفسه خوفًا منه وتراوده أحلامٌ مرعبةٌ بسببه، تتراقص أضواءٌ فوق سطح المستنقع قِيلَ أنها أرواحٌ مُشرَّدةٌ تركها المذنبون خلفهم، حين يراها أهالي القرية يشفقون على تلك الأرواح ولكنهم لا يشفقون على بعضهم البعض.

كان بمقدورِ أهالي القرية أن يعيشوا حياةً مختلفةً تحفُّها الصداقةُ والوئام، تَيقن يافسي من إمكانية حدوثِ هذا الأمر من موقفٍ رآه في القرية؛ ففي إحدى الليالي احترق مخزن حبوب المُزارع الغني المعروف بفرتتكوف، فهرع الفتى الصغير نحو الحديقة واعتلى شجرة الصفصاف ليشاهد الحريق.

بدتْ له النارُ كطائرٍ متعددِ الأجنحةِ يَلوحُ في السماء، يحمل معه دخانًا قاتمًا كثيفًا، ينفُثُ النار من جوفه، مُنَكِّسًا رأسهَ المشتعل نحو الأرض وهو يمزق بأسنانه المشتعلة القش بشراهةٍ، يقضمُ الخشب، يلعقه بألسنته الصفراء، يلْتفُّ جسدُه المليء بالدخان في السماء السوداء، يسقط على القرية متسللًا إلى أسطحها، ومن ثم يرتفع مجددًا إلى الأعلى بكلِّ خفةٍ وعظمةٍ دون أن يزيل رأسه الأحمر المشتعل من الأرض، اشتعلتْ النيران ورمتْ بشررها وهي تصدرُ صفيرًا من الفرح احتفالًا بعملها الشرير، تُغني وتنفُثُ ألسنتها، تُوسِّعُ فكها المستعر أكبر فأكبر، وتحتضن الأخشاب بألسنة لهبها المحمَّر أكثر فأكثر.

أصبحِ الناسُ في هيبة النار صغارًا سودًا، بدأوا يرشُون الماء على فك النار المشتعلة، يُدخلون أعمدةً طويلةً من الماء بداخلها ليمزقوا ألسنة اللهب الممتدة، تمكَّنوا من إخماد سعيرها قليلًا، بات الناس في

حالةٍ يرثى لها، فكانت بقايا الأدخنة المتطايرة تكتم أنفاسهم فيسعلون ويعطسون ويستنشقون بحثًا عن هواءٍ يتنفسونه وسط ذلك الدخان الكثيف، أخذوا يصرخون ويصيحون بأعلى صوتٍ حتى اختلطتْ أصواتهم بهدير النار وفرقعتها، اقتربوا أكثر فأكثر من الطائر الضخم وأخذوا يحاصرونه ويضيِّقون الخناق عليه وكأنهم يلفّون حبلًا على جسده، بدأ الحبل في التمزق في بعض الأجزاء ولكنهم أعادوا ربطه مجددًا بكلِّ إحكام، خنقت حبالهم تلك النار الحامية التي تشبه الطائر الضخم، إلّا أنَّ جسد الطائر انتفخ وأخذ يلتوي محاولًا تحرير رأسه من تلك الحبال، لكن أهالي القرية أمسكوا به سريعًا وطرحوه أرضًا، وبعد أن أصابهم الوهن وأخذ منهم التعب مأخذه وأصبحتْ وجوههم مكفهرَّة سقط ذلك الطائر الضخم على مخازن الحبوب المجاورة وزحف بمحاذاة الحدائق، خَفَتَ أجيج النار وبدأت في التلاشي.

صاح أهالي القرية ليشجعوا بعضهم البعض «هيّا معًا... هيّا معًا».

صاحت النسوة «الماء...الماء».

شكَّلت النساء سلسلة بشرية امتدت من النار حتى تاخمتْ النهر؛ اصطف الجميع في تلك السلسلة وفيهم الغرباء والأقرباء والأصدقاء والأعداء، وأخذ دلو الماء ينتقل من يدٍ إلى يد.

«هيا أسرعن...أسرعن أيتها النساء...ما أجمل ما تقمن به».

مشهدٌ يبعثُ على البهجة والسرور؛ ألفةٌ وتلاحمٌ بين أبناء القرية وهم يتصارعون مع النار، يُشجِّعونٍ بعضهم البعض، يطلقون عباراتِ الثناء لاستعراض مهاراتهم؛ عندما يختلفون تراهم يتمازحون بكلِّ لطف، صيحاتهم خاليةٌ من الغلِّ والحقد، في هيبة النار بدا كلُّ واحدٍ منهم يرى جاره صديقًا له، يغمرهم اللطف والود، وحين خمدتْ النيران غمرهم الفرح وأخذوا يغنُّون ويضحكون ويتباهون ويمازحون بعضهم البعض. بدأ كبار السنِ في إحتساء النبيذ ليزيلوا عنهم التعب والنصب؛ أما الشباب فظلُّوا في الشوارع يستمتعون حتى أطلَّ الصباح؛ عادت الأمور إلى طبيعتها وكأنهم استفاقوا من كابوسٍ أزعجهم طيلة الليل.

لم يسمع يافسي في تلك اللحظات أيَّ صرخةٍ تُخبِّئُ حقدًا بداخلها، لم يرَ وجوهًا مكفهرة، لم يبكِ أحدٌ منهم من الألم والأذى إبان اشتعال النيران، لم يصرخ أيٌّ منهم صراخًا وحشيًا مستعرًا مليئًا بالحقد وكأنما يريد أن يشرع في قتل أحدهم.

قال يافسي مخاطبًا عمه في اليوم التالي: «كانت ليلة الأمس رائعة حقًا».

ردَّ عمه: «صدقت أيها اليتيم، كانت ليلةً رائعة فلم يبقَ سوى القليل وتلتهم النار نصف القرية!».

ردَّ الطفل قائلًا: «أقصد أهالي القرية يا عمي، كيف كانوا متحدين ومتكاتفين؛ كم أتمنى أن يعيشوا هكذا طيلة حياتهم، كم أتمنى أن تكون مثل هذه النار موجودةً دائمًا».

أخذ الحدَّاد يُفكَر هُنَيْهَةَ ومن ثمَّ سأل ابن أخيه على حين غرةٍ قائلَا: «هل تعني أنه يجب أن تشتعل النيران على الدوام؟»، طرح السؤال وهو ينظر إلى يافسي نظرةً صارمة ويشير بإصبعه، ثمَّ أردف قائلًا: «أيها المغرور إياك وأن تفكر بمثل هذه الأفكار السيئة، انظروا كيف يفكر! يستمتع برؤية النيران».

الفصلُ الثاني

عندما أنهى يافسي مرحلة المدرسة قال له الحدّاد: «ماذا سنفعل معك الآن؟ ليس هناك ما يُناسبك هنا، يجب عليك الذهاب إلى المدينة، سآخذك معي إلى هناك أيها اليتيم لأني سأذهب لشراء منفاخٍ لدكاني».

ـ «هل ستأخذني إلى هناك بنفسك؟».

ـ «نعم سآخذك معي، هل أنت حزينٌ لأنك ستغادر القرية؟».

ـ «لا لست كذلك، وإنما حزني لأجلك».

وضع الحدّاد قطعة من الحديد في الفرن وأخذ يُقلِّب الفحم مستخدمًا الملاقط وقال بعد تفكيرٍ عميق: «ليس هناك سببٌ يدعوك لتحزن لأجلي، فأنا ناضجٌ بما فيه الكفاية، أنا هنا كما قُدِّر لي؛ قرويٌ مثل باقي القرويين».

ردَّ عليه يافسي بنبرةٍ منخفضةٍ قائلًا: «أنت أفضلُ من أي شخصٍ آخر».

يبدو أن العم بيوتر لم يسمع ما قاله يافسي لأنه لم يجبه وبدأ بإخراج الحديد المتوهج من النار، فتح عينيه بشدة وبدأ يضرب الحديد بالمطرقة فتناثر الشرر الأحمر حوله، توقَّف فجأةً وأرخى يده التي يحمل بها المطرقة ببطء وقال مبتسمًا: «سأسدي إليك بعض النصائح حول الحياة وكيفية التأقلم معها وأشياء أخرى».

ظلَّ يافسي منتظرًا سماع النصائح من عمه؛ إلَّا أن النسيان قد داهم أفكار الحدّاد على ما يبدو فأعاد وضع الحديد مرة أخرى في النار، مسح تلك الدموع الهاربة من عينيه الحادة إلى خديه وصوّب نظرهُ نحو الفرن. دخل أحد القرويين عليه وفي يده إطارٌ مشقوق، فخرج يافسي متجهًا نحو الوادي حيث جلس القرفصاء بين الشجيرات حتى غروب الشمس منتظرًا أن يكون عمه وحده ليعود إليه ولكن هذا الأمر لم يحدث.

تلاشت من ذاكرة الصبي تفاصيلُ يوم رحيله من القرية، لم يتذكرْ سوى ذلك الظلام الدامس وهم يسيرون بين الحقول، تهتزُ العربةُ يمنةً ويسرةً مُخيفةً الركَّاب، أشجارٌ سوداء ساكنة تغطي جانبي الطريق، كلما تقدّموا اتسع الفضاء أمامهم وأصبح الجو أكثر إشراقًا، كان العم متجهم الوجه طيلة الطريق، يجيب على أسئلة يافسي على مضضٍ ويعطيه إجاباتٍ غير واضحة.

واصلوا مسيرهم طيلةَ اليوم إلى أن توقفوا أثناء الليل في قريةٍ صغيرة، التقطت مسامع يافسي في تلك الأثناء صوت عزفٍ جميلٍ على آلة الأكورديون، وصوتَ امرأةٍ تبكي، وصوت شخصٍ غاضبٍ يقول بين فينةٍ وأخرى «اخرس!» ويُطلق شتائمَ مسيئةً.

واصل المسافرون طريقهم في نفس الليلة، رافقهم كلبان من كلاب القرية، كانا يتبعان العربة ويطلقان نباحهما، فور مغادرتهم القرية خرج طائرُ الواق من وسط الغابة على الجانب الأيسر من الطريق كئيبًا حزينًا.

تمتم الحدّاد عندها قائلًا: «شكرًا للإله على هذا الحظِ السعيد».

غلب النعاسُ عيني يافسي ولم يستيقظ إلا بعد أن ضربه عمه ضربةً خفيفةً على رجله بالسوط قائلًا له: «انظر أيها اليتيم!».

بدتْ المدينة في عينيْ الطفل الناعستين أشبه بحقلٍ كبيرٍ من الحنطة السوداء؛ بسماكةِ مبانيها، وتعددِ ألوانها، ومساحتِها الشاسعة بمدِّ البصر، وأبراجِ كنيستهَا الذهبية التي تبدو وكأنها نباتات اليانسون الصفراء، وحوافِ طرقها المظلمة.

قال يافسي: «ما أكبرَ هذه المدينة!».

وبعد نظرةٍ أخرى سأل عمه سؤالًا يمازجه الحذرُ قائلًا: «هل ستأتي للقائي هنا مجددًا؟».

ردَّ عليه عمه قائلًا: «بالطبع سألتقي بك عند زيارتي للمدينة؛ لأنك ستجني المال هنا وسأطلب منك أن تعطيني بعضًا منه، سأقول لك أيها اليتيم أعطِ عمَّك ثلاث روبلات».

ردَّ عليه يافسي: «سأعطيك كلَّ المال الذي بحوزتي».

قال له عمه: «يجدر بك ألَّا تعطيني كلَّ مالك، وإنما يجب عليك أن تبذل المال بالقدر الذي لا يجعلك تتحسرُ على فقدانه؛ فمن الخزي أن تعطي القليل، لكن من الإجحاف أن تبسط يدك كلَّ البسط».

بدأت المدينة تكبُر شيئًا فشيئًا في أعينهما، أخذتْ ألوانها المتنوعة تظهر شيئًا فشيئًا؛ فهناك الأخضر والأحمر والذهبي؛ ألوانٌ تخرج من أشعة الشمس المنعكسة على زجاج النوافذ التي لا يُحصى عددها وعلى أبراج الكنيسة الذهبية. بدت هذه المدينة وكأنها تُقدِّم وعودًا لزوارها؛ تُشعِل في القلب فضولًا حائرًا وتوقعات قاتمةٍ لحدثٍ استثنائي، ألقى يافسي بنظره إلي الأمام وهو جاثٍ على ركبتيه ويده على كتفِ عمه، وإذا بعمه يقول له: «هكذا ستعيش؛ أنجز كل مهمة تُسند إليك، تجنَّب الاحتكاك بالآخرين، وكن على حذرٍ من المجازفين؛ فمن عشرة مجازفين ينجح شخصٌ واحدٌ ويتمزَّقُ التسعة الباقين إلى أشلاء».

يتحدثُ عمه مترددًا كما لو أنه يشكُّ في صحةِ كلامه، أخذ ينبش في أفكاره باحثًا عن شيءٍ مهم يقوله له، أنصتَ يافسي بكلِّ جوارحه متوقعًا سماع عمه وهو يحذره من المخاطرِ والأهوال التي تحفُّ هذه الحياة الجديدة؛ التقط الحدّاد نفسًا عميقًا وصمتَ هُنَيْهَةً وتابع حديثه بكل حزم وثقةٍ قائلًا: «دنوا مني في إحدى المرات وجلدوني بالسياط في ساحة المقاطعة، كنتُ قد احتقلتُ بخَطوبتي آنذاك وعلى وشكِ الزواج، لكن أحدًا لم يكترث لهذا الأمر فهُم لا يهتمون بشؤون الآخرين، أبرحوني ضربًا

بالسياط وشكيتهم لدى الحاكم، فكانت النتيجة بأن زجوا بي في السجن لثلاثةِ أشهرٍ ونصف وضرباتهم تنهال عليَّ، لم أعهد في حياتي كلها ضرباتٍ كتلك التي تلقيتُها منهم، حتى أنَّي تقيأتُ دمًا من شدتها، ومنذ تلك اللحظة والدموع لا تفارق عيني، وصورة شرطيٍ قصيرِ القامة محمرِّ الوجه لا تفارق مخيلتي».

قال له يافسي بنبرةٍ يكتنفها شيء من الهدوء: «لا تتحدث عن هذا الأمر يا عمي!».

صرخ عليه العمُ وابتسامةٌ تعلو محياه قائلًا: «ماذا عساي أقول لك، فليس لدي غير هذا الكلام».

طأْطأَ يافسي رأسه وقد ارتسم الحزن على ملامحه، دنتْ المنازل منهم أكثر فأكثر بروائحها النتنة وجدرانها المتسخة ومداخنها التي تخرج من سطوحها الحمراء والخضراء وكأنها نتوءاتٌ نبتت على جلد أحدهم. دخان رماديٌ مزرق يخرج من هذه المداخن بتثاقل، مداخنٌ شاهقةُ الارتفاعِ متسخةُ الجدرانِ تخرجُ منها سحبُ دخانٍ قاتمة، بدت الطرق منبسطةً وكأنها مُسحت بزيتٍ أسود، ضجيجٌ ما ينتشر في كل ركنٍ ليقطع سكون الجو الملتحف بالدخان؛ شيءٌ ما يصدرُ هديراً ويهمهم ويصفر، صوت حديدٍ يحتكُ ببعضه بغضب، مخلوقٌ ضخمٌ يتنفس بصوتٍ أجشٍ منكسر.

في خضم ذلك سأل يافسي عمه قائلًا: «متى سنصل إلى وجهتنا؟».

قال عمه وهو ينظر إلى الأمام بحذر: «لم نصل إلى المدينة بعد، فهذه هي المصانع في الضاحية».

وصلا أخيرًا إلى شارعٍ عريضٍ تصطفُّ على جانبيه المنازل القديمة بألوانها المختلفة، بدت هذه المنازل وادعةً وهادئةً وخاصةً تلك التي تحفُّها الحدائقُ النظرة التي بدت وكأنها رُبطت ببعضها البعض بقطعة قماشٍ خضراء.

قال له العم وهو يدخلُ بالحصان إلى طريقٍ ضيق: «سنصل عمَّا قريب»، تابع قائلًا: «لا تخف أيها اليتيم».

دخلا عبر البوابة الرئيسة لمنزل ضخم عتيق، قفزا من العربة ليُكملا طريقهما سيرًا على الأقدام في فناء المنزل، تبرز الدعامات من نوافذ المنزل الصغيرة القاتمة، في فنائه عددٌ من العربات المركونة وأربعة فلاحين يتحدثون بصوتٍ عالٍ عند حصان أبيض وهم يمسحون على جسده، أحدهم أصلعٌ مستدير الرأس تكسوه لحيةٌ صفراء كثَّة ووجهٌ متورِّد، بمجرد أن رأى بيوتر لوّح بيديه وقال: «يا إلهي! أهذا أنت!».

توجَّهوا إلى غرفةٍ مظلمةٍ ضيقةٍ وبدأوا باحتساء الشاي، شرع العم في الحديث عن القرية، وما إن سمعه الأصلع تعالتْ ضحكاته وصرخاته لدرجةِ أن الأطباق بدأت تهتز على الطاولة، كانت الغرفة ضيقةً ورائحة الخبز تنتشر فيها، أراد يافسي النوم فأخذ ينظر إلى الزاوية حيث يقع خلف ستائرها المتسخة سريرٌ كبيرٌ يعلوه عددٌ من الوسائد، بدأ الذباب الأسود الكبير يحوم حول يافسي؛ ينقره على جبينه ويمشي على وجهه ويدغدغ جلده المتعرج، لكنه لم يزعج نفسه بإبعاده عنه.

صرخ الأصلع في وجه يافسي وهو يومئ برأسه والفرح يعلو محياه قائلًا: «سنجد لك مكانًا آخر، سيحدث ذلك حالًا! نتاليا...هل اتصلتِ بـماتفيفيتش؟».

بكلِّ هدوءٍ أجابته امرأةٌ داكنةُ الرموش صغيرةُ الفم طويلةُ القامةِ قائلةً: «كم مرةً طلبت مني هذا الأمر حتى الآن؟».

رفعتْ رأسها بكلِّ فخرٍ، وحين حرَّكت يديها خرج صوتٌ جميل من كُمِّ ردائها الوردي، هيئتها توحي للناظر إليها بأنهُ يعيش حُلمًا جميلًا أو حكايةً خياليةً.

صاح الأصلعُ بصوتٍ عالٍ يكاد يصم الآذانِ قائلًا: «انظر يا صديقي بيوتر إلى نتاليا! يا لها من امرأةٍ رائعةٍ وكأنها قطراتٌ من عسلٍ مصفًى!».

ضحك العم بيوتر والهدوء يغشاه كما لو كان خائفًا من النظر إلى هذه المرأة، قدَّمت نتاليا خبز الجاودار الساخن المليء بخثارة اللبن ليافسي وقالت له: «كُلْ واملئ معدتك بالطعام، يجب أن يأكل الناس الكثير من الطعام في هذه المدينة».

على طاولة الطعام جرةٌ بها مربى، صحنٌ صغير به عسل، قطعٌ صغيرةٌ من لحم الخنزير، بذور اليانسون، النقانق، الخيار، الفودكا، انتشرت رائحة الطعام في أرجاء المكان مما جعل يافسي يُصاب بالإعياء من كثرته؛ لم يقاوم إغراءه فأخذ يأكل كل شيءٍ أمامه.

صرخ الأصلع في وجهه قائلًا: «كل أيها الصبي!»، بعدها تابع حديثه مع العم بيوتر بقوله: «دعني أخبرك شيئًا، كم كان الحظ رفيقنا، فلم يمر أسبوعٌ على حادثة سحق الحصان للفتى الذي كان ذاهبًا لجلب الماء الساخن حين....».

وأثناء ذلك دخل رجلٌ دون أن يلاحظه الجالسون؛ أصلعُ الرأسِ ضعيفُ البنيةِ نحيفُ القوام، يرتدي نظارةً تعتلي أنفه الكبير، تتربع على ذقنه خصلةٌ طويلةٌ من الشعر الرمادي.

دخل عليهم قائلًا بصوتٍ خافت: «ماذا يحدثُ هنا أيها البشر؟».

قفز الأصلع من مكانه وصرخ صرخةً تبعها بضحكةٍ عالية؛ حينها أوجس يافسي خيفةً في نفسه، خاطب الرجلُ العم بيوتر وضيوفه بـ«البشر» في إشارةٍ إلى أنه ليس منهم، بعدها جلس غير بعيدٍ عن الطاولة، ومن ثم تحرك إلى مكانٍ آخر بعيدًا من الحدّاد، بدء يلوِّح ببصره في المكان محركًا عنقه النحيف ببطء، يعلو جبهته نتوءٌ كبير فوق عينه اليمنى، تكاد أذناه الصغيرتان تلتصقان بجمجمته وكأنهما مختبئتان خلف شعره الرمادي، كان انطباعهم الأول عنه بأنه شخصٌ هادئ كئيبٌ، حاول يافسي دون طائلٍ أن يختلس النظر لرؤية عينيّ الرجل من وراء نظّارته؛ مما زاد من ربكته وقلقه.

صاح الرجل الأصلعُ قائلًا: «هل ترى أيها اليتيم؟ هذا الرجل يشبه البوق!»، إشارةً إلى النتوء البارز على جبهته.

جلس الرجلُ واضعًا يديه السوداوين على ركبتيه الصلبتين وتحدث لبعض الوقت وسكت، سمع يافسي هذا الرجل الغريب يتمتم بكلمات مبهمة، وأخيرًا قال لهم: «حسنًا لقد اتفقنا».

تحرّك العمُ بيوتر من كرسيِّه بعد سماع هذه الكلمات وقال ليافسي: «حسنًا أيها اليتيم، لقد وجدنا لك مكانًا، وهذا هو سيِّدك». بعدها صوَّب نظَره تجاه الرجل الغريب وقال له: «أودُّ أن أخبرك أن الولد يجيد القراءة والكتابة وهو ليس غبيًا البتة؛ لا أقول لك هذا لأني لن أجد له عملًا غير هذا ولكنها الحقيقة، هذا الولد فضوليٌّ أيضًا».

ردَّ عليه الرجل الغريب وهو يهزُّ رأسه قائلًا: «ليس لي حاجةٌ بفضوله».

بعدها قال له العم بيوتر: «الولد قصيرٌ بعض الشيء ويسمونه في القرية بالرجل العجوز».

ردَّ عليه الرجل الغريب والنتوء يعلو جبهته: «حسنًا سنرى ما ستخبئه لنا الأيام».

وضعَ يده على نظارته وأخذ يتمعن في وجه يافسي وقال له: «اسمي ماتفي ماتفيفيتش».

أشاح بظهره آذنًا بالرحيل ممسكًا بكوبِ الشاي وهو يحتسيه دون ضجة، ومن ثم خرج من المنزل بهدوء.

خرج يافسي مع عمه إلى فناء المنزل واتخذا من ظل إسطبل الخيول مستراحًا لهما، بدأ الحدّاد بالحديث مع يافسي بحذرٍ وكأنما يشير إلى شيء غامضٍ غير مفهوم.

«يتوجب عليك أن تحسنَ التصرف معه، فقد كبر سنه وشاب شعر رأسه، عاش حياته تاركًا جميع أنواع الذنوب خلفه، يعيشُ حياته الآن باحثًا عن كسرة خبز، ستسمعه يتذمر ويشتكي مثل القط توم».

سأله الطفل قائلًا: «أليس مشعوذًا؟».

ردَّ عليه عمه: «لماذا تقول ذلك؟ لا وجود للمشعوذين في المدينة».

فكَّر الحدّاد هُنيْهةً واستأنف حديثه قائلًا: «حسنًا، الأمر سيَّانٌ بالنسبة لك، فالمشعوذ إنسانٌ حاله كحالنا، ولكن تذكَّر ما أقوله لك فالمدينة مكانٌ خطير؛ فهي تفسد البشر. إذا ذهبت امرأةٌ في رحلة عبادة فإن زوجها سيضع في مكانها خادمةً أو امرأةً أخرى لكي تخدُمه، لكن هذا الرجل العجوز لا يستطيع فعل ذلك، ولذلك يتوجب عليك معاملته بالحسنى؛ ستعيش معه كما لو أنك جالس خلف شجرةٍ وتنظر إليه».

سأل يافسي عمه قائلًا: «وحين يموت؟».

«أحسب أنه لن يكون قريبًا، دع عنك هذا الكلام وضع قليلًا من الزيت على شعرك لكيلا تكون أشعثًا هكذا».

عندما حلَّ المساء ودَّع يافسي الرجل الأصلع، جرَّه عمه من يده ذاهبًا به إلى المدينة، قادتهما أقدامهما للمشي لمسافة طويلة والحرُّ يلسعهما، أخذا يسألان المارَّة عن الطريق لبلوغ مقصدهم، كان يافسي يتمعَّن في الأشياء حوله بعينيه اللتين تشبهان عيني البومة وهو ملتصقٌ بعمه، دقَّت الساعة إيذانًا بانتهاء ساعات العمل في السوق فبدأت المتاجر تغلق أبوابها، عمَّت أصواتُ بكرات العربات أرجاء المكان، بدأ التُجَّار في الصراخ، أخذت الأقدام تشقُّ طريقها للخروج من السوق وهي متثاقلة، تشابكت جميع هذه الأصوات وتداخلت في جوٍ خانقٍ ومغبر، يسيرُ الناس بسرعةٍ ويحثون خطاهم إلى جانب الخيول كما لو أنَّ بهم خوفًا من التأخر عن شيءٍ ما، كلُّ هذا الصخب أصاب عيني الصبي بالتعب؛ فما كان منه إلّا أن يغلقهما بين الفينة والأخرى، عندما يتعثرُ في مشيته يقول له عمه: «هيَّا أسرع!».

أراد يافسي أن يصل إلى مكانٍ يخلعُ الضجيجَ عند عتباته ويركن فيه إلى السكينة والهدوء، حطَّت أقدامهما أخيرًا في ساحةٍ مفتوحةٍ تحيط بها بعض المنازل القديمة التي بدتْ وكأنها تتكئُ على بعضها البعض لكيلا تتهاوى، في وسط هذه الساحة يقبع ينبوع ماءٍ تحيط به تربةٌ رطبة، يلتَحفُ هذا المكان بالسكينة والهدوء بعيدًا عن الضجيج.

قال يافسي لعمه: «انظر، هذا المكان مزدحمٌ بالمنازل المتلاصقة حتَّى أنك لا ترى أية أراضٍ خالية».

أجابه الحدّاد متنهدًا: «نعم هذا المكان مزدحم، لا عليك من هذا، اقرأ لي اللافتات لنصل إلى دُكان راسبوبوف».

اتجها إلى وسط الساحة، وتوقفا بالقرب من النافورة، كان هنالك الكثير من اللافتات القابعة فوق المنازل وكأنها رقعٌ متناثرة على معطفِ متسول، عندما اقتنصت عينا يافسي الاسم الذي ذكره له عمه أقشعَّر بدنه وأخذ ينظر إلى اللافتة دون أن ينبس بكلمة، كانت اللافتة صغيرة وقد بلغ منها الصدأ مبلغه، موضوعة على باب الطابق السفلي المظلم، على جانبي الباب كانت هناك مساحةٌ تفصل بين الرصيف والمنزل مسيجة بسورٍ حديدي منخفض، يكتسي المنزل باللون الأصفر، منزلٌ متسخٌ يتساقط منه الجص به أربعة طوابقٍ وثلاث نوافذ في كل طابق، بدا المنزل غارقًا في ظلامٍ دامسٍ وكأنه حيوان الخُلد بشكله المخادع وهيئته القبيحة.

قال الحدّاد مستفسراً: «لم لا نستطيع رؤية اللافتة؟».

ردَّ عليه الصبي وهو يومئ برأسه قائلًا: «ها هو ذا! هيا بنا نرسم إشارة الصليب ونمضي».

نزلا إلى الباب الواقع أسفل السُلَّم الحجري، رفع الحدّاد قبعته من رأسه ونظر نظرةَ حذرٍ إلى المتجر.

تسلل إليهما صوتٌ من الداخل يقول: «هيَّا ادخلا!».

كان ذلك صوت صاحب المتجر؛ رجلٌ يرتدي قبعةً دائريةً من الحرير الأسود، جالسٌ على طاولةٍ بالقرب من النافذة يحتسي الشاي.

قال لهما: «أيها الفلاح هاتِ الكرسي واجلس لتشرب بعض الشاي، وأنت أيها الصبي اذهب واحضر كوبًا من الرف هناك».

يُشير الرجلُ العجوز إلى زاويةٍ في نهاية الدكان وكأنه يخاطب صبيًا آخر، نظر يافسي إلى تلك الزاوية ولم يرَ أي صبيٍ هناك.

نظر الرجلُ العجوز إلى يافسي وقال له: «ما بِك؟ ماذا ترى هناك؟ من في المكان صبيٌ غيرك؟».

ردَّ عليه العمُ بيوتر بصوتٍ هادئٍ قائلًا: «الصبي لم يتعود على الأمر بعد».

لوَّح الرجلُ العجوزُ بيديه مرةً أخرى وقال: «الكوبُ موجودٌ في الجانب الأيمن من الرف، يتوجب عليك فهم ما يريده سيِّدك قبل أن يصل إلى نصف حديثه؛ هذا هو قانوني».

تنهَّد الحدّاد، ذهب يافسي ليحضر الكوب من وسط الظلام، تعثّر بكومة الكتب على الأرض وهو في طريقه ليعطي سيِّده الكوب.

قال له الرجلُ العجوز: «ضعه على الطاولة، ولكن أين الصحن؟».

هتف العم بيوتر قائلًا: «ما بالك يا فتى! احضر الصحن».

قال الرجل العجوز وهو ينظر بنظرةٍ حادةٍ إلى الحدّاد: «سأستغرق وقتًا طويلًا لتعليمه».

«يا صبي، خُذ جولةً في المتجر، واحفظ مكان البضاعة في ذاكرتك».

أحسَّ يافسي كما لو أن هناك شيئًا ما قد اخترق جسده وأخذ يُسيّره كيفما يشاء، لملم نفسه وأخذ يتجوَّل في المتجر وكلمات سيِّده ترنُّ في أذنيه، كان الجو باردًا قاتمًا يغشاه الهدوء؛ بالكادِ يدخلُ ضجيجُ المدينة إلى المتجر وكأنه قطراتٌ تخرج من ماءٍ جارٍ. كان المتجر ضيِّقًا وطويلًا وكأنه قبرٌ، ترى فيه أرففاً تحمل كتباً في صفوف متقاربة، أكوامٌ مرتفعةٌ من الكتب منتشرةٌ على الأرضٍ تصل إلى الجدار الخلفي وتلامس السقف تقريبًا، رأى يافسي إلى جانبِ الكتب سُلَّمًا ومظلةً وأحذيةً وأواني بيضاء بدون مقبض، الغبارُ يملأ المكان ورائحته منتشرةٌ في كلِّ زاوية.

قال العجوز: «أنا رجلٌ هادئٌ ووحيد تمامًا، وإذا ما رضيت عنه سأجعله سعيدًا».

ردَّ عليه العم بيوتر: «طبعًا فالأمر يعود لك».

«أنا في السابعة والخمسين من عمري، عشت حياةً صادقة ونظيفة، ولن أتساهل أبدًا مع خيانة الأمانة، وإذا لاحظت أي شيءٍ من هذا القبيل فسأسلمه إلى المحكمة، فالقانون اليوم لا يستثني القاصرين، فهناك سجنٌ مخصصٌ للصوص الصغار لتخويفهم أطلقوا عليه اسم مستعمرة المجرمين الصغار».

لامستْ كلماتُ الرجل العجوز القاسية والباهتة مشاعر يافسي وأثارت بداخله رغبةً لإرضائه.

تنّهد العم بيوتر وقال: «وداعًا، يجب على الصبي أن يبدأ عمله حالًا»، أردف قائلًا: «حسنًا أيها اليتيم، سوف تعيش هنا من الآن فصاعدًا، ويتوجب عليك إطاعة سيِّدك، فهو لا يريد إلحاق الأذية بك، سيبتاع لك ملابسَ تناسبُ المدينة، هيا دع عنك الكآبة والحزن».

ردَّ عليه يافسي بقوله: «حسنًا سأفعل».

وهنا قاطعه الرجل العجوز وقال: «يتوجب عليك ألَّا تكتفي بقولِ حسنًا بل قل حسنًا سيِّدي».

قال يافسي: «حسنًا سيِّدي».

بعدها ودَّع الحدّاد ابن أخيه وهو يضع يده على كتفه ويرَبّت عليها، وما إن خرج حتى ارتعدت فرائص يافسي وانتابه شعورٌ بالحزن، ذهب إلى الباب وأخذ يُحمْلِقُ في وجه سيِّده الذي صبغته السنين لونًا أصفرَ، أمسك الرجل العجوز بخصلة الشعر الرمادية على ذقنه وأخذ يحركها وهو ينظر إلى الصبي، وهنا رأى يافسي عيني العجوز السوداء القاتمة من وراء النظارة، وقف الاثنان على هذا الحال لبضع دقائق في ترقبٍ لأن يبادر أحدهما بفعلِ شيءٍ ما، أخذت نبضاتُ قلب الصبي تزداد سرعةً حتى تكاد تراها من فوق صدره من شدة فزعه؛ بعدها تناول الرجل العجوز كتابًا من أحد الرفوف وسأل يافسي وهو يشير إلى الغلاف.

«ما هذا الرقم؟».

ردَّ يافسي منكِّسًا رأسه «إنه 1873».

أجابه العجوز: «أحسنت!».

وضع العجوز أصابعه التي أكل عليها الدهر وشرب على ذقن يافسي وقال له: «انظر إلي».

رفع الصبي رأسه وأغمض عينيه وأخذ يتمتم قائلًا: «يا عمي، سأطيعك دائمًا ولن تحتاج إلى ضربي»، بعدها سكن فؤاده وبدأ النعاس يغشاه.

قال له العجوز: «تعال إلى هنا».

جلس الرجل، أرخى يديه على ركبتيه، أزاح قبعته وراح يمسح رأسه الأصلع بمنديله، أنزل نظارته ووضعها تحت أنفه وأخذ ينظر إلى يافسي عبرهما؛ وهنا رآه يافسي وكأن لديه أربعة أعين، بدت عيناه الحقيقيتان صغيرتان وساكنتان تميلان للون الرمادي تَعبُر بين شطيْهِما خطوطٌ حمراء، بدا وجه العجوز دون النظارات نحيفًا كثيرَ التجاعيدِ قليلَ الصرامة، ارتسمتْ عليه علامات الإعياء والكآبة، أما عيناه فلم تشِ بحالٍ أحسن مما تعكسه تقاسيم وجهه، بدا النتوءُ الذي يعلو جبهته أكبر فأكبر.

ـ «هل يضربونك كثيرًا؟».

ـ «نعم يا سيِّدي، في كثير من الأحيان».

ـ «من يضربك؟».

ـ «الأولاد».

ـ «حقًا!».

حرَّك العجوز نظارته قرب عينيه وبدأ يتمتم بشفتيه قائلًا: «الصبيان مشاغبون أيضًا في هذه المدينة؛ فلا تصاحبهم بتاتًا، هل تسمعني؟».

ـ «نعم يا سيِّدي».

ـ «كن حذرًا منهم، فهم حفنةُ صبيانٍ أوغادٍ ولصوص، ضع في حسبانك أني لن أعلمك شيئًا سيئًا، ولا تخف مني فأنا رجل صالح، لابُدَّ أن تُحبني، نعم ستُحبني، ستسير الأمور على ما يُرام وكما نريد».

ـ «نعم سيِّدي، سأفعل ما تقوله».

لا زال وجه العجوز على حاله، انتصب قائمًا وأخذ بيدِ يافسي يجره إلى نهاية المتجر قائلًا له: «سأعطيك أول مهمةٍ هنا؛ أترى هذه الكتب التي أمامك؟ يوجد في كلِّ كتابٍ منها تاريخٌ معين، ستجدُ اثني عشر كتابًا لكلِّ عامٍ، صنِّفها حسب ترتيبها بالأعوام، والآن أخبرني كيف ستنجز هذه المهمة؟».

فكَّر يافسي لبعض الوقت وأجاب بخجلٍ: «لا علم لي».

قال له الرجل العجوز: «حسنًا، لن أخبرك كيف تنجز عملك، بمقدورك القراءة وستستطيع اكتشاف ذلك بنفسك، اذهب الآن إلى العمل».

بدا صوت الرجل العجوز الجاف وكأنه سوطٌ يلسع يافسي، مبعدًا عنه حزن الانفصال عن عمه ودافعًا إياه ليبدأ عمله بسرعة؛ شمَّر عن ساعديه وهو يكتم دموعه، شرع في عمله مبتدئًا بفكِ حزم

الكتب، يمسك بالكتَبِ واحدًا تلو الآخر، وحينما يسقط كتابٌ من يديه ويرتطم بالأرضِ ينظر يافسي حوله متوجسًا ويتابع عمله، كان الرجل العجوز في تلك الأثناء جالسًا على كرسيه يكتب بقلم مهترئ، وخلف باب المتجر أناسٌ يمشون على عجلٍ وأقدامهم تسير بسرعة البرق؛ تكادُ ظلالهم تهزُّ المكانَ، انهمرت دموع يافسي في هذه الأثناء واحدةً تلو الأخرى، فأسرع يمسحها بيديه المتسختين خشيةَ أن يراه أحدٌ على هذا الحال، كان فزعًا متوترًا وهو يؤدي عمله مع الكتب.

بدا الأمرُ صعبًا بالنسبة له في بادئ الأمر؛ لكنه سرعان ما انغمس في شعورٍ من عدم الاكتراث والفراغ؛ هذا الشعور الذي اعتاد عليه حينما كان يتلقَّى الضرب والشتائم خلَال السنوات المنصرمة وينزوي غير مكترثٍ بما حدث، عيناه تقتنصان الشهر واليوم فتبدأ يداه في ترتيب الكتب حسب تاريخها وكأنه آلةٌ وهو يتمايل في جلسته، شيئًا فشيئًا يصبح يافسي غارقًا في حالة سكون يتناسى فيها الواقع، يبزغُ أملٌ خافت في قلبه مترقبًا حدوث شيءٍ مختلفٍ كما هو الحال دائمًا في مثل هذه الأوقات، ترنُّ العبارة التي قالها ابن عمه ياكوف في ذهنه بين فينة وأخرى «هذا الوقت سيمضي».

ما زال يافسي متشبثًا بأمله بأن بشارات جميلة ستلوح في الأفق تحملُ بين طياتها شيئًا مختلفًا تمامًا، وبينما هو منغمسٍ في تفكيره توقَّدت مشاعره بالحماس فبدأت يداه تتحركان بسرعةٍ وتعملان دون أن يشعر بمرور الوقت.

قطع العجوز صمت الصبي وانهماكه في عمله وقال له: «أرأيت يا صبي، لقد تعلمت عملك وحدك».

لكن يافسي كان منشغلًا في عمله لدرجة أنه لم يسمع الرجل العجوز وهو يقترب منه، فبادر بسؤاله وهو ينظر إلى ما أنجزه من عملٍ قائلًا: «هل أعجبك عملي؟».

ردَّ العجوز بقوله: «بالطبع! هل تريد بعضًا من الشاي؟».

أجابه يافسي: «لا».

لكن الرجل العجوز قال له موبخًا: «يتعين عليك أن تقول «لا أريد شكراً...حسنًا تابع عملك».

ابتعد الرجل العجوز عن يافسي، وفي هذه الأثناء رأى رجلًا بيده عصا يدخلُ من باب المتجر، رجلٌ عديم اللحية والشارب، يرتدي قبعةً مستديرةً واضعًا إياها خلف رقبته، جلس على الطاولة ووضع عليها قطعًا تحمل اللون الأبيض والأسود، عاد يافسي إلى عمله، فإذا به يسمع بين الحين والآخر كلماتٍ تصدر من سيِّده وضيفه:

ـ «قلعة».

ـ «ملك».

ـ «قريبًا سأتغلب عليك».

اخترق ضجيج الشارع سكون المتجر، تعالت أصواتهما بكلماتٍ غريبةٍ أشبه بنقيق ضفادعٍ في مستنقع.

«ما الذي يفعلونه؟»، فكَّر الصبي هُنَيْهَةً وتنهَّد؛ باغته بعد ذلك إحساسٌ غريب بشيءٍ ما على وشك الحدوث؛ شيءٌ ما سيحدث لكنه ليس الشيء الذي ما انفكَّ ينتظره، وبينما هو غارقٌ في تلك المشاعر إذا بالغبار ينتشر في المكان مداعبًا أنفه وعينيه، تلوَّنت أسنانه بالغبار، حينها تذكَّر مقولة عمه له «ستعيش معه وكأنك تقف خلف شجرة».

اجتاحت عتمة الليل بهجة النهار، صاح الضيفُ بصوتٍ عالٍ قائلًا: «حاصرتُ الملك!».

بعدها صاح الرجلُ العجوز على الصبي وهو يصدر صوتًا كنقيق الدجاج: «يا صبي، أغلق المتجر!».

يعيش الرجل العجوز في غرفتين صغيرتين في الطابق الرابع من نفس المنزل، خلتْ الغرفة الأولى إلا من نافذةٍ وصندوقٍ كبيرٍ وخزانةِ ملابس.

قال العجوز ليافسي: «هنا سيكون سريرك».

في الغرفة الثانية نافذتان تطلان على منظرٍ من أسطح لامتناهية وسماءٍ وردية، في زاوية الغرفة مصباحٌ زجاجي يومض وميضًا أزرقًا، في الزاوية الأخرى يقبعُ سرير يغطيه غطاءٌ أحمر، اكتست جدرانُ الغرفة بصورٍ للقيصر وعددٍ من الجنرالات، تُشبه هذه الغرفة الكنيسة برائحتها.

ظلّ يافسي واقفًا على عتبة باب الغرفة ينظر إلى سيِّده، وفجأةً قال له: «احفظ ترتيب الأشياء في المنزل؛ أريدها مرتبة دائمًا بنفس هذا الترتيب».

بالقرب من الحائط أريكة سوداء عريضة وطاولة مستديرة وكراسي سوداء؛ هذه الزاوية بسوادها تبعث على الحزن والشؤم.

دخلتْ امرأةٌ طويلة القوام بيضاء البشرة عيناها تشبهان عيون الخروف، سألت بصوتٍ منخفضٍ وكأنها تغني قائلةً:

ـ «هل أحضر العشاء؟».

ـ «نعم أحضريه».

ـ «صبيٌ جديدٌ هنا؟».

ـ «نعم صبيٌ جديد اسمه يافسي».

خرجت المرأة.

صاح العجوز قائلًا: «أغلق الباب يا صبي».

أطاع يافسي أمر سيِّده.

استمر العجوز في حديثه قائلًا بصوتٍ منخفض: «إنها صاحبة المنزل، استأجرتُ الغرف منها مع الغداء والعشاء، هل تفهم ما أقوله لك؟».

ردّ عليه يافسي: «نعم فهمت».

ـ «ولكن لديك سيِّد واحد وهو أنا، أتفهم ما أقوله؟»

ـ «نعم».

ـ «هذا يعني أنه يتوجب عليك أن تستمع لي أنا فقط، افتح الباب وادخل المطبخ لتغسل نفسك».

ظلَّ صوتُ السيِّد يتردد في صدر الصبي قاذفًا في قلبه الرعب والخوف، يبدو أن الرجل العجوز كان يخفي شيئًا خطيرًا وراء كلماته؛ شيئًا ما يخاف منه بنفسه.

بينما كان يافسي يغسل يديه في المطبخ أخذ ينظر خلسةً إلى صاحبة المنزل وهي تُعد العشاء بكلِّ هدوء، ترتبُ الأطباق والسكاكين والخبز على صينية كبيرة، أخذ يافسي يتمعن في وجهها المستدير اللطيف، بعد رؤيته لشعرها الداكن المتدلي وعينيها الجادتين ورمشها الرفيع وأنفها الواسع، قال الصبي لنفسه: «تبدو هذه المرأة لطيفة».

لاحظ يافسي أن المرأة كانت تنظر إليه وهو يُحدِّق إلى شفاهها الحمراء الرقيقة فأصبح مرتبكًا وسكب بعض الماء على الأرض.

قالت بنبرةٍ لا يشوبها غضب: «امسحها، هناك قطعة قماش تحت الكرسي».

عندما عاد الصبي إلى سيِّده نظر إليه قائلًا: «ماذا قالت لك؟».

لكن الوقت أسعفه فلم يكن كافيًا ليرد يافسي على السؤال لدخول المرأة عليهما حاملةً في يديها صينية الطعام.

وضعت المرأة الطعام على الطاولة وقالت: «حسنًا، سأذهب الآن».

أجاب العجوز: «حسنًا».

رفعت يديها لتمسح شعرها بأصابعها الطويلة وغادرت المكان، جلس العجوز والصبي لتناول العشاء، كان السيِّد يقضم طعامه مُصدرًا صوتًا عاليًا ويتنهد في بعض الأحيان من فرط إعيائه، عندما شَرَعا في تناول اللحم المشوي المفروم قال العجوز: «ما هو طعامك المفضّل؟ بالنسبة لي ليس لدي إلا وجبةٌ واحدةٌ مفضلة».

طلب العجوز من يافسي بعد تناول العشاء نقل الأطباق إلى المطبخ وأخبره كيفية إضاءة المصباح.

بعدها قال له: «اخلد إلى النوم الآن؛ ستجد في الخزانة فراشًا ووسادة وبطانية جهزتها لك. وفي الغد سأشتري لك ملابسَ جديدةً وجميلةً؛ اذهب الآن إلى فراشك».

عندما كانت عينا يافسي تصافحان النوم جاءه العجوز وقال له: «هل أنت مرتاحٌ هنا؟».

على الرغم من أن الفراش كان مزعجًا لصلابته أجاب: «نعم أنا مرتاح».

تابع العجوز حديثه وقال: «إذا أحسست بالحر فافتح النافذة».

وعلى وجه السرعة فتح الصبي النافذة التي تطل على سطح المنزل المجاور وبدأ يعدُّ المداخن، كانت هناك أربعة منها، نظر إلى النجوم وكأنها حيوان مخلوع الفؤاد وُضِع في قفص، انتظر يافسي أن تبوح له النجوم بشيءٍ لكن لم يحدث ما تمناه قلبه، عاد إلى فراشه الصلب مرة أخرى، وضع الغطاء على جسده، أغلق عينيه بإحكام، بدأ يشعر بالاختناق فأخرج رأسه من الغطاء من دون أن يفتح عينيه، وفي هذه الأثناء أحس بوجود خشخشة غريبة في غرفة سيِّده، ثمَّ سمع صوتًا جَهْوَرِيًا يقول: «يا إلهي أنت معيني، الربُ معنا ويرعانا...».

أدرك يافسي أن العجوز كان يقرأ من سُفر المزامير؛ فأخذ يرهف سمعه وينصت إلى كلمات الملك داود رغم أنه لم يكن يفهمها حتى باغته النوم.

الفصل الثالث

توالت الأيام تباعًا على يافسي، مرَّت حياته بيسرٍ وسهولةٍ دونما أية مشاكلٍ تعكر صفوها، أراد إرضاء سيِّده لكنه كان يتصرف معه بحذر شديدٍ، لم يحملْ في قلبه أية مشاعر تجاهه رغم أنه أحسَّ أن قربه من سيِّده يصبُّ في مصلحته وأنه سينجح في الاقتراب منه أكثر، دفعه خوفه من الآخرين إلى محاولة إرضائهم والتأهب لتقديم أي خدمةٍ يطلبونها فيٍ سعيٍ منه لحماية نفسه من أي هجوم قد يتلقاه منهم. كان يافسي دائم التوجس من خطرٍ محدقٍ سيحلُ به؛ مما جعله شديد الملاحظة عديمً الثقة بالآخرين.

لاحظ يافسي وجود حياةٍ غريبةٍ في المنزل؛ لكنه لم يستطع فكَّ شفراتها، المنزلُ مزدحمٌ بالناس من أسفله إلى أعلاه؛ يتوافدُ الناسُ عليه منذ بزوغ الشمس إلى حلول الظلام وكأنهم سرطانات متكدسةٌ في سلة، تراهم في هذا المنزل أكثر من رؤيتك لهم في القرية، بدوا وكأنهم يتجرعون مرارة ألم ما، عاشوا بلا كللٍ أو مللٍ، حياتهم مليئةٌ بالصخبِ والعجلة كما لو أنهم يريدون تأدية أعمالهم في أسرَع وقتٍ ممكن استعدادًا لقضاء العطلة التي يترقبون قدومها ويريدون أن تُطلّ عليهم وهم يتمتعون بالحرية والسكون والراحة.

خيَّم الحزن على صدر يافسي مجددًا وأخذ يكرر مقولته: «هل سيمضي هذا الوقت؟».

لكن هذه العطلة لم تأتِ قط، كان الناس يهمزون ويلمزون بعضهم البعض، وفي بعض الأحيان يتشاجرون ويتعاركون، وبالكاد يمر يومٌ دون أن يتكلموا فيه عن بعضهم البعض.

قاد السيِّد خطواته إلى المتجر مع إشراقة شمس الصباح بينما بقي يافسي في الشقة لترتيبها، بعد إتمام المهمة غسل يافسي نفسه وذهب إلى الحانة لجلب الماء المغلي، توجه بعد ذلك إلى المتجر حيث تناول شاي الصباح مع سيِّده، أثناء تناول وجبة الإفطار يسأله العجوز ذات السؤال: «حسنًا، هل من خبرٍ جديدٍ في جعبتك؟».

يردُّ عليه يافسي: «لا شيء».

يقول له العجوز مجددًا: «لا يوجد شيء يذكر؟».

أجابه يافسي في إحدى المرات إجابةً مختلفة قائلًا له: «اليوم سمعتُ صانع الساعات يقول لبائع الفراء بأنك تلقيتَ أغراضًا مسروقة».

ما إن نطق يافسي بهذه الكلمات حتى اشتعل الخوفُ بداخله مما قاله وأخذ ينظر إلى الأرض منكِّسًا رأسه، لكن الرجل العجوز ضحك ضحكةً هادئة، وقال متشدقًا: «الأوغاد!».

ارتجفت شفاهه الداكنة الجافة وتابع حديثه قائلًا: «شكرًا لك على إخباري بهذا، شكرًا لك! أرأيت مدى كره الناس لي!».

منذ ذلك الوقت بدأ يافسي يولي اهتمامًا كبيرًا بما يقوله المستأجرون، وينقل كلامهم مباشرةً إلى سيِّده متحدثًا إليه بصوتٍ هادئٍ وهو ينظر مباشرة في وجهه، بعد بضعة أيام وبينما كان يُنظّف غرفة سيِّده وجد عملةً نقدية تالفة على الأرض، حين سأله الرجلُ العجوز بعد تناول الشاي سؤاله المعتاد «حسنًا، هل من خبرٍ جديدٍ في جعبتك؟»، أجاب يافسي بقوله: «لقد وجدت عملةً نقديةً هنا».

قال السيِّد ضاحكًا: «هل وجدت عملةً نقدية؟ أنا وجدت قطعةً ذهبيةً».

وجد يافسي قطعةً نقديةً معدنية من فئة العشرين كوبيك عند مدخل المتجر أعطاها لسيِّده الذي أمسك بها وأخذ يفركها وهو يضع يده الأخرى على نظارته لبضع ثوانٍ دون أن ينبس بكلمة.

قال الرجلُ العجوز بعد لحظة الصمت: «وفقًا للقانون، فإن ثلث ما تجده يكون لك، لذا فإن ستة كوبيك ستكون من نصيبك». بعدها عاد إلى صمته وتنهَّد واضعًا العملة النقدية في جيب سترته وتابع حديثه: «لكنك صبيٌ غبي»، ضاع المبلغُ الذي كان من المفترض أن يصبح من نصيبه.

يتَّسمُ يافسي كليمكوف بطبعه الهادئ؛ فتراه لا يُلفت انتباه الناس من حوله، وعندما يلفت انتباههم لا يرون منه إلا تلك النظرة الباردة من عينيه اللتين تشبهان عيني البومة ومظهره الذي ينساه كل من يلتقي به.

أثارت ريسا بتروفنا الهادئة اهتمام يافسي منذ الأيام الأولى لوصوله، ترتدي كلَّ مساءٍ ثوبًا قاتمًا وقبعةً سوداءً وتتسلل إلى الخارج، وفي الصباح عندما يكون يافسي منهمكًا في تنظيف الغرف تكون غارقةً في نومها، لم يراها إلا في المساء قبل وقت العشاء، ولا يحدث هذا كلَّ يوم، بدت حياتها غامضةً بالنسبة له، تعيشٍ عالمًا يبني الصمتُ أعشاشه المتراكمة في أنحائه، كانت بيضاء البشرة ساكنةُ العينين، أثارت كلُ هذه الأشياء تخيلاتٍ غامضةٍ عنها في مخيلة يافسي؛ لكنه سرعان ما أقنع نفسه بأنها تعيش حياةً أفضل منه وتعرف أشياءً أكثر من أي شخصٍ آخر، بدأ قلبه يخفق بشعورٍ جميلٍ لم يفهمه تجاه هذه المرأة، فيراها تزداد جمالًا وألقًا يومًا بعد يوم.

في أحدِ الأيام استيقظ عند الفجر وتوجه تلقاء المطبخ ليشرب بعض الماء، وفجأةً سمع شخصًا يدخل من باب الرواق، فهرع إلى غرفته مرتعدًا من الخوف واستلقى على فراشه واضعًا الغطاء على جسده ومحاولًا الالتصاق بالفراش بكل ما أُوتي من قوة، بعد بضع دقائق سمع قرع نعلٍ في المطبخ وصوتَ حفيف ملابس وصوتًا كصوت ريسا.

سمعها يافسي تقول لأحدهم: «كلُّ ما حدث بسببك أنت!».

نهض يافسي من فراشه وجرّ جسده بحذر نحو الباب يمشي على أطراف أصابعه، نظر إلى المطبخ، كانت المرأة الهادئة جالسةً عند النافذة تخلع قبعتها، بدا وجهها لامعًا أكثر من أي وقتٍ مضى، الدموعُ تنهمر من عينيها، تمايلت بجسدها العريض وأخذت تحرك يديها ببطء، قالت وهي تهزُّ رأسها: «أعرفك حقَّ المعرفة!»، ومن ثمَّ نهضت وأسندت جسدها على عتبة النافذة.

سمع يافسي صوتًا يخرجُ من غرفةِ سيِّده، عاد إلى فراشه بسرعةٍ واستلقى واضعًا الغطاء على جسده، قال لنفسه والشفقة تعتريه: «لقد آذاها أحدهم»، لكنه في الوقت نفسه كان سعيدًا بدموعها لأنها جعلت هذه المرأة التي كانت تختفي ليلًا قريبةً منه في تلك الليلة.

أحسَّ يافسي بعدها بخطواتٍ خبيثةٍ تمرُّ بالقرب منه، رفع رأسه وقفز فجأةً من فراشه كما لو أنَّ ذلك الصراخ حريقٌ يلسع جلده، سمع صوت أحدهم يصرخ وهو يقول: «ماذا حلّ بك! اذهب بعيدًا عني!».

سمع يافسي بعدها صوت صفيرٍ ورأى سيِّده خارجًا بثوب النوم على عجلٍ من المطبخ، توقف عند يافسي وقال له بصوتٍ منخفضٍ: «اخلد إلى النوم! اخلد إلى النوم! ما بك؟ اخلد إلى النوم!».

في صباح اليوم التالي سأله العجوز وهم في المتجر: «هل كنت خائفًا الليلة الماضية؟».

ردَّ عليه يافسي: «نعم كنت خائفًا».

قال له بعدها: «كانت الفتاةُ ثملةً؛ تفعل ذلك في بعض الأحيان».

على الرغم من أن السؤال كان على شفتيه، لم يجرؤ يافسي على سؤال سيِّده عن وظيفتها.

بعد بضع دقائق سأله العجوز: «هل تحبها؟».

ـ «نعم أحبها».

ـ «حسنًا، حتى لو كنت تحبها يجب أن تضع في حسبانك أنها امرأةٌ ذكيةٌ للغاية، صحيحٌ أنها قليلة الكلام لكنها سيئة، هي امرأةٌ مذنبة! نعم إنها مذنبة. هل تعرف وظيفتها؟ إنها موسيقية تعزف على البيانو». وصف الرجل العجوز آلة البيانو بدقة ليافسي، وأضاف: «الشخص الذي يعزف على البيانو يُسمى بعازف البيانو، بالمناسبة هل سمعت عن بيت الدعارة؟».

كان يافسي يستمع إلى أحاديث بائعي الفرو والزجاج ومنهم تعلَّم بعضًا من هذه الكلمات السيئة؛ ولكن رغبةً في معرفة المزيد أجاب: «لا أدري، لا علم لي».

بدأ العجوز يشرح له بالتفصيل مستخدمًا كلمات يعرفها يافسي، يتحدثُ العجوز بحرارة، يبصق على الأرض أحيانًا، يقطِّبُ جبينه أحيانًا أخرى تعبيرًا عن اشمئزازه من هذه الأفعال المقيتة، أخذ يافسي يحدقُ في العجوز ولسبب ما لم يؤمن بأنه يكره ما يتحدث عنه.

تابع العجوز حديثه قائلًا: «هذا هو حال الفتاة؛ تعزف البيانو في كل مساءٍ في منزل كهذا، وتفسد النساء اللواتي يرقصن مع الرجال المخمورين ويتَمايلن مع موسيقاها. جميع هؤلاء الرجالِ محتالون ومجرمون». تنهَّد راسبوبوف والتعب يعتريه، ومن ثمَّ مسح العرق عن وجنتيه وتابع حديثه: «لا تثق بها؛ هل تعي ما أقوله؟ إنها امرأة ماكرةٌ ومُنحطّة».

صدّق الصبي أحاديث سيِّده عن البيانو وبيت الدعارة؛ لكنه لم يستطع تصديق كلمةٍ واحدةٍ تتعلق بالمرأة، وفي واقع الأمر فإن كل ما قاله العجوز عنها زاد من إحساس الحذر والريبة لدى يافسي تجاه سيِّده، باتت ريسا بتروفنا أجمل في عينيه بعد كلامه الغريب عنها.

في حياة يافسي الجديدة أشخاصٌ آخرون غير ريسا؛ فمنهم أناتول الصبي المتدرب عند بائع الزجاج، وكوزين ذلك الصبيُ نحيفُ البدنِ أفطحُ الأنفِ أشعثُ الشعرِ رثُّ الهيئة، يبدو مسرورًا على الدوام، تفوح منه رائحة الزيت، تميَّز بصوته الرنان العالي، أحبَّ يافسي سماعه وهو يصيح قائلًا: «لدييينا زجاااجُ نوااافذ».

بينما كان يافسي ذات يومٍ ينزل من الدرج سمع صوتًا مرتفعًا يناديه قائلًا: «أيها الصبي، أيّ حكومةٍ تتبع؟».

ـ «أنا أتبع حكومة هذه المدينة».

ـ «أما أنا فأتبع حكومة مدينة كوستروما. أخبرني، كم عمرك؟».

«ثلاثة عشر».

ـ «وأنا أيضًا، هيا تعال معي».

ـ «إلى أين؟».

ـ «إلى النهر لنستحم».

ـ «لا أستطيع، يجب أن أبقى في المتجر».

ـ «هيَّا إنه يوم الأحد».

ـ «لا يشكَّل هذا الأمرُ فرقًا عندي».

ـ «حسنًا، اغرب عن وجهي!».

اختفى صبيُّ الزجاج من المكان، لم يلقِ يافسي بالًا لإساءته.

أما الصبيُّ الآخر أناتول فيطوف بالمدينة طوال اليوم وهو يحمل صندوقًا زجاجيًا، وعادةً ما يعود إلى المنزل بعد إغلاق المتجر، وما أن يصلُ إلى المنزل حتى يملأ المكان بصوت ضحكاته وغنائه وصفيره، يودُّ الجميع توبيخه بسبب إزعاجه ولكنهم في الوقت ذاته يحبون مشاكسته والضحك على طيشه، تفاجئ يافسي من جرأة هذا الفتى الأفطح مع من يكبره سنًا، يشعر أحيانًا بالغيرةِ وهو يرى

فتاةً ترتدي ملابسَ مطرزةً بالذهب وهي تلاحق هذا الفتى المَرِح، أحسَّ يافسي بانجذابٍ شديدٍ إلى صبي الزجاج هذا، ورسم له في مخيلته انطباعًا جميلًا.

في أحدِ الأيام وبعد الانتهاء من تناول وجبة العشاء سأل يافسي العجوز: «هل يمكنني النزول إلى فناء المنزل؟».

وافق العجوز على مضض قائلًا: «اذهب، ولكن لا تجلس طويلًا هناك! أتسمعني، لا تجلس طويلًا».

طلب يافسي ذات الأمر في أحدِ الأيام وردَّ عليه العجوز بقوله: «جلوسك في فناء المنزل لن يأتِ لك بخير».

ركض نحو الدرج بسرعةٍ وجلس متخفيًا لمراقبة أناتول، كان الفناء صغيرًا ومحاطًا بالمنازل المرتفعة من جميع الجهات، يجلس المستأجرون والعاملات والعاملون والخدم مستلقين على أكوام القمامة بجانب الجدران وهم يشاهدون عرض أناتول.

أناتول يصيح قائلًا: «بائعُ الفراء زفوريكين ذاهبٌ إلى الكنيسة!».

بات يافسي مندهشًا من هذا المنظر، فقد رأى بائع الفراء السمين وشفته السفلى تكاد تسقط على الأرض وعيناه متورمتان من فرط شربه، شدَّ أناتول بطنه وأمال رأسه إلى جانبٍ واحد، أخذ يمشي بصعوبة متجهًا نحو البوابة لعدة خطوات، ضحك الجالسون من فعله وصاحوا قائلين: «بائعُ الفراء زفوريكين عائدٌ من الحانة!».

يبدأ أناتول بعدها بالتمايل في الفناء وهو يجرُّ قدميه متثاقلًا في مشيته، يرفع ذراعيه ويعلقهما في الهواء، عيناه مفتوحتان على مصراعيهما، وفمه مفتوحٌ وكأنه يبتلع شيئًا ما، يتوقف بعدها ويضع يده على صدره ويقول بصوتٍ يرثى له: «يا إلهي! أنا راضٍ تمام الرضا عن كل شيءٍ ومن كل أحد! يا رب! إن عبدك ياكوف إيفانيتش ينعم بالخير والسعادة. لكن كوزين بائع الزجاج صبيٌ وغدٌ، وقحٌ في حضرة الإله، مُغفلٌ في تعامله مع الناس، هذه هي الحقيقة يا إلهي».

قهقه الحضور جميعهم إلا يافسي ظلَّ ساكنًا، فقد انتابه شعورٌ بالدهشة والحسد في آنٍ واحد، تمنَّى أن يرى هذا الفتى خائفًا ومرتبكًا وهو يقدِّم عرضه، أصبح يافسي مغتاظًا ومنزعجًا لأن أناتول لم يُقلِّد أولئك الذين يعانون الألم بل يُقلِّد الناس المضحكين، واصل يافسي مشاهدة العرض وفمه مفتوحٌ على مصراعيه والملل مرتسمٌ على وجهه وهو يحدق بعينيه اللتين تشبهان عيني البومة.

قبل وصول يافسي إلى القرية كان الفلاح الأحمر الشاحب كوزين في حالة سكرٍ شبه دائمةٍ، أكمامُ قميصه القذر مرفوعةٌ دومًا، يضع يده اليمنى على صدره ويده اليسرى على لحيته. لدى كوزين لحيةٌ طويلة تميل للحمرة، عبوسُ الوجه قبيحُ المنظر بطيءُ الحركة وكأنه عربةٌ محملةٌ ببضائع

ثقيلة، تراه ينظر إلى جانبيه ويصرخ بصوتٍ خشن: «لماذا تواصل فعلك هذا؟ هل أنت زنديق؟ كيف لي أن أستمع إلى هذا الهراء لفترةٍ طويلةٍ؟ عليك اللعنة أيها البغيض!».

يصرخ أناتول مناديًا: «سكينفلينت راسبوبوف».

يبدأ أناتول في هذه اللحظة بتقليد سيِّد يافسي بطباعه الحادة، أخذ يسير دون أن يحدث أية ضجة، مسح أنفه وكأنه يشم رائحةً ما، وبعدها أومأ برأسه وأخذ يسحب خصلة الشعر التي تتربع ذقنه، في هذه اللحظة بدا كل شيءٍ ليافسي مقرفًا وتعيسًا ومضحكًا في آنٍ واحد وبدأ يشتاط غضبًا، شعر يافسي أن أناتول لم يكن يُقلد سيِّده بطريقةٍ صحيحة ولم يكن يعكس تصرفاته.

أخذ أناتول يقلدُّ أحد الحضور بعد ذلك، يواصل تقليده بدون كللٍ أو مللٍ مستمدًا حماسه من تصفيق الجمهور، تضجُّ الساحة بصفيره إلى ساعة متأخرة من الليل وكأنه جرس صغير، يضحك الحضور ويبتهجون بحركاته. في بعض الأحيان يُقلِّدُ أناتول أحد الجالسين فيحاول إيقافه ويبدأ في ملاحقته في أرجاء فناء المنزل.

مع كل هذه المشاهد بدأ يافسي في التنهد حتى رآه أناتول وسحبه بيده إلى وسط الفناء وبدأ يعرفه للحضور قائلًا بسخرية: «أعرفكم على هذا السكِّر والصابون، إنه ابن عم الفطر سكينفلينت راسبوبوف». أخذ أناتول يدير الصبي في جميع الاتجاهات وهو يرمي بكلماتٍ هزليةٍ غريبة عن سيِّده، وعن ريسا بتروفنا وعن يافسي نفسه.

قال له يافسي بكلِّ هدوء: «دعني اذهب!»، في محاولة لإفلات يده من قبضة أناتول القوية، محاولًا في الوقت نفسه فهم الكلمات التي يقولها أناتول، في أثناء محاولته الفرار من قبضته قال له الحضور وخاصة النساء: «دعه يذهب».

انزعج يافسي من محاولتهم التوسط له عند أناتول ليطلق سراحه، إذ شعر أناتول بالغضب من كلامهم وبدأ في الضغط على ضحيته وتحداه بأن يدخل في عراكٍ معه لكي يفلت من قبضته، بدأ بعض الرجال تشجيعهم على الشجار قائلين: «هيا تعاركا لنرى من سيفوز منكما».

بينما اعترضت النساء وقلنَّ: «لا تتعاركا! لا نريد أن نرى قتالًا هنا».

أثارت هذه الكلمات انزعاج يافسي مرةً أخرى.

شرع أناتول بعدها بدفع يافسي بعيدًا وقال له: «أوه، أنت مجرد صبي صغير!».

في صباح اليوم التالي قابل يافسي أناتول وهو يحمل صندوق الزجاج خارج المنزل وقال له: «لماذا كنت تسخر مني؟».

نظر بائع الزجاج إليه وقال: «ألم تعجبك سخريتي؟».

لم يستطع يافسي الرد عليه.

تابع أناتول حديثه وقال: «هل تريد القتال؟ تعال إلى كوخنا، سأنتظرك حتى المساء».

ردَّ عليه يافسي بكلِّ هدوءٍ وثقة: «لا أريد القتال».

قال له بائع الزجاج: «سنرى إن كنت لا ترغب في القتال، سأهزمك، بالتأكيد سأفعل ذلك».

أطلق يافسي تنهيدة كانت بمثابة ردٍ على تهديد أناتول، لم يستطع فهم هذا الصبي ولكنه يتوق لفهمه، سأله مرةً ثانيةً: «لماذا تسخر مني؟».

شعر أناتول بالحرج من سؤاله، فغمز بعينيه النابضتين وابتسم وصاح فجأة والغضب يعتريه: «عليك اللعنة! لماذا تزعجني بهذا الشكل؟ سأريك ما سأفعله...».

ركض يافسي بسرعة إلى المتجر، انتابه شعورٌ بالإهانة ليوم كامل، لم ينهِ هذا الموقف إعجابه بأناتول؛ لكنه بات يغادر الفناء حين يرى أناتول قادمًا، وفي النهاية حذفه من قاموس حياته.

الفصلُ الرابع

بعد فترة وجيزةٍ من محاولاته الفاشلة للتقرُبِّ من ريسا استيقظ يافسي في إحدى الليالي على صوتٍ في غرفة سيِّده، استمع إلى هذا الصوت وظنَّ أنه صوتُ ريسا، نهض من فراشه وتوجه تلقاء الباب المغلق، وضع عينيه على ثقب القفل ليتأكد أنها هي، وقف ضوء الشمعة أمام عينيه الناعستين فَبَاتَ غير قادرٍ على رؤية ما بداخل الغرفة، وبعد تركيزٍ شديدٍ رأى جسد امرأةٍ مُسْتَلْقٍ على الأريكة السوداء، وجهها نحو السقف، شعرها متدليٌ على صدرها، تمسح ضفائره بأصابعها الطويلة، يتمايل الضوء على جسدها الجميل، تبدو المرأة أنيقةً مشرقةً جميلةً وكأنها سحابة صيف، قالت شيئًا في تلك الأثناء لكن يافسي لم يستطع التقاط كلماتها، سمع صوت غنائها المتعب الحزين، كان سيِّده آنذاك يجلس مرتديًا ثوب نومه على كرسي بجانبِ الأريكة، يصبُّ النبيذَ في كوبٍ ويداه ترتجفان ومعها ترتجف خصلةُ الشعر الرماديةُ على ذقنه، لم يكن مرتديًا نظارته في ذلك الوقت فبرزت ملامحه التي تفوح منها رائحة الكراهية.

سمع سيِّده يقول: «يا لك من امرأة!».

ابتعد يافسي عن الباب واستلقى على سريره، أخذ يقول لنفسه: «يبدو أنهما قد تزوجا».

أشفق على ريسا بتروفنا لأنها أصبحت زوجة رجلٍ يتكلمُ عنها بسوء، رثى لحالها لأنها بالتأكيد تشعر بالبرد لنومها على الأريكة الجلدية، باغتت يافسي فكرةٌ سيئةٌ عنها، أكدت هذه الفكرة صحة كلام الرجل العجوز عنها، لكنه ما لبث وأن أزالها من رأسه.

أحضرت ريسا بتروفنا العشاء كما جرت العادة في مساء اليوم التالي، قالت بصوتها المعتاد: «سأغادر الآن»، ردَّ عليها السيِّد أيضًا بصوته الجافِ المعتاد.

مرَّتْ عدة أيام، لم تتغير العلاقة بين السيِّد وريسا، بدأ يافسي يعتقد أنه رأى ريسا في المنام، لم يكن قادرًا على تصديق كلمات سيِّده السيئة عنها.

في أحدِ الأيام جاء العم بيوتر على حينِ غرةٍ إلى يافسي بوجهٍ كئيبٍ تملؤه التجاعيد يبدو أقصر من ذي قبل، بدأ في شرب الشاي وأخذ يبتسم بعينيه المبللتين، ثمَّ قال ليافسي: «بدأت أفقد بصري أيها اليتيم، لم يعد بإمكاني العمل، لذلك سأضطر إلى التسول، لم أعد قادرًا على التحكم بياكوف فهو يريد الذهاب إلى المدينة، وإذا لم أدعه يفعل ذلك فسيلوذ بالفرار، يا له من صبي!». كان لكلمات العمِّ الحدَّاد وقعٌ شديدٌ على يافسي لدرجة لم يستطع سماعها وتصديقها، يبدو أن عمه أصبح بليدًا ضعيفًا مما جعل يافسي يخجل منه في حضرة سيِّده، عندما همَّ بالخروج ناوله يافسي ثلاثة روبلات في يده فغادر مسرورًا.

شعر يافسي بالخوفِ من الانسجام مع سيِّده على الرغم من سعيه لإرضائه بكلِّ طريقةٍ ممكنةٍ، أثارت المكتبة بعد مدةٍ من الزمن الشكوك في نفس يافسي، باتت أشبه بقبرٍ يضمُّ كتبًا ميتة، كانت

جميع هذه الكتب مبعثرةً ومهترئةً أكل عليها الدهر وشرب، حتى بدأت رائحة العفن تخرج منها، لم يُبعْ منها إلا القليل، وهذا الأمر لم يفاجئ يافسي لكن تعامل السيِّد مع المشترين والكتب أثار فضوله؛ يأخذ الرجل العجوز كتابًا ويضعه بين يديه مقلبًا صفحاته العَفِنة بعناية، يضرب غلاف الكتاب بأصابعه السوداء ويبتسم بهدوءٍ ثمَّ يهزُّ رأسه، كان السيِّد رفيقًا بالكتب كما لو أنها تنبض بالحياة، يلعب معها كما يلعب مع القطط والكلاب، يدخل العجوز في حديثٍ مع نفسه أثناء قراءته للكتب، يتابعه يافسي وهو يحدّث نفسه كما كان يتابع عمه الحدّاد بيوتر وهو يحدّث نفسه أثناء عمله مع الفرن، يبدأ العجوز بتحريك شفتيه وكأنه يسخر من شيءٍ ما، يستمر في الإيماء برأسه ويضحك متمتمًا بقوله: «حسنًا! حسنًا!... نعم... حسنًا... انظر... ما هذا؟ هاهاها... ما هذه الوقاحة... حسنًا فهمت... حسنًا فهمت... لن يتحقق ذلك أبدًا... لاااااا!».

باتَ يافسي مندهشًا وخائفًا من هذه الكلمات الغريبة التي تخرج من الرجل العجوز كما لو أنه يتحدث مع شخصٍ ما، كشفت له عن ازدواجيةٍ سريةٍ في حياة سيِّده.

قال له العجوز مرةً: «أراك لا تقرأ الكتب، وهذا الأمر جيد، فالكتبُ رديئةٌ اليوم، فهي تُولدُ من رحم عاهرة، نراها تجوب في شتّى المواضيع، تثير الخيال والتهيج والاضطراب، اعتدنا في السابق علَى وجود كتبٍ تاريخيةٍ جيدةٍ وقصصٍ لأشخاصٍ وديعين من الماضي، لكن الحال تغيَّر الآن؛ فكلّ كتابٍ منها يسعى لجعلك تسير عكس تيار الحياة، والبعض الآخر يراك وكأنك عارٍ من الملابس يسعى لتغطية جسدك وعقلك وحمايتك من الشيطان والخيال الذي يدمرُّ الإيمان. لكنَّ مثل هذه الكتب لا تستطيع إلحاق الأذى بكبار السن؛ فهم قادرون على حماية أنفسهم منها بفضل تجاربهم».

ظلّت هذه الكلمات عالقةً في ذهن يافسي على الرغم من أنه لم يكن يعي شيئًا مما يقوله العجوز، لم يُجِبْ يافسي على كلمات سيِّده إلا أنها زادت من إحساسه بالغموض الذي يكتنف حياته؛ غموضٌ يكتنف حياة كل إنسانٍ على وجه الأرض ويناصبها العِداء.

يشعرُ العجوز بالحزن في كلِّ مرةٍ يبيع فيها كتابًا حتى أنه يحدِّثُ زبائنه بصوتٍ عالٍ وسريعٍ وبالكاد يشمُّ رائحتهم، في بعض الأحيان يُخفضُ صوته واضعًا إصبعه على نظارته ويهمس في وجه زبائنه، حين يرى طالبًا يشتري كتابًا يبتسم في وجهه ويهزُّ رأسه. في إحدى المرات دخل عليه شابٌ وسيمٌ قصيرُ القامةِ شاحبُ الوجهِ، وما إن خرج حتى ضربه على مؤخرته، كان أغلب زبائنه من الطلبة أو من أشخاصٍ يتشابهون في الصفات، في بعض الأحيان يزوره كبار السن الذين يقضون وقتًا طويلًا في التنقيب بين الكتب ويجادلون حول الأسعار بشدة.

اعتاد يافسي رؤية رجلٍ يزور المتجرَ يوميًا يُدعى دوريمدونت لوكين، يرتدي قبعةً كأنها مدخنةٌ استوت على سطح منزلٍ، في يده اليمنى خاتمٌ ذهبيٌ كبيرٌ مرصعٌ بحجر، رجلٌ أفطسُ الأنفِ حليقُ الوجهِ قويُ البنية، حين يلعب دوريمدونت لوكين الشطرنج مع الرجل العجوز يصرخُ بصوت عالٍ ويسحب أذنه بيده اليسرى بقوة، في كثيرٍ من الأحيان يجلبُ معه الكتب والطرود الورقية التي تُسعد العجوز فيهزُّ رأسه ويبتسم لرؤيتها ثم يخفيها في الطاولة أو في رفٍ خلفه، لم يرَ يافسي سيِّده يدفع مقابل هذه الكتب التي يحصل عليها لكنه يراه وهو يبيعها ويقبض المال مقابلها.

لاحظ يافسي تكرُر زيارة أحد الطلاب إلى المتجر أكثر من الآخرين، كان شابًا طويل القامة أزرق العينين أبيض الجبهة وله شاربٌ بلون الجزر يضع قبعةً على رقبته، له صوتٌ غليظ يرفعه حين يتحدث، يشتري المجلات القديمة خلال زيارته.

في إحدى المرات ناول العجوز هذ الطالب كتابًا أحضره دوريمدونت، وبينما كان الطالبُ يقلّب صفحاته همس العجوز في أذنه قائلًا: «إنه مثير للإعجاب! أليس كذلك؟»، صاح الطالب وهو يبتسم قائلًا: «أيها العجوز الآثم، ألا تخاف من هذا الأمر؟».

تنهَّد السيِّد وأجاب قائلًا: «إذا كنت تؤمن بهذه الحقيقة، فيجب عليك أن تدعمها بكل الطرق الممكنة».

أخذا يَتَنَاجَيَانِ لفترةٍ طويلةٍ دون أن يستطيع يافسي التقاط شيءٍ من حديثهما، وأخيرًا رفع الطالب صوته قائلًا: «حسنًا اتفقنا! تذكر عنواني».

دوَّن الرجل العجوز العنوان على ورقة، وعندما جاء دوريمدونت وسأله قائلًا: «ما الجديد يا ماتفي ماتفيفيتش؟»، ردًا عليه ناوله العنوان الذي دونه وقال بابتسامة تعلو شفتيه: «هاك الجديد».

رأى دوريمدونت على الورقة: «نيكوديم أركنجيلسكي»، فقال له: «عملٌ جيدٌ قادم»، شرعا بعدها في تجهيز لعبة الشطرنج وبينما هُمْ في ذلك قال العجوز: «اتضح لنا أن نيكوديم سمكةٌ تحتها الكثير من البيض، وقد وجدنا شيئًا في بيته يكشفُ عن كلِّ شيءٍ تقريبًا».

قال العجوز «أعِد الكتب إليَّ!».

ردَّ عليه دوريمدونت وكأنه يزجره: «بالتأكيد!».

لم يرَ يافسي منذ تلك اللحظة الطالب ذي العيون الزرقاء، اختفى بعد أن أعطى السيِّد عنوانه لدوريمدونت، كلُّ هذا بدا غريبًا ليافسي، فبدأت الشكوك تشغلُ تفكيره وبات الغموض يَعمُّ المكان.

في إحدى المرات لم يأتِ الرجل العجوز إلى المتجر، وبينما كان يافسي يمرُّ على أرفف المكتبة صادف تلك الكتب التي أحضرها دوريمدونت، كانت كُتبًا صغيرةً متسخةً رثّة، أعادها بسرعةٍ إلى مكانها وهو يشمُّ رائحة شيءٍ خطيرٍ فيها، لم تكن الكتب تثير اهتمام يافسي، فقد حاول القراءة لكن عقله لم يستطع استيعاب ما تحويه هذه الكتب التي تضم أدق التفاصيل، تبعثرت أفكاره وتبخرت كماءٍ يسير على حجرٍ في يوم صيفٍ حار.

في كلِّ مرةٍ يباشر يافسي عمله تتهيج مشاعره ويبدأ في الانفعال، يصبح حينها غير قادرٍ على التفكير؛ فكلُّ حركةٍ قد تشتت حبل أفكاره، يؤدي الصبي عمله بتأنٍ ودقةٍ دون بذلِ أيّ مجهودٍ إضافي ودون وعيٍ بمعنى ما يفعله وكأنه إنسان آلي، تتزاحم البهجةُ والسرور في قلب يافسي حين يصبحُ حرًا بعيدًا عن عمله وكأنه يُحلقُ فوق السحاب، تَغمُرُ السعادة حياته وتزيل عنه جميع آلامه، تُصبِحُ الحقيقة حينئذٍ أشبه بعالمٍ خيالي تعمه السكينة.

تَمرُّ الأيام بسرعة البرق حين يكون يافسي في هذا المزاج وكأنه يتوقف في محطةٍ لفترةٍ قصيرةٍ ليعاود استكمال رحلته، حياته خارج العمل مليئةٌ بالرتابة، تكاد تخلو من أحداثٍ مثيرةٍ تشغل تفكيره، فغبار العمل يسكنُ في كل ذرةٍ من دماغه، نادراً ما يزور المدينة لأنه لا يحبها، فالحركة المتواصلة ترهق عينيه والضوضاء تعْبَثُ بالهدوء الساكن فيه، بدت المدينة ليافسي بدايةً لا نهاية لها وكأنها وحشٌ في قصةٍ خرافية؛ حيثُ الناس الجشعون ومئات البطون التي لا تشبع. عندما ينظر يافسي إلى حياة الشارع المليئة بالفوضى لا يرى فيها غير الرتابة المؤلمة المرهقة.

أثناء ترتيب يافسي لغرفةِ سيِّده في الصباح يُطلُّ برأسه من النافذة لعدةِ دقائق وينظر إلى أسفل الشارع الضيق الطويل؛ ليرى ذات الأشخاص في أماكنهم المعتادة، لدرجة أنه أصبح يعرف ما سيفعلونه بالدقيقة واليوم؛ مركباتُ الأجرةِ تسير ببطئها المعهود، يجلسُ السائقون على مقاعد مركباتهم بطريقةٍ متشابهة، أما الأطفال الذين يعملون في الدكاكين فيعيشون حياةً يعتريها الحزن، تراهم وقحين مع أسيادهم في بعض الأحيان مما يجعلهم مصدر خطرٍ عليهم، الرجالُ قيَّدتهم أعمالهم وكأنهم كلابٌ مقيدةٌ بالسلاسل، في بعض الأحيان يرى يافسي وميضاً ويسمع همسًا يوحي إليه بحدوث شيءٍ ما؛ لكن لم يستطعْ فكّ شفرات هذه التلميحات في وقتٍ بدا كل شيءٍ بالنسبة له عاديًا مألوفًا محزنًا.

حتى كنائسُ المدينة لم تكن تُشعره بالسعادة؛ فلا يرتاح لرؤيتها أو يشعر ببريقها على الرغم من قربها منه، يشُمُّ منها رائحةً قويةً من الدخان والدهانات والعرق؛ لم يتحمل يافسي مثل هذه الروائح القوية التي تجعله يشعر بالدوار وتملئه بالحيرة والقلق.

يُغلق السيِّد متجره في بعض الأحيان في أيام العطلات ويأخذ يافسي في جولةٍ حول المدينة؛ فيمشيان لمسافاتٍ طويلة رويدًا رويدًا، وبينما يمشيان يبدأ العجوز بإخبار يافسي عن منازل الأثرياء والنبلاء ويقصُّ عليه حياتهم، كثيرًا ما يتحدث عن نساءٍ يَهْرُبنَ من أزواجهن، عن أناس يتخطَّفُهم الموتُ، عن جنازاتٍ تَحملها الأكتاف، متحدثًا عنهم بنبرةٍ حادةٍ وجدية، ينتقدُ تارةً ويستنكرُ تارةً أخرى، يشتعل النشاط لدى الرجل العجوز حين يبدأ في سردِ قصة رجلٍ ميت؛ فهو يرى أن قصص الموت تثير اهتمام أهل الأرض أكثر من غيرها من الأمور.

يدعو الرجلُ العجوز يافسي لشرب الشاي في الحانة مع نهاية كل مشوار ويستمعان إلى الموسيقى هناك، الرجلُ العجوزُ معروفٌ لدى الجميع ويعاملونه باحترام. يُلقي التعب ظلاله على جسد يافسي؛ فرأسه لا يتحمل تلك الروائح الشديدة فيداهمه النعاس وسط صخب الموسيقى في الحانة.

في إحدى المرات أخذه العجوز إلى منزلٍ به العديد من أصناف الذهب والفضة والأسلحة الرائعة والملابس المخيطة من الديباج والحرير، وبينما هو يتجول في المنزل باغتته فجأةً حكايات أمه المنسية، بدأ قلبه يخفُقُ بالأمل، أخذ يمرُّ عبر غرف المنزل لفترة طويلة وهو يُطبق أحد جَفْنَيه على الآخر والحزن يعتريه.

عندما عادا إلى المنزل سأل سيِّده قائلًا: «لمن هذا المنزل وما فيه؟».

ردَّ عليه العجوز بجوابٍ أثار استغرابه قائلًا: «إنها ملكية عامة تتبع القيصر».

عندها بدأ الصبي بطرح المزيد من الأسئلة:

ـ «من كان يرتدي هذه المعاطف والسيوف؟».

ـ «هي للقياصرة والنبلاء والشخصيات الإمبريالية المختلفة».

ـ «هل يوجد مثل هؤلاء الناس اليوم؟».

ـ «ماذا تقول؟ بالطبع هم موجودون بيننا؛ فلا يمكن أن نعيش بدونهم، لكنهم الآن يرتدون ملابسَ مختلفة».

ـ «لماذا هم مختلفون اليوم؟».

ـ «بالمختصر، كانت روسيا في السابق ثريةً أكثر من وقتنا الحاضر لكن الأجانب مثل اليهود والبولنديين والألمان سرقوها».

تحدث راسبوبوف لفترةٍ طويلةٍ عن كره الناس لروسيا، وكيف سرقها الجميع وتمنى لها كلَّ أنواع الأذى. يصعبُ على يافسي تصديقه أو فهمه حين يتحدث كثيرًا، ومع ذلك سأله قائلًا: «هل أنا جزءٌ من هذا النظام الإمبريالي أيضًا؟».

أجابه العجوز: «نعم نوعًا ما؛ ففي بلدنا الشعبُ كله جزءٌ من الإمبريالية؛ فكلهم رعايا القيصر، الأرض كلها ملكٌ للإله، أما روسيا فكلُّ شبرٍ منها ملكٌ للقيصر».

مرَّ يافسي بمشهدٍ جميلٍ لأشخاصٍ بارعي الجمال يرتدون زيًا ساحرًا ويرقصون في حلقةٍ دائرية متعددة الألوان، كأنهم من حياةٍ أخرى رائعةٍ تختلف عن حياته، ظلّت صورتهم عالقةً في ذهنه، حين يستلقي على فراشه وقد أثْقَلَ الكَرَى أجفانَه يأخذُ مخيلته إلى تلك الحياة المُترفة؛ فيرى نفسه برداءٍ سماوي مطرز بالذهب ينتعلُ حذاءً أحمرَ من الجلد المغربي، لم تغب ريسا عن هذه الأحلام الوردية فقد كانت هناكَ يعلوها الديباج وتزينها الأحجار الكريمة.

قال محدثًا نفسه: «هذا الوقتُ سيمضي».

لم يُثمر هذا التفكير عن بارقةِ أملٍ بمستقبلٍ مختلف؛ بل كان بمثابةِ مُسكِّنٍ يخفف لوعة أساه على الماضي، وبينما هو غارقٌ في تفكيره إذا به يسمع سيِّده بصوته الخشن يقول: «لولا أن الربَّ بنى ذلك البيت لذهب عملهم أدراج الرياح...».

الفصلُ الخامس

في أحدِ الأيام وبعد إغلاق المتجر توجَّه يافسي وسيِّده إلى الفناء فإذا بهما يسمعان صرخةً مدوية خرجت من أناتول الذي ظلّ يقول: «لن أفعل ذلك مرة أخرى يا عماه، لن أفعلها البتة».

بعدما رأى يافسي هذا الموقف تنهَّد تنهيدةَ المنتصر، بدا سعيدًا بسماع صيحات الخوف والألم تخرج من صدر هذا الصبي الذي أحبَّه الجميع.

قال يافسي للرجلِ العجوز: «هل يمكنني البقاء في الفناء؟».

ردَّ عليه سيِّده: «يجب أن نذهب لنتناول العشاء؛ لكنني سأبقى هنا أيضًا لأرى كيف سيعاقبون هذا الوغد الفاشل».

تجمَّع الناس عند باب حظيرة الطوب خلف السلالم، أخذ صوت الضربات المبرحة يتعالى خارجًا من الحظيرة يخالطها نحيب أناتول.

«لم أفعل ذلك يا عمي، يا إلهي! لن أفعلها مرةً أخرى، لن أفعلها البتة! توقف من أجل المسيح!».

قال صانع الساعات ياكوبوف وهو يشعل سيجارته: «إذن هو من فعلها».

أيدتْ مُطرِّزة الملابس الحولاء رأي صانع الساعات الطويل ذي الوجه الأصفر وقالت:

«يجدر بنا أن نعقد السلام بعد كل هذا، ألا يمكننا أن نعيش لحظة هدوء في هذا الفناء!».

التفت راسبوبوف إلى يافسي وقال: «يقولون أن هذا الفتى مذهلٌ في تقليده للآخرين».

ردَّ عليه بائع الفراء: «بالطبع! إنه مثل الشيطان الصغير! يسخر ويقلد الجميع».

سمع الجالسون صوت كشطٍ يأتي من الحظيرة أشبه بصوت كيسٍ مليءٍ بشيءٍ ناعم يُسحب على الأرض، خرجت في الوقت ذاته صرخات كوزين وأناتول التي باتت أضعف من ذيِّ قبل.

يصرخ أناتول قائلًا: «اغفر لي! يا إلهي ساعدني! لن أفعل ذلك مرة أخرى!».

باتت كلماته غير واضحةٍ وتحوَّلت إلى أنينٍ وصوتٍ خانق، ارتعدت فرائص يافسي عند هذه اللحظة وتذكَّر آلام الضرب التي اعتاد عليها فيما مضى، أثار حديث الحاضرين شعور الارتباك بداخله، شعر بالخوف من الوقوف بين أناسٍ كانوا معجبين بهذا الفتى الصغير المفعم بالحيوية قبل يوم من هذه الحادثة، أما الآن فينظرون إليه بسرورٍ وهو يتعرض للضرب، كان هذا الموقف كفيلًا بجَعل يافسي يفهم هؤلاء الأشخاص المرضى الذين أنهكهم العمل؛ لم يخجلْ أحدٌ منهم من رؤية إنسانٍ

يُعذب أمام أعينهم، بل كان لديهم فضولَ لمشاهدة الموقف، شعر يافسي بقليلٍ من الأسف لحال أناتول، لكنه في الوقت ذاته كان سعيدًا بسماع أنينه، أحسَّ بضرورة تغيير بعض طباعه كأن يصبح هادئًا ويخالط الناس أكثر فأكثر.

ظهر نيكولاي بائع الفراء فجأةً، رجلٌ أسمرُ البشرةِ قصيرُ القامةِ أجعدُ الشعرِ طويلُ الذراعين، وكعادته لم يكن يحترمُ أو يُقدِّرُ أحدًا إذ أخذ يمشي بين الناس ويدفعهم جانبًا متجهًا نحو الحظيرة، وما أن وصل هناك حتى صرخَ بصوته الخشن قائلًا: «توقفوا! ابتعدوا!».

تحرَّك الجميع من أمام الباب، خرج كوزين من الحظيرة وجلس على الأرض ممسكًا رأسه بكلتا يديه، فتح عينيه وصرخ مزمجرًا: «الشرطة!».

قال السيِّد ليافسي وهو ينسحبُ من مكانه: «لنخرج من هنا ونجنِّب أنفسنا هذا الشر».

تراجع الصبي إلى زاوية بجوار الدرج، وقف هناك وهو يراقب الأحداث من بعيد.

خرج نيكولاي من الحظيرة حاملًا جسد بائع الزجاج المهشَّم على ذراعيه، ومن ثم وضعه على الأرض وانتصب قائمًا وصرخ: «أحضروا الماء! أيتها النساء! أسرعن أيتها الجِيفُ النتنة!».

ركضتْ امرأةٌ تُدعى زينا مع الطباخِ لجلب الماء.

أرخى كوزين رأسه وقال بصوتٍ متحشرج: «إنها جريمة! أين الشرطة!».

التفتَ نيكولاي نحوه وضربه بركلةٍ على صدره جعلته مستلقيًا على الأرض، صرخ صرخةً طغى فيها بياض عينيه على سوادهما وقال: «أنتم كلابٌ قذرة! أيتها الكلاب القذرة! طفل يُقتل أمام أعينكم وأنتم تتفرجون على ذلك! سأحطم وجوهكم القبيحة!».

خرجتْ أصواتٌ من جميع الجهات تردُّ عليه لكن لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منه.

قال السيِّد ليافسي وهو يمسكه من يده: «هيا بنا نذهب».

أثناء سيرهما لمحا كوزين يركض منحنيًا تجاه بوابة الفناء.

عندها قال العجوز ليافسي: «ليتصل بالشرطة».

حين جلس يافسي بعد هذا الموقف مع نفسه شعر أن غيرته من أناتول قد تلاشت، أرهق عقله الصغير في محاولةٍ لفهم كلِّ ما رآه في ذلك اليوم، بدا ليافسي أن الناس قد أحبوا أناتول لأنه يُمْتِعُهم؛ لكن الحقيقة عكس ذلك تمامًا فقد كانوا مستمتعين برؤيته يتعارك مع غيره مستمتعين بتلك الوحشية، قال لنفسه أنَّ نيكولاي حاول فضَّ العراك لصالح أناتول لأنه كان يريد ضرب كوزين الذي اعتاد على ضربه كلَّ يومٍ تقريبًا، يتسِّمُ نيكولاي بكونه جريئًا وقويًا لدرجة أن بمقدوره ضرب أي أحدٍ في

المنزل؛ لكنه كان يتلقى الضرب من الشرطة، انتهى يافسي من تفكيره هذا أنه سواءً أكنت هادئ الطباع أم جسورًا عنيفًا فستتعرض للضرب والإهانة في كلِّ الحالات.

مرَّت الأيام، وبدأ المستأجرون يتناقلون حديثًا في فناء المنزل أن الصبي بائع الزجاج الذي نُقل إلى المستشفى أصبح مجنونًا، تذكَّر يافسي حالة الصبي حين كان يُقدِّم عروضه، تذكَّر حماسه في حركاته وإشاراته وتعبيرات وجهه، قال يافسي لنفسه أن أناتول ربما كان مجنونًا منذ زمن، بعدها خرج بائع الزجاج من ذاكرة يافسي إلى الأبد.

الفصلُ السادِس

حين تمطرُ السماء في ليالي الخريف تتهاوى إلى مسامع يافسي أصواتٌ متقطعةٌ قادمةٌ من السقف أعلى النافذة، أزعجته هذه الأصوات وحرمته من لذةِ النوم، في إحدى تلك الليالي سمع سيِّده يصرخ غاضبًا: «أنتِ امرأةٌ خسيسة!».

أجابته ريسا بتروفنا كعادتها بصوتٍ منخفض: «لن أسمح لك بذلك ماتفي ماتفيفيتش».

«أنتٍ مخلوقةٌ وضيعة! ألا يكفيكِ المال الذي أعطيه لك!».

بابُ غرفة السيِّد مفتوحٌ على مصراعيه، صرخاتهم تصل إلى غرفة يافسي، يعزفُ المطرُ الجميلُ مقطوعةً حزينةً في الخارج، أما الريح فقد كانت أشبه بطائرٍ ضخمٍ بلا مأوى أعيَاه الطقس السيء وأخذ يضرب بجناحيه نوافذ المنزل، جلس الصبي على سريرِه واضعًا يديه حول ركبتيه وأخذ يستمع والخوف يعتريه.

ـ «أعيدي إليَّ مبلغ الخمسة وعشرين روبل التي أخذتها مني أيتها اللصة!».

ـ «أنا لا أنكر هذا المبلغ، دوريمدونت لوكين هو من أعطاني هذا المال وليس أنت».

ـ «آهٍ منك أيتها الوقحة!».

ـ «اسمح لي! أنت من طلبت مني التجسس على الرجل...».

ـ «أخرسي! ما الذي تقولينه؟».

في هذه اللحظة أغلق الرجل العجوز الباب لكن يافسي مازال قادرًا على سماع حديثهما من خلفِ الجدران. تابع الرجل العجوز حديثه معها قائلًا وهو يقرع الطاولة بإصبعه: «تذكري أيتها المرأة الشريرة أنكِ بين يدي، وإذا علمتُ أنكِ على علاقةٍ مع دوريمدونت فسوف...».

صوتُ المرأة رقيقٌ لينٌ له وقعٌ على قلبِ يافسي لدرجة أنها استطاعت محو كلمات الرجل العجوز عنها من ذاكرة يافسي.

ازدادت قناعةُ يافسي أن هذه المرأة على حق، فرباطة جأشها وعلاقتها مع السيِّد أثبتت له أنها كانت كذلك، بلغَ يافسي في تلك اللحظة الخامسة عشر من عمره، بدأ يميل شيئًا فشيئًا لهذه المرأة اللطيفة الجميلة، كان لا يقابلها إلا قليلًا ولدقائق معدودة، لذا تراه يُطيلُ النظر إلى وجهها ومشاعر الفرح مزدحمة في صدره، طريقة حديثها اللبق معه تُشعل في قلبه مشاعر الامتنان وتجعله منجذبًا نحوها أكثر فأكثر.

حين كان يافسي في قريته تعلم الحقيقة الصعبة حول العلاقة بين الرجل والمرأة، لطخت المدينة هذه الحقيقة بالطين لكنها لم تلطخ صدر الصبي، كان يافسي خجولًا في طباعه؛ الأمر الذي جعله لا يصدِّق ما يقولونه عن النساء، فعوضًا من أن يثير هذا الكلام شعورًا بالإغراء أثار في قلبه نفورًا وألمًا. بينما كان يافسي جالسًا على السرير استرجع ابتسامة ريسا الساحرة وكلماتها الرقيقة؛ متذكرًا كلامهم عنها، وقبل أن يَهِمَّ بالاستلقاء على سريره فتح باب غرفة سيِّده ورآها واقفةً أمامه بثياب خفيفة مسدلةً شعرها وواضعةً يدها على صدرها، بدأ الخوف يدبُّ في قلب يافسي، أرادت المرأة أن تفتح باب غرفة الرجل العجوز وقد مدَّت يدها لفتحه لكنها توقفتْ، ابتسمتْ وأشارتْ بأصبعها ليافسي وكأنها تهدده، دخلتْ غرفتها لتترك يافسي ينام والابتسامة تعلو محياه.

في الصباح وبينما كان يافسي يكنِسُ أرضية المطبخ رأى ريسا عند باب غرفتها فاعتدل موجهًا عينيه نحوها والمكنسة في يديه.

قالت له: «صباح الخير، هل ستتناول القهوة معي؟».

ارتسمت علامات الفرح والخجل على وجهه وأجابها: «لم أغسل وجهي بعد، انتظريني لدقيقة واحدة».

بعد بضع دقائق جلس يافسي على المنضدة في غرفتها، لم يرَ سوى وجهها الجميل بحاجبيها الأسودين وعينيها المبتسمتين.

ـ «هل أنت معجبٌ بي؟».

ـ «نعم إنني معجبٌ بك».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأنك طيبةٌ وجميلة».

أجابها كما لو أنه غارقٌ في حلم جميل كونه لم يعتد على سماع أسئلتها، عيناها تنظران إلى يافسي بنظرات انكسار وهما تترقبان مَعرفة ما يدور في صدر هذا الفتى الصغير.

سألته بنبرةٍ منخفضة: «هل تحب ماتفي ماتفيفيتش؟».

أجابها ببساطة: «لا».

«أصحيح ما تقول؟ إنه يحبك؛ لقد أخبرني بذلك بنفسه».

أكدَّ الصبي إجابته: «لا أحبه».

رفعت ريسا حواجبها ودَنَت منه قائلةَ: «ألا تصدقني؟».

«أصدقك لكنني لا أصدق سيِّدي بتاتًا».

سألته بصوتٍ خفيفٍ وهي تقترب منه أكثر: «لماذا؟ لماذا؟».

اخترق جمالها البراق شِغاف قلبه، أثار بداخله أفكارًا لم يبح بها لأي أحد؛ لكنه أباح بها لهذه المرأة قائلًا على عجل: «أشعر بالخوف منه؛ جميعهم يثيرون في قلبي الخوف إلَّاكِ».

ـ «لم أنت خائف؟».

ـ «تعرفين السبب».

ـ «ما الذي أعرفه؟»

ـ «أعلمُ أنكِ تعيشين حياتك مظلومةً؛ ليس ظُلم سيِّدي فحسب وإنما ظلم آخرين غيره، رأيتك تبكين؛ لم تذرفي دموعك بسبب شرب الخمر، أنا أدرك هذا الأمر، أدركه حقًا، صحيحٌ أني لا أستطيع فهم كلِّ شيءٍ، لكني أستطيع النظر إلى الأشياء بتفاصيلها الدقيقة، وحين تجتمع في صورةٍ واحدة تصبح مختلفةً ولا تشبه بعضها؛ أعي ذلك حقًا، لكن ما هي الغاية من وراء كل هذا الاختلاف؟ الأشياء تختلف مع بعضها البعض وتكاد لا تتفق مع مثيلاتها، هناك حياةٌ نعيشها وحياةٌ أخرى بجانبها».

سألته ريسا متعجبةً: «ما الذي تقوله يا فتى؟».

ردَّ عليها: «كلامي صحيح».

نظرا إلى بعضهما البعض للحظاتٍ والصمت المطْبِقُ يعمُّ المكان، بدأت دقاتُ قلب الصبي في التسارع وتورَّدت وجنتاه.

قالت له ريسا بنبرةٍ هادئة: «حسنًا اذهب الآن وإلا فسيسألك عن سبب بقائك بعيدًا عنه لهذه المدة الطويلة، لا تخبره أنك كنت معي، لا تفعل ذلك، حسنًا؟».

همَّ يافسي بمغادرة المكان وصوتٌ عذبٌ يُغني بداخله ونظراتها الحنونة أمام عينيه، ما زالت كلماتها عالقةً في ذهنه وقلبه ملتحفٌ بالسعادةِ فرحٌ بها.

بدا ذلك اليوم أطول مما سبقه، تلبدَّت السماء بالغيوم حاجبةً نور الشمس عن أسطح المنازل، يبدو أن هذا اليوم الشاقَّ والممل أصبح متشابكًا حاله كحال السحبِ السوداء التي تُخيِّم على المدينة، دخل زبونان إلى المتجر بعد العشاء، أحدهما رجلٌ ضعيفُ البنية أحدبُ الجسد وله شاربٌ رماديٌّ جميل، والآخر رجلٌ ذو لحيةٍ حمراء يرتدي نظارة، شرعا في تصفِّح الكتب بكلِّ تأنٍ وإمعان، أخذ الرجل الضعيف يُصفِّر ويحرِّك شاربه بينما كان الرجل ذو اللحية الحمراء يتحدث مع السيِّد.

عرف يافسي مسبقًا ما سيقوله السيِّد وكيف سيقوله، يشعر الصبي بالملل، فالمساء يفقده صبره، يحاول كسر مللِه من خلال الاستماع إلى كلمات الرجل العجوز راسبوبوف ومطابقتها مع تخميناته وهو يرتِّب الكتب التي اختارها العملاء.

سأل العجوز الزبونين قائلًا: «هل تشتري هذه الكتب من أجل وضعها في المكتبة؟».

أجاب الرجل ذو اللحية الحمراء: «لمكتبة المعلمين».

«لماذا؟».

توقّع يافسي أنه سيمتدحهم ولم يخطئ في توقعه إذ قال لهما: «اختياركما للكتب موفقٌ جدًا، أشعر بالسعادة عند رؤيتي من يقدرون الكتب».

سأله الرجل: «أتشعر بالسعادة لأجل هذا؟».

توقَّع يافسي أن سيِّده سيبتسم بعد هذا السؤال.

ردَّ عليه العجوز مبتسمًا: «نعم أكون سعيدًا لرؤية هذا الأمر، لأن المرء يعتاد على هذه الكتب حتى يعشقها، فهي ليست مجرد أوراقٍ ميتة لكنها صنعُ عقولنا؛ لذا أشعر بالسعادة عندما يحترم زبائني هذه الكتب، تعودت رؤية زبائنٍ يطرحون ذات السؤال: «هل لديك أي كتبٍ ممتعة؟»، الأمرُ سيانٌ بالنسبة لهم لأن هدفهم التسلية والمرح دون فائدةٍ تُذكر، لكن أحيانًا يأتيني أحدهم فجأةً ويطلب كتابًا محظورًا».

سأله الرجل وهو يشدُّ عينيه قائلًا: «ماذا تعني بمحظور؟».

ـ «ممنوعٌ بيعها في المكتبات؛ سواءً تلك الكتب المنشورة في الخارج، أو المنشورة سرًا في روسيا».

ـ «هل هذه الكتب للبيع؟».

توقّع يافسي أن سيِّده سيتحدث بصوتٍ منخفضٍ ولم يخطئ في توقعه هذا.

وضع العجوز يده على نظارته موجهًا إياها تلقاء الرجل ذي اللحية الحمراء وقال بصوتٍ منخفضٍ أقرب إلى الهمس: «لم لا؟ يمكنك شراء مكتبةٍ كاملةٍ وقراءة كلِّ شيءٍ فيها».

ـ «هل لديك مثل هذه الكتب الآن؟».

ـ «لدي العديد منها».

ـ «دعني أراها من فضلك».

ـ «لا تُخبِر أيَّ أحدٍ عنها بتاتًا، لن أريك إياها لأجني المال من ورائها وإنما سأهديها لك؛ علينا أن نفعل الخير بين الحين والآخر».

توقَّف الرجلُ الأحدبُ عن الصفير وعدّل من وضع نظاراته، نظر إلى الرجل العجوز نظرة اهتمام.

حتى تلك اللحظة كانت نفس يافسي تنفرُ من سيِّده، أخذ ينظرُ إليه بحقدٍ وكمدٍ وفتور، عندما ذهب راسبوبوف إلى زاوية المتجر لعرض بعض الكتب على الرجل ذي اللحية الحمراء همسَ الصبي فجأةً للزبون الأحدب قائلًا: «لا تشترِ تلك الكتب».

أصاب الهلعُ فؤاد يافسي فور نطقه بتلك الكلمات، رفع الرجل نظارته وأخذ يحدِّق بعينيه البرَّاقتين في وجه الصبي وسأله: «لماذا؟».

بعد أن تدثَّر بالصمت هُنَيْهَةً ردّ عليه بكلماتٍ متلعثمة: «لا أدري».

عدَّل الزبون من وضع نظارته، ابتعد عن يافسي، بدأ يُصفِّر بصوتٍ أعلى وهو ينظر إلى الرجل العجوز، ثم رفع يده وعدَّل من هيئته منتصبًا في وقفته، مسح شاربه الرمادي، توجَّه نحو صاحبه على مهل، أخذ منه الكتاب ليلقي عليه نظرةً خاطفةً ويرميه على الطاولة، تابع يافسي حركات هذا الرجل وهو يترقب مصيبةً ستحلُّ قريبًا منه، لكن الرجل الأحدب وضع يده على كتفِ صاحبه وقال بنبرةٍ هادئةٍ: «هيَّا بنا لنذهب».

ـ «ماذا عن الكتب؟».

ـ «دعنا نذهب، فلن أشتري أية كتبٍ من هنا».

أخذ الرجلُ ذو اللحية الحمراء يقلِّب نظره نحو صاحبه ونحو الرجل العجوز وهو يرمش بعينيه بسرعة، ثمَّ سار متجهًا نحو الباب وخرج إلى الشارع.

سأله راسبوبوف: «ألا تريد الكتب؟».

أدرك يافسي من لهجة الرجل العجوز أنه فوجئ بهذا الأمر.

أجابه الزبون وهو يحدِّق في وجه العجوز: «لا أريدها».

تراجع راسبوبوف وذهب إلى كرسيه وقال بنبرةٍ عاليةٍ وهو يلوِّح بيديه بطريقةٍ لم يألفها يافسي: «كما يحلو لك بالطبع؛ لكنِّي لم أفهم ما حدث».

ردَّ عليه الزبون مبتسمًا: «ما الذي لم تفهمه؟».

أجابه العجوز بنبرة يشوبها التعجب: «قضيتَ حوالي ساعتين وأنت تتصفح الكتب ووافقت على سعرها وفجأةً تقول هذا! لماذا؟».

ردَّ عليه الرجلُ الأحدبُ بنبرةٍ بطيئةٍ هادئةٍ وهو يهمُّ بالخروج ويضرب الأرض بخطواته: «حسنًا، فعلت ذلك لأنني تذكرتُ وجهك المثير للإشمئزاز؛ مثلك يفترض أن يخطفه شبح الموت! حالتك يُرثى لها!».

أخذ الرجل العجوز ينظر إلى الأحدب لبعض الوقت، ثُمَّ تحرك متجهًا نحو يافسي بخطوات متثاقلة، وضع يده على كتفِ الصبي وقال له هامسًا: «اتبعه وأخبرني أين يسكن».

ثمَّ أردف قائلًا: «اذهب! لا تدعه يراك! أتفهم ما أقوله لك؟ هيا أسرِع!».

أخذ يافسي يتمايل يمنةً ويسرةً وكاد أن يسقط لولا أن العجوز أمسكه، شعر يافسي بفراغٍ في صدره، بدت كلمات سيِّده الجافَّة كحبات بازلاء تتساقط على الأرض.

«لماذا ترتجف هكذا أيها الحمار؟ أنت....».

عندما شعر يافسي أن يد سيِّده ارتفعت عن كتفه ركض متجهًا نحو الباب.

صرخ عليه سيِّده: «توقف أيها المخادع!».

وقف يافسي في مكانه، وقال له سيِّده: «إلى أين أنت ذاهب؟ لن تكون قادرًا على فعل...! اغرب عن وجهي!».

تحرَّك يافسي إلى زاوية المتجر، كانت هذه المرة الأولى التي يرى فيها سيِّده بهذه القسوة، أدرك يافسي أن سيِّده بات منزعجًا وخائفًا في الوقت نفسه، شعورٌ لطالما اعتاد عليه يافسي، سرَّه رؤية راسبوبوف في تلك الحالة على الرغم من أنَّه كان خائفًا متوجسًا.

انفرد العجوز المغبَّرُ بنفسه مثل جرذٍ في مصيدة، حثّ خطواته نحو الباب وأخرج رأسه من النافذة ينظر إلى الشارع ثم عاد مرة أخرى إلى داخل المتجر، أخذ يتحسس جسده بيديه عاجزًا عن القيام بشيء، بدأ يتمتم ويهمس ويهز رأسه حتى سقطت نظارته من أنفه وهو يقول: «أمممم، حسنًا حسنًا! أيها الحقير! لدي فكرة! أيها الحقير! أنا على قيد الحياة، أنا على قيد الحياة!».

بعد عدة دقائق صرخ قائلًا ليافسي: «أغلق المتجر!».

أشار العجوز بعلامة الصليب عند دخوله إلى غرفته، أخذ نفسًا عميقًا واستلقى على الأريكة السوداء، يبدو العجوز في العادةِ لطيفًا وسمح الوجه لكنه أصبح متكدرًا بعد ذلك الموقف، أخذت التجاعيد تبرز على وجهه أكثر فأكثر، أصبحت ملابسه كبيرةً عليه، انكمش جسده المنفعل.

قال ليافسي: «أخبر ريسا أن تجلِبَ لي كأسًا كبيرًا من النبيذِ الممزوج بالفلفل».

عندما أحضر يافسي الشراب قام سيِّده من مكانه وشربه في جرعةٍ واحدة، أخذ يحدِّق في وجه يافسي قائلًا: «هل رأيت كيف أهانني؟».

ـ «نعم رأيت ذلك».

ـ «وهل تعرف السبب وراء ذلك؟».

ـ «لا أعلم».

رفع الرجل العجوز يده وهزَّ إصبعه وهو يقول بصوتٍ مكسور: «أعرف هذا الرجل! أعرف الكثير عنه!».

أزال العجوز قبعته السوداء، مسح صلعته بيديه، نظر إلى الغرفة، لمس صلعته بيديه مرة أخرى، واستلقى على الأريكة.

جلبت ريسا العشاء وسألته وهي ترتب الطاولة: «هل أنت متعب؟».

ـ «يبدو أن صحتي ليست على ما يُرام، أعتقد أن الحمى على وشك أن تزورني، أعطني كوبًا آخر من النبيذ واجلسي معنا فلم يحن موعد مغادرتك».

جلست ريسا معهما، بدأ العجوز يتحدث بسرعة، رفع نظارته وأخذ ينظر إليها بنظراتٍ مريبةٍ من أعلى رأسها إلى أخمصِ قدمها، رفع ملعقته أثناء العشاء وقال: «لا أستطيع أن أضع لقمةً في فمي، سأخبرك عمَّا حدث».

صمت هُنَيْهَةً بينما كان منحنيًا تجاه الصحن وأخذ يفكر كما لو أنه في حيرةٍ من أمره حول إخبارها عمَّا حدث، تنهَّد وبدأ يسرد ما حدث قائلًا: «لنفترض أن هناك رجلًا لديه زوجةٌ ومنزلٌ صغيرٌ وحديقةٌ ومزرعةٌ وطباخ، اكتسب هذه الأشياء بعرقِ جبينه ولم يبخل على نفسه، ثم يأتي شاب مريضٌ مسرفٌ يستأجر غرفةً في منزله ويتناول الطعام مع سيِّده وخليلته».

تستمع ريسا إليه بآذانٍ صاغية، أما يافسي فيشعر بالملل، حاول فهم ما حدث في المتجر في ذلك اليوم وهو يمعن النظر في وجه المرأة، شعَرَ كما لو أنه أشعل عود ثقابٍ وأضرم النار في شيء قديم قد جفَّ منذ فترةٍ طويلةٍ وبدأ يحترق مثيرًا القلق وكاد هذا الحريق الخبيث المفاجئ أن يقضي عليه.

قال يافسي لنفسه: «يجب أن أبقى هادئًا».

وجَّهت ريسا سؤالا للعجوز قائلةً: «هل أنت هذا الرجل الذي تتحدث عنه في القصة؟».

رفع راسبوبوف رأسه بسرعةٍ وقال: «لماذا أنا؟».

ضرب صدره وهتف بحرارة وغضبٍ قائلًا: «نحن لا نتحدث هنا عن الرجل بل عن القانون، هل يجب على هذا الرجل أن يلتزم بالقانون؟ نعم، يجب عليه ذلك، من المستحيل أن نعيش من دون قانون، يا لغباء البشر! إنهم مثل الوحوش فهم جشعون شريرون قلوبهم قاسيةٌ كالحجارةِ».

قام الرجل العجوز من كرسيه، وبدأ يصرخ في وجه ريسا وصلعته محمَّرة، استمع يافسي إلى كلماته دون أن يصدِّق شيئًا منها، أخذ يفكِّر في كيفية ارتباط الناس ببعضهم البعض، وكيفية تداخل هذه الروابط مع أخرى وكأنها خيوطٌ لا تُرى بالعين المجردة، وأثر غياب أحد هذه الخيوط على حياتهم بحيث تنقلبُ رأسًا على عقب فيغضبون ويولولون وينتحبون.

بعد تلك الأفكار التي شغلتْ تفكيره قال لنفسه: «يجب أن أكون أكثر حذرًا».

واصل الرجل العجوز حديثه: «لا تؤذينا الكلمات إذا لم نلقِ لها آذانًا صاغية، لكن عندما بدأ هذا الشاب الذي يسكنُ في منزل الرجل بمضايقة هذه المرأة بأفكاره، بدأت هذه الشابة الغبية وصديقها الذي....الذي... إلى يومنا هذا».

توقف العجوز عن حديثه فجأةً ونظر إلى يافسي وسأله بنبرةٍ هادئةٍ مريبةٍ: «بمَ تفكر؟».

وثب يافسي من مكانه وأجاب بترددٍ قائلًا: «لا أفكر بشيء».

«حسنًا، اذهب من هنا فقد تناولت عشاءك، لكن نظِّف طاولة العشاء قبل مغادرتك».

تعمَّد يافسي التمهُّل في إزالة الأطباق من على الطاولة، لكن العجوز صرخ في وجهه قائلًا: «اذهب من هنا أيها الأحمق!».

ذهب يافسي إلى غرفته وجلس على سريره، ترك الباب مفتوحًا قليلًا ليسمع حديث سيِّده السريع.

«داهموا غرفة الشاب في إحدى الليالي، شعرتْ المرأة بالخوف حينها وبدأ جسمها يرتعش، علمت حينئذٍ فظاعة الطريق الذي جعلها هؤلاء الأشخاص تسلكه، فقلتُ لها...».

سألته ريسا بصوتٍ عالٍ: «إذن كنتَ معهم؟».

خفَّض العجوز من صوته حتى اقترب من الهمس لدرجة لم يسمعه يافسي، وفجأةً سمع صوت ريسا تقول بوضوح: «هل مات الشاب؟».

أجابها العجوز منفعلًا وهو يقول: «حسنًا، وإن مات؟ لا يمكن علاج شخصٍ مثله، نعم لقد مات».

جلس يافسي على سريره وهو يستمع إلى صوت سيِّده المنخفض.

استدار الفتى ورأى سيِّده مدخِلَا رأسه من فتحة الباب قائلَا له: «لماذا أراك مستيقظًا حتى اللحظة؟ استلقِ على فراشك واخلد إلى النوم»، سحب السيِّد رأسه من فتحة الباب وأغلقه بإحكام.

جلس يافسي يُفكرِّ مع نفسه وهو مستلقٍ على السرير مناجيًا نفسه: «من هذا الذي مات؟»، أخذت كلمات العجوز الجافة تتناثر في مخيلة يافسي كأوراق شجرةٍ تتساقط على قبرٍ في فصلِ الخريف، بدأ الصبي يعيش في دائرةٍ يكتنفها الكثير من الغموض والرهبة، صرخات العَجوز الغاضبة تحرم عينيْ يافسي من النوم وتجعله غير قادرٍ على التفكير، أحسَّ بالأسف على حال ريسا التي التزمت الصمت والهدوء والعجوز يرمي كلماتهً السامة عليها، سمعها أخيرًا تذهب إلى غرفتها، عمَّ الصمتُ غرفة السيِّد لعدة دقائق إلى أن خرج صوتُ راسبوبوف وهو يقول كعادته: «طوبى لمن لم يتَّبع سبيل الظالمين، ولم تقف أقدامه في طريق الخُطاة ولم يجالسهم».

باغت النوم يافسي بمجرد سماعه لهذه الكلمات المُطَمئِنة.

نادته ريسا في صباح اليوم التالي وسألته والابتسامة تعلو محياها: «ماذا حدث في المتجر بالأمس؟».

أخبرها يافسي كل شيءٍ بالتفصيل، فضحكت معبرةً عن رضاها وسعادتها، وفجأةً قطَّبت حاجبيها وقالت: «أتعرف من كان ذلك الرجل في المتجر؟».

أجابها بـ«لا».

همست في أذنه والخوف يعتريها: «كان جاسوسًا».

صمت يافسي بعد كلامها فأتته وهي تقول بكلِّ لطف: «يا لك من فتى تعيسٍ! أنت مثيرٌ للضحك ولا تفهمُ شيئًا البتة، ما هي الأشياء التي أخبرتني عنها في ذلك اليوم؟ ما هي الحياة الأخرى التي كنت تتحدث عنها؟».

أيقظ السؤال شيئًا ساكنًا بداخله ورغبةً جامحةٍ للحديث عنه، رفع يافسي رأسه وأخذ ينظر إلى وجهها بنظراتٍ ثاقبةٍ بعينيه اللتين أصبحتا كعينيْ كفيف، قال لها مسرعًا في حديثه: «بالطبع هناك حياة أخرى؛ فمن أين تأتينا القصص الخيالية؟ ليس القصص الخيالية فحسب وإنما...».

ابتسمت المرأة، خللتْ شعره بأصابعها الدافئة، قالت له بنبرةٍ جديةٍ وصارمةٍ: «أنت غبيٌ بعض الشيء! سيمسكون بك ويقتادونك أينما أرادوا، سيفعلون بك ما يحلوا لهم، ستكون هذه هي حياتك».

أومأ يافسي برأسه متفقًا مع كلام ريسا.

تنهَّدت ونظرت من النافذة إلى الشارع، نظر يافسي إليها بعد أن أدخلت رأسها إلى الغرفة فتفاجأ من مظهرها؛ فقد احمرَّ وجهها وأصبحت عيناها قاتمتين وصغيرتين.

قالت له بصوتٍ متثاقلٍ ومنخفض: «إذا كنت ذكيًا ومستعدًا فسأقول لك شيئًا ما، لكنك شخص غريب الأطوار، لا فائدة تُرجى من إخبارك، يجب أن نخنق سيِّدك حتى الموت، اذهب الآن وأخبر سيِّدك بما قلته لك! أخبره بكل شيء».

قام يافسي من مكانه، وشعر كما لو أنَّ سيلًا من الإهانات انسكب عليه، أمال رأسه وأخذ يتمتم قائلًا: «لن أخبره أي شيءٍ عنك أبدًا! لن أخبر أحدًا قط، فأنا أحبك كثيرًا، وحتى لو خنقتيه بنفسك فلن أخبر أحدًا فأنا أحبك». مشى يافسي بخطى متثاقلةٍ نحو الباب، لكنها أمسكت به بيديها اللتين شعر أنهما جناحين أبيضين سيضمانه وأرجعته إليها قائلةً: «هل شعرت بالإهانة من كلامي؟ أعذرني على ما قلته لك، فأنت لا تعلم ما يفعله هذا الشيطان بي وكيف يعذبني ومدى كرهي له! يا إلهي!».

ضمَّته بشدةٍ إليها وقبَّلته قائلةً له: «أتحبني؟».

ردَّ عليها هامسًا وبداخله رقصاتُ فرحٍ وسعادةٌ لا توصف: «نعم أحبك».

سألته ريسا: «كيف تحبني؟».

«لا أعرف كيف، ولكني أحبك كثيرًا».

قالت له ضاحكةً: «سوف تخبرني أيها الصغير عن الأمر!».

نزلتْ من الدرج وهي تضحك ضحكاتٍ تشي بارتياحها منه؛ فابتسم لسماعه ذلك، أشاح بوجهه عنها وتحرَّك متثاقلًا في مشيته والكسل يعتريه، انصرف بهدوءٍ وحذرٍ كما لو أنه خائفٌ من ضياع تلك الفرحة من قلبه.

سأله سيِّده: «لماذا تأخرت علي؟».

نظر يافسي إليه فلم يرَ غير وجهٍ قبيحٍ مضطرب فأجابه بنبرةٍ هادئة: «أعاني من الصداع».

ـ «وأنا كذلك أعاني من الصداع، فما الضيرُ في ذلك؟ هل استيقظت ريسا؟».

ـ «نعم استيقظت».

ـ «هل تحدثت إليك؟».

ـ «نعم تحدثنا».

ـ «عمَّا تحدثتما؟».

كان هذا السؤال مثل صفعة في وجه يافسي، لكنه سرعان ما تدارك نفسه وأجاب بلا مبالاة: «سألتني عن سبب عدم تنظيفي للمطبخ».

بدأ سيِّده يتمتم مع نفسه قائلًا: «تلك المرأة مخلوق خطير! نعم، نعم إنها كذلك! فهي تحاول أن تعرف كل شيء، وتجعلك تخبرها بما تشاء».

نظر يافسي إلى سيِّده وقال في نفسه: «أتمنى أن أراك ميتًا».

مرَّت الأيام بسرعة كما لو أن فرحًا ينتظر قلب يافسي، أصبح كلُّ يومٍ أكثر إثارةٍ من سابقه.

الفصلُ السابع

أصبح العجوز عبوسَ الوجه قليلَ الكلام غريبَ النظرات، انفجرت عواطفه فجأةً فبات يصرخُ ويعوي ككلبٍ مريض، ظلّ يشكو من ألمٍ ألمَّ به في رأسه وغثيان بات يلازمه، أصبح يشمُّ الطعام على نحوٍ مريبٍ أثناء تناول وجباته، يُقطِّعُ الخبز قطعًا صغيرة بأصابعه المُرتعشة، يرفعُ الشراب والشاي قريبًا من المصباح، ازداد توبيخه الليلي لريسا أكثر فأكثر، بات يتوعدها بتدمير حياتها؛ لكنها تردُّ على صرخاته بهدوئها وصمتها.

بدأ حبُّ يافسي للمرأة يكبر أكثر فأكثر، امتلئ قلبه الحزين المكلوم بالكراهية لسيِّده.

استشاط العجوزُ غضبًا قائلًا: «لا أدري ما الذي ترمين إليه أيتها الدنيئة؟ ما هو سبب مرضي؟ هل تضعين السمّ في طعامي؟».

أجابته بنبرةٍ هادئةٍ مرتعشة: «ما الذي تقوله؟ ماذا تقول؟ أنت مريض بسبب الشيخوخة».

ـ «كاذبة! كاذبة!».

ـ «أنت مريضٌ من الخوف أيضًا».

ـ «أسكتي أيتها التعيسة!»

ـ «أنت تعاني بسبب كبر سنك».

ـ «تكذبين!».

ـ «حان الوقت لتفكِّر في الموت».

صاح العجوز وعيناه تذرفان الدموع: «هذا ما تريدينه! تكذبين! أمنيتك ستذهب هباء الرياح! أنا لست الوحيد الذي يعرف كل شيء عنك، فقد أخبرت دوريمدونت لوكين عنك».

تابع حديثه قائلًا: «أعلم أنه عشيقك الذي تخططين معه لتسميمي، أتعتقدين أنَّ الأمر سيكون بهذه السهولة! كلَّا لن يكون كذلك! لن يكون كذلك!».

في مشهدٍ مشابهٍ لما يحدث كلَّ ليلة، غادرت ريسا غرفة العجوز وهي تحمل شمعة في يدها تلبسُ ملابسَ خفيفةً بيضاءً مثيرة، تمشي كما لو أنها في منامها، تتمايل من جهةٍ لأخرى وهي تتلَّمس طريقها بقدميها العاريتين، عيناها شبه مغمضتين، أصابع يدها اليمنى ممدودةٌ كأنها مخالبٌ تنهش الهواء، ينحني فتيل الشمعة نحو صدرها؛ يكاد يلامس قميصها؛ فيضيئ شفتيها اللتين تشيان بتعبها ونصبها وتشرق به أسنانها.

مرَّت بجانب يافسي دون أن يلاحظها، فتبعها إلى باب المطبخ، حيث رأى منظرًا أثار في قلبه الرعب، كانت المرأة تمسك بسكينٍ كبيرة في يدها، تمسح طرفها الحاد بإصبعها، جعلت رأسها للأسفل ووضعت يدها على رقبتها بالقرب من الأذن محاولةً البحث عن شيءٍ ما بأصابعها الطويلة، أخذت نفسًا عميقًا وأعادت السكين بهدوءٍ إلى الطاولة وأنزلت كلتا يديها.

كان يافسي ممسكًا بمقبض الباب فأحدث صوتًا سمعته ريسا، استدارت وهمست غاضبةً: «ماذا تريد؟».

ردَّ عليها يافسي: «سيموت قريبًا، لماذا تفعلين هذا بنفسك؟ أرجوك لا تفعلي ذلك! لا تفعلي!».

«اصمت يا فتى!».

وضعتْ يديها على يافسي كما لو أنها كانت تريد أن تستند عليه وعادت إلى غرفة الرجل العجوز.

بات السيِّد غير قادرٍ على مغادرةِ سريره، استحال صوته ضعيفًا متحشرجاً، أضحى وجهه قاتماً، لم تستطع رقبته الضعيفة حمل رأسه، أصبحت خصلة الشعر الرمادي شاذةً على ذقنه، يزوره الطبيب كل يوم، عندما تهمُّ ريسا لتعطيه دواءه يئنُّ بشدةٍ ويقول: «الدواء مع السم؟ يا لكِ من شريرة!».

ـ «إذا كنت لن تتناوله فسأرميه».

ـ «لا! لا! دعيه هنا! وسأتصل غداً بالشرطة وأطلعهم على السمِّ الذي تعطينني إياه».

كان يافسي حينها واقفاً عند الباب يسمع حوارهما ويشاهد الموقف، بدا مستعدًا للصراخ دهشةً من صبر ريسا، ازدادت شفقته عليها أكثر فأكثر، وازداد معها رغبته في موتِ الرجل العجوز، باتت أنفاسه ضعيفةً كما لو أنه يتنَّفسُ في يومٍ باردٍ جاف.

سمع يافسي صوت صرير السرير وصوت ملعقة تلامس الزجاج.

كان السيِّد حينها يقول لريسا: «امزجيه جيدًا أيتها الجيفة!».

طلب منها في إحدى المرات أن تحمله إلى الأريكة، فحملته بين ذراعيها كطفلٍ صغير ورأسه الأصفر على كتفها المتورِّد وقدميه الواهنتان تتدليان بين ثنايا التنورة البيضاء.

صرخ العجوز وهو متكئٌ على الأريكة العريضة: «يا إلهي! يا إلهي لمَ جعلتَ عبدك في يدِ الأشرار؟ هل لأن خطاياي أكبر من خطاياهم يا رب؟ هل حانت ساعة رحيلي؟».

بدأت أنفاسه تتقطع وبدأ يتحشرج قائلًا: «إليكِ عني! لقد سممتِ رجلًا أنقذك من العمل الشاق! آهٍ! آهٍ! آهٍ منكِ أيتها الكذَّابة!».

تحرَّكتْ ريسا من مكانها، أصبح بإمكان يافسي الآن رؤية جسد سيِّده الذابل، باتت معدته ما بين انتفاخٍ وانقباضٍ، قدماه مرتخيتان، شفتاه تلتويان بين فينةٍ وأخرى وهو يحاول فتح فمه لالتقاط أنفاسه بشراهةٍ، يلعقُ شفتيه بلسانه مظهراً بذلك جوف فمه القاتم، يتصبب العرق منه فتَلمعُ جبهته ووجنتاه وعيناه اللتان تبدوان كبيرتين وقاتمتين تحاولان تتبع تحركات ريسا.

قال العجوز بصوتٍ مكسور: «ليس هناك أحدٌ يقف بجانبي، ليس هناك أحدٌ يقف بجواري على وجه الأرض، ليس لدي صديق حميم، لماذا هذا يا رب؟».

توجَّه نحو ريسا وقال: «أيتها المتوحشة أقسمي بالإله أنك لا تحاولين تسميمي».

انتقلت ريسا إلى زاوية الغرفة وأشارت بعلامة الصليب.

أخذ يتمتم وهو يمسك ملابسه من ناحية صدره ويمسك بالجزء الخلفي من الأريكة ويحفر أظافره فيها قائلًا: «لا أصدقك، لا أصدقك».

صرخت ريسا صرخةً مفاجئةً: «يُستحسن بك أن تشرب دواءك، سينفعك!».

كرّر العجوز مقولة ريسا: «سينفعني نعم! عزيزتي، يا حبي الوحيد، سأعطيك كل شيء يا ريساي الجميلة».

مدّ تجاهها ذراعه التي بدت عظامُها، تتوسَّل إليها لتقترب منه وهو يهزُّ أصابعه القاتمة.

صرخت ريسا صرخةً خرج معها ما خبأته بداخلها: «آه منك! لقد سئمتُ منك أيها المخلوق البغيض».

انتزعت الوسادة من تحت رأسه، وضعتها على وجه العجوز، ألقت بجسدها عليه، أمسكت ذراعيه النحيلتين اللتين أصبحتا تلوحان في الهواء.

صرخت صرخةً أخرى: «بِتُّ مريضةً بسببك، لا أستطيع الوقوف معك بعد الآن، اذهب إلى الجحيم! اذهب! اذهب!».

ارتمى يافسي أرضًا، سمع حشرجة الموت وصرخاتٍ ولكماتٍ مكتومة؛ علم حينها أن ريسا كانت تخنق العجوز وتضغط عليه بينما كان يضرب برجليه على الأريكة من فعلها، لم يشعر بالشفقة تجاهه ولم يكن خائفًا من هول الموقف، أراد أن تتم مهمتها بأسرع وقتٍ ممكن، لم يكن بيده سوى أن يغلق عينيه بقوةٍ ويصمّ أذنيه بكلتا يديه.

دفعه الألم الناجم عن ضربةِ الباب إلى القفز والوقوف على قدميه؛ فإذا بريسا تقف أمامه وهي تُرتب شعرها المنسدل على كتفيها وتقول بفظاظة: «هل رأيت ما حدث؟».

وجهها محمرٌ لكنها كانت هادئةَ لم ترتعشّ يداها.

أومأ يافسي برأسه واقترب من ريسا وقال: «نعم رأيت ذلك».

«حسنًا، يمكنك إبلاغ الشرطة إن أردت ذلك».

أشاحت ريسا بوجهها عن يافسي ودخلت الغرفة تاركةً الباب مفتوحًا، ظلَّ يافسي عند الباب محاولًا عدم النظر إلى الأريكة.

سألها يافسي هامسًا: «هل مات العجوز؟».

«نعم لقد مات».

أدار يافسي رأسه وأخذ ينظر إلى جسد سيِّده بعيون غير مباليةٍ، ممددٌ على الأريكة كما لو أنَّه مُلتصقٌ فيها، نظر إلى الجثة، ثمَّ إلى ريسا، وتنفس الصعداء.

في الزاوية بالقرب من السرير ساعةُ على الحائط، عقاربها تدقُّ بهدوء واحدةً تلو الأخرى، تنظرُ المرأة إلى كلِّ ضربةٍ من ضربات عقارب الساعة؛ لم تتحمل سماعها فتوجهت إلى الساعة لإيقافها بيدها الحائرة، جلست بعدها على السرير، وضعت مرفقيها على ركبتيها وجعلت رأسها بين يديها، بدأ شعرها ينسدل مُغطيًا وجهها ويديها كما لو أنه حجابٌ أسود.

توجَّه يافسي نحو ريسا بخطواتٍ حذرة بالكاد تلمس الأرض حتى لا يكسر الصمت الذي يعمُّ المكان، جلس بجانبها وأخذ ينظر إلى كتفها الأبيض، أشعل حال المرأةِ رغبةً في يافسي لقولِ شيءٍ يخفف عنها هول الموقف؛ فقال لها بصوتٍ منخفض: «هذا جزاؤه الذي يستحقه».

أحسَّ يافسي بالرعبِ من الصمتِ الذي يعمُّ المكان، لكنه جلس في مكانه متوقعًا سماع أمرٍ ما ومترقبًا حدوث شيٍ ما.

قالت له ريسا بنبرةٍ صارمةٍ: «افتح النافذة». لكن عندما ابتعد يافسي عنها أوقفته وسألته سؤالًا بنبرةٍ هادئة: «هل أنت خائف؟».

ـ «لا».

ـ «لماذا لا تقول أنك خائف؟ يا لك من فتى خجول».

ـ «لا أخاف حين تكونين بجواري».

ـ «هل أنت حزينٌ على ما حدث للعجوز؟».

ـ «لا».

ـ «افتح النافذة إذن».

تدفق نسيم الهواء البارد الليلي إلى الغرفة، انطفأ نور المصباح فأصبحت الظلال تومض بسرعة على الحائط وتختفي، أمسكت المرأة بشعرها والقت به خلف ظهرها، أخذت تنظر إلى يافسي بعينيها الكبيرتين.

سألت نفسها والحيرة تتملكها: «لماذا أدمِّرُ حياتي هكذا؟ لقد عشتُ على هذه الحالة منذ وجدتُ نفسي في هذا العالم؛ أنتقل من حفرةٍ إلى أخرى؛ كلٌ واحدةٍ أعمق من سابقتها».

ظلَّ يافسي بجانبها؛ التهمهما الصمتُ لفترةٍ طويلة، وضعت يديها الناعمتين الباردتين حول خصره وقالت بنبرةٍ هادئة: «هل ستُخبر أحدًا بما حدث؟».

أغلق عينيه قائلًا: «لا».

قالت له مرةً أخرى بنبرةٍ حزينة: «لن تخبر أحدًا أبدًا؟ لا أحد؟ بتاتًا؟».

كرر يافسي إجابته بهدوء: «أبدًا!».

قالت له وهي تضع يدها على خده: «لا تخبر أحدًا، سأساعدك في حياتك».

نهضت من مكانها ونظرت حولها ثمَّ قالت: «ارتدِ لباسًا ثقيلًا فالجو باردٌ هنا، ثُّم رتِّب الغرفة، هيا تحرَّك».

عندما عاد يافسي رأى جسد سيِّده ملتحفٌ ببطانية، لاتزال ريسا بملابسها الخفيفة التي تكشف عن أكتافها؛ تحركت مشاعر يافسي حينها، شرعا في ترتيب الغرفة على مهليهما وهما ينظران إلى بعضهما البعض بنظراتٍ صامتةٍ وجِدِّية.

أحسّ الصبي بأن عملهما في تلك الساعة المتأخرة من الليل قد زاد من قربه من تلك المرأة التي عاشت وحيدةً مثله، عاشت خائفةً مثله، حاول أن يبقى بالقرب منها قدر الإمكان، متجنبًا النظر إلى جسد سيِّده.

حطَّ الفجر رحاله في المدينة، سمعت ريسا أصوات الناس وهم يوقظون بعضهم البعض في المنزل والمدينة، تنهَّدت وذهبت إلى يافسي قائلةً له: «اذهب الآن واستلقِ على فراشك، سأوقظك قريبًا وأرسل معك رسالة إلى دوريمدونت لوكين، هيا اذهب!»، رافقته إلى الصندوق الذي اعتاد النوم عليه وتحسست الفراش بيدها وقالت: «أوه، يا له من سرير صلب!».

عندما استلقى يافسي على الفراش جلست بجانبه وأخذت تمسح رأسه وكتفيه بيدها الناعمة الملساء وهي تقول بلطف: «أعطه الرسالة، وإذا سألك كيف حدث الأمر، أخبره أنك لا تعرف، أخبره أنك كنت نائماً ولم ترَ شيئًا».

ظلَّت ريسا صامتةً مقطِّبة الحاجبين، داعب النعاس عينيْ يافسي وكاد أن ينام من فرط إرهاقه ودفءِ جسد المرأة وكلماتها المريحة.

وبينما هو على وشك النوم تابعت حديثها قائلةً: «ليس من مصلحتنا القيام بذلك».

كانت تُحدِّثُه بنبرةٍ هادئة؛ حتى أن ملاطفتها ودفئها وحنانها أيقظ في قلبه ذكرى والدته فابتسم.

قالت له بصوتٍ هادئ: «دوريمونت لوكين جاسوسٌ أيضًا؛ احذر منه أيَّما حذر، إذا قلت له ما حدث فسأخبره أنك تعرف كل شيء وساعدتني في الأمر، ثم ستدخل السجن معي».

ابتسمت ريسا وكررت مقولتها: «ستدخل السجن، وسيجعلونك تقوم بأعمالٍ شاقَّة، هل تعي ما أقوله لك؟».

أجاب يافسي وهو ينظر إلى وجهها بعينين شبه مغلقتين والسعادةُ تغمره: «نعم».

«كأنك تريد أن تنام؟، حسنًا، سأتركك الآن»، بهذه الكلمات تركته ريسا والفرح يملأُ قلبه وهو على وشكِ النوم، تابعت حديثها معه قبل أن تخرج وقالت: «هل ستنسى كلَّ ما أخبرتك به؟ يا لك من فتى ضعيف! اخلد إلى النوم!».

غلبه النعاس فسنَت عيناه لكن سرعان ما استيقظ على صوتٍ مرتفعٍ يقول له: «أيها الصبي! انهض! هيَّا أسرع! أيها الصبي!».

قام يافسي من مضجعه ومدّ يديه فإذا به يجد دوريمدونت لوكين عند سريره وهو يحمل عصًا في يده قائلًا له: «لماذا أراك نائمًا؟ سيِّدك فارق الحياة وأنت نائم!».

قالت ريسا التي كانت تنظر من المطبخ مرتديةً قبعتها ومظلةٌ في يدها: «إنه متعب؛ فلم ننم طيلة الليلة الفائتة».

«متعب؟ يجب عليك أن تُجهش بالبكاء في يوم وفاة سيِّدك، لا أن تنام! هيا قُم من مكانك وارتدِ ملابسك».

كان وجه الجاسوس المسطَّح صارمًا؛ شعر يافسي أنّ كلماته قيَّدته عنوةً كما لو أنها لجامٌ على فمِ حصانٍ مُطيع.

قال له: «هيا اركض إلى مركز الشرطة مع هذه الرسالة، وحذارِ أن تفقدها».

ارتدى يافسي ملابسه وقام من مكانه وهو على وشكِ أن يُغمى عليه من فرطِ تعبه، ثمَّ خرج إلى الشارع، بدأ يركض وهو يكابد عينيه لكيلا ينام وهو في طريقه مصطدمًا بكلِّ من يمرُّ أمامه.

قال في نفسه بينما كان يركض: «أتمنى أن يُوارى جثمانه قريبًا، سوف يخيفها دوريمدونت وستخبره بكلِّ شيء، ثمَّ سأدخل السجن معها، لكن إذا كنتُ معها فلنٍ أخاف، ذهبتْ إلى لوكين بنفسها ولم ترسلني إليه لأنها لم تُرِد إيقاظي من النوم...أو ربما كانت خائفةً من مصيري بعد الذي حدث!».

عندما عاد يافسي وجد شرطيًا ذي لحيةٍ سوداء ورجلًا أشهبًا يرتدي معطفًا طويلًا يجلسان في الغرفة، يتحدث دوريمدونت إلى الشرطي وكأنه يملي عليه الأوامر، وهو يقول له: «هل تسمع يا إيفان إيفانوفيتش ما يقوله الطبيب؟ السرطانُ أودى بحياة الرجل، ها هو الصبي قد وصل، احضر لنا زجاجات الجعة بسرعة... بسرعة!».

ريسا تُحضِّر القهوة والبيض المخفوق في المطبخ، مشمِّرةً عن أكمامها، تطهو الطعام بيدها البيضاء ببراعة.

قالت ليافسي مبتسمةً: «عندما تعود سأعطيك بعض القهوة».

ظلَّ يافسي يعمل طوال اليوم، ولم يكن لديه أي فرصة لمراقبة ما يحدث في المنزل؛ لكنه أحسَّ أن الأمور تسير على ما يُرام مع ريسا التي باتت أكثر جمالا من أي وقت مضى وتبعثُ الراحةَ في كلِّ من ينظر إليها.

حين استلقى يافسي على فراشه في الليل والتعب والإعياء يعتريانه وطعمٌ مريبٌ في لسانه سمع دوريمدونت يقول لريسا بنبرةٍ حازمةٍ: «يتعين علينا ألّا ندع هذا الصبي بعيدًا عن أنظارنا! أتفهمين ما أقول؟ إنه صبيٌ غبي».

بعدها دخل هو وريسا غرفة يافسي، حرَّك الجاسوس يده وكأنه سيتحدث عن شيءٍ مهم وقال: «استيقظ! أخبرنا كيف ستعيش الآن».

ـ «لا أعلم».

ـ «إذا كنت لا تعلم فمن يعلمُ إذن؟»، انتفخت عينا الجاسوس، وانقلب لون وجهه وأنفه إلى اللون الأرجواني، يتنفسُ بحرارةٍ ويصدرُ صوتًا صاخبًا وكأنه فرنٌ يغلي من الحرارة.

أجاب الجاسوس على نفسه وهو يرفع إصبعه الذي يحملُ خاتمًا قائلًا: «أنا أعلم».

قاطعت ريسا حديثه وقالت بنبرةٍ لطيفةٍ: «ستعيش معنا، ستعيش معي».

قال الجاسوس: «نعم ستعيش معنا وسأجد لك مكانًا جيدًا تنام فيه».

لم ينبسْ يافسي بكلمة.

لتكسُرَ صمته قالت له: «ما الذي حلَّ بك؟».

ردَّ يافسي بعد صمته: «لا شيء».

قال دوريمدونت بنبرةٍ متعالية: «يجب أن تشكرني أيها الأحمق».

أحسَّ يافسي أن تلك العيون الرمادية الصغيرة تدفعه للتمسك بشيءٍ ما والتشبُّثِ به.

تحرَّك دوريمدونت مبتعدًا برائحة الجعة والعرق والشحم وقال ليافسي: «سنكون أكثر من أقاربٍ بالنسبة لك».

فتح يافسي نافذة الغرفة وأخذ يستمع إلى أصوات المتذمرين وحركاتهم في شوارع المدينة المظلمة المنهكة التي توشكُ أن تنغمس في نوم عميق، سمع صوتًا من مكانٍ وهو يتألم ألمًا شديد، أوشك الصبي على الإغماء من هذا الصوتِ الذي بدا وكأن قلب صاحبه قد لُفَّ بسلكٍ رفيع فضاق نفسه، استلقى يافسي وأخذ يتأوه ويحدِّق في الظلام بعينين مجفلتين، بدأ يرى خزائن الملابس والصناديق وكأنها تتحرك في وسط الظلام الدامس ذهابًا وإيابًا كما لو أنها تتراقص في الظلام، أخذت الجدران تختفي من أمام ناظريه، أحسَّ يافسي بالرعب والخوف من كلِّ هذا، اختلى إلى زاويةٍ لا يستطيع الفرار منها.

أما في غرفة ريسا فتعالت قهقهات الجاسوس وهو يقول: «ها، ها، ها! هذا الشيء لا يُذكر، سيزول قريبًا، وستعتادين عليه».

وضع يافسي رأسه تحت الوسادة حتى لا يسمع هذ الكلام المزعج، ضاقت على يافسي أنفاسه ولم يستطع التنفس فقفز من سريره بعد لحظات، رأى أقدام سيِّده القاتمة الجافة أمام عينه، ووميضٌ يخرجُ من عينيه المحمرتين الشاحبتين؛ لم يحتمل ذلك فصرخ صرخةً خفيفة وركض نحو باب غرفة ريسا ويداه ممدودتان، فتح الباب وصرخ قائلًا: «أنا خائف».

رأى يافسي شخصين مقيدين من أقدامهما في الغرفة، وفجأةً سمع صوتًا غاضبًا يقول له: «اخرج من هنا!».

خرَّ يافسي على ركبتيه وسقط على الأرض عند أقدامهم مثل سحلية خائفةٍ وهو يردد: «أنا خائف! أنا خائف!».

شهدت الأيام اللاحقة استعدادهم لإقامة مراسم جنازة الرجل العجوز وانتقال ريسا للعيش في حيِّ دوريمدونت، طرح يافسي نفسه أرضًا مثل طائرٍ صغير يتخبط في سحابة يحيطها الهلع والظلام، تُباغت يافسي في بعض الأحيان فكرةٌ خجولةٌ تمرُّ عليه كسحابة صيفٍ فيقول في نفسه: «كيف

سيكون حالي في المستقبل؟»، وبمجردِ أنِ ينتهي من تلك الفكرة يعتريه الحزن والأسى فيستيقظ من حلمه ويفرُّ هاربًا يجر أذيال الخيبة محاولًا الاختباء من واقعه.

كلما التقت عيناه بعيني دوريمدونت سمعه يقول: «أسرع أيها الفتى!».

ترنُّ هذه الكلماتِ في أذني يافسي وتجعله يترنَّح يمنةً ويسرةً في محاولةٍ للهربِ من واقعه، عندما يحلُّ المساءُ يغطُّ يافسي في نومٍ عميقٍ من شدةِ التعبِ والنصب؛ لكن هذا النوم لم يخلُ من السوادِ والأحلام المزعجة.

الفصلُ الثامن

بعد تلك الحياة التي عاشها يافسي وجد نفسه في زاويةٍ مُعتمةٍ من غرفةٍ كبيرةٍ ذات سقف منخفض، جلس ممسكًا بقلمٍ ويدُه على طاولةٍ مُغطاةٍ بقماشٍ زيتيٍ أخضر مُتَّسِخ، أمامه كتابٌ سميكٌ به كلماتٌ مصفوفة وبضعُ صفحاتٍ مسطرةٍ فارغة، لم يفهم يافسي ما توجَّب عليه فعله مع كلِّ هذه الأشياء التي يراها أمامه، فما كان منه إلاَّ الالتفات يمنةً ويسرةً بلا حولٍ ولا قوة.

ضمَّتْ تلك الغرفةُ العديد من الطاولات والكراسي؛ تجدُ في بعضها شخصين والبعض الآخر يجلس عليها أربعةُ أشخاص، جلسوا هناك والإرهاق والاستياء بادٍ على وجوههم، تراهم يحركون أقلامهم بسرعة، يفرطون في التدخين، وبين الحين والآخر يتراشقون بالكلماتٍ البذيئة، يتطاير الدخانُ الأزرقُ الخانقُ نحو شُبَّاكِ النافذة حيث يلتقي بضوضاء الشارع الذي يصُمُّ الآذان، ذبابٌ لا يُعدُّ ولا يحصى حول رؤوس الجالسين، يزحفُ على الطاولات والجدران ويصطدم بزجاج النوافذ؛ يعكِسُ هذا الذباب حال أولئك الجالسين في هذا القفص القذر الممتلئ بصخبهم.

يَقِفُ رجالُ الشرطة عند الأبواب، ضباطٌ يدخلون ويخرجون، أشخاص يدخلون ويتبادلون التحية ويبتسمون لبعضهم البعض ويتنهدون، امتزج حديثهم السريع والحزين مع نداءات الموظفين المُتجهِمة.

ظلَّ يافسي جالسًا في مكانه، رفع رأسه وأخذ يلوِّح بناظريه تجاه الموظفين محاولًا تذكر أشكالهم، أراد يافسي أن يجد من بينهم من يستطيع مساعدته، استيقظت بداخله غريزةٌ لحماية نفسه؛ حاول تركيز كلّ مشاعره المضطهدة، كلّ أفكاره المكسورة ليتأقلم مع هذا المكان وهؤلاء الناس في أقرب وقتٍ ممكن؛ محاولًا في الوقت ذاته ألّا يلفت الأنظار حوله.

اشترك جميع الموظفين صغارًا وكبارًا في مظهرهم الرث، الجميعُ في حالةٍ من الكآبة؛ لكنهم سُرعان ما يأخذهم الحماس ويصرخون ويلوِّحونَ بأيديهم ويظهرون أسنانهم، من بين الموظفين العديدُ ممن بلغ من الكبر عتيًا وممن أكل الزمان شعر رأسه وممن تلوّن شعره باللون الأحمر، من بينهم رجلٌ مَديدُ القامةِ طويلُ الشعرِ حليقُ اللحية عريضُ الشارب وكأنه شارب كاهن، ورجلٌ آخر ذو وجهٍ أحمر ولحيةٍ كثَّة ورأسٍ أصلع، كان هذا الرجل أول من احتكَّ بيافسي؛ أجلسه في زاوية الغرفة، وضع كتابًا أمامه وأمره بنسخ أجزاءٍ معينة منه.

وقفت امرأةٌ عجوز ملتحفةٌ بالسواد أمام هذا الرجل، وقالت له بنبرة حزينة: «أيها الأب المبجَّل! أيها السيِّد الكريم!».

صاح العجوز دون أن ينظر إليها قائلًا: «أنتِ تزعجينني أثناء عملي».

على المقعد عند الباب تجلسُ فتاةٌ صغيرةٌ نحيلةٌ ترتدي ثوبًا ورديًا تبكي وتمسح وجنتيها بكمها الأبيض وهي تقول: «انا لست مذنبة».

صرخ أحدهم بنبرةٍ حادةٍ قائلًا: «من الذي يئِن هناك؟».

يدخل الزوار ولا يفعلون شيئًا سوى تقديم الطلبات والشكاوى والدفاع عن أنفسهم، يتحدثون وقوفًا والدموع تَنْهَمِرُ من أعينهم، أما الموظفون فيجلسون في مكانهم وهم يصرخون على الزوار وعلامات الغضب والسخرية والإرهاق قد ارتسمت على وجوههم، عمَّ الهدوء المكان ولم يُسمع سوى صوتُ تفقيع الأوراق وصرير القلم، وفجأةً انكسر الهدوء ببكاء الفتاة.

صرخ الرجل ذو اللحية الرمادية بصوتٍ عالٍ قائلًا: «يا ألكسي! خُذ هذه المرأة بعيدًا من هنا». لمح الرجل كليمكوف وهو يشاهدُ الموقف وتوجه نحوه على عجل وقال له بفظاظة: «ماذا دهاك؟ لم لا تستمر في الكتابة؟».

نكَّسَ يافسي رأسه ولم ينبس ببنت شفة.

قال الرجل العجوز وهو يهزُّ كتفيه: «هممم، أحمقٌ آخر يعمل هنا».

مشى بعيدًا وصرخ قائلًا: «زاروبين!».

زاروبين صبيٌ نحيفٌ ذو جبهةٍ صغيرةٍ وعينين تشيان بقلقٍ يسكنُ قلب الصبي، له شعرٌ مجعدٌ أسودٌ ورأسٌ صغير، جلس بالقرب من يافسي وقال له وهو يضع كوعه على كتفه: «ما هي مشكلتك؟».

ردَّ عليه يافسي بنبرةٍ يملؤها الخوف: «لا أفهم ما الذي يتعين عليَّ فعله هنا».

من جوف الصبي خرج صوتٌ مكسور: «أفٍ لك!».

قال بعدها بصوتٍ منخفضٍ كما لو أنَّه يناجيه بسر ما: «سأخبرك ما يتعين عليك فعله، سأخبرك بذلك وستعطيني بالمقابل نصف روبل، أعندك هذا المبلغ؟».

ـ «لا».

ـ «أعطني إياه عندما تستلم راتبك؟ حسنًا؟».

ـ «حسنًا».

أمسك الصبي بالورقة وقال له بنبرةٍ غامضة: «تابع معي، كما ترى هناك نقاطٌ حمراء على الأسماءِ الأولى وأسماءِ العائلة في هذا الكتاب، كلُّ ما عليك فعله هو نسخها في هذه الورقة. عندما تنتهي من ذلك نادني وسأرى ما إذا كان ما كتبته صحيحاً أم لا، بالمناسبة اسمي ياكوف زاروبين».

مرةً أخرى خرج صوتُ تأوهٍ منكسرٍ من جوفِ الصبي زاروبين وبدأ يسير بين الطاولات بكُلِّ رشاقة واضعًا مرفقيه على جانبيه ومعصميه على صدره، يلوِّحُ برأسه الأسود الصغير في جميع

الاتجاهات وينظرُ بعينيه الصغيرتين في أرجاء الغرفة، أخذ يافسي ينظر إليه في تلك الأثناء وبعدها وضع القلم في الحبر وشرع في الكتابة، سرعان ما غرق يافسي في عمله متناسياً ما حوله، أصبح منهمكاً في عمله الذي لا يتطلب منه أي تفكير، وبسببه تناسى خوفه الدفين.

اعتاد يافسي على عمله الجديد إلى درجةِ أنه أصبح يؤديه من دون أن يشعر به، أصبح مستعداً لخدمة أي شخصٍ وفي أي وقت، حاول يافسي أن ينأى بنفسه عن الباقين، ولتحقيقِ ذلك كان يطيع كلَّ من يطلب منه شيئًا واكتفى بعمله الذي أبعده عن فضول زملائه ومزاجه المتقلب. كان يافسي كتوماً ومتحفظاً إلَّا أنه جعل لنفسه مكاناً بينهم في زاويته الضيقة تلك، عاش كطائرٍ ليلي يُراقب من زاويةٍ مظلمةٍ من دون أن يفهم معنى الصخب الدائم الذي يمرُّ أمام عينيه.

يسمعُ الشكاوى والآهات والأصوات المرعوبة في كلِّ ساعةٍ من ساعات وجوده هناك، يسمعُ صرخات ضباط الشرطة، يسمعُ أصوات الموظفين الغاضبين والمتذمرين، يرى الصفعات وهي تتهاوى على وجوه الزائرين بعد جرهم من رقابهم عند وصولهم إلى الباب، وفي بعض الأحيان يرى الدم يُسحب من أجسادهم، وفي أحيانٍ أخرى يأتي رجال الشرطة ومعهم أشخاصٌ مقيدون بالحبال والكدمات على وجوههم والألم يعتصرهم.

بَدت علامات الخجلِ على اللصوصِ الذين تقتادهم الشرطة؛ لكنهم يبتسمون في وجه الجميع كما لو أنَّهُم يعرفونهم، تبْتسِمُ فتيات الشوارع ابتساماتٍ مصطنعةٍ أيضاً ويُعدلن من هيئتهن ولباسهن بذات الطريقة، أشخاصٌ بدون جوازات سفر يجلِسُ بعضهم صامتًا والبعض الآخر بدت عليه علامات الكآبة، تَحملُ أعينهم يأساً لا خلاص منه، يدخلُ المجرمون السياسيون بحراسةٍ من الشرطة وعلاماتُ الفخر قد بدت على وجوههم، يصرخون ويختلفون مع بعضهم البعض لدرجة أنهم بخلوا بالتحية على العاملين في المكان، يعاملون من يصادفهم بازدراءٍ وكأن بينهم عداوة، دار حديثٌ كثيرٌ عن هذه الطبقة من المجرمين بين الموظفين؛ وغالباً ما يكون الحديث عنهم بشيءٍ من الفكاهة، لكنه يفوحُ ببعض العداوة في أحيانٍ أخرى، في خضم هذا المشهد الساخر والعداء الذي يبدو على وجوههم شعر يافسي برغبةٍ في معرفة هؤلاء الناس الذين تحدثوا بصوت عالٍ وجريءٍ لكن في الوقت ذاته كان لديه شعورٌ أشبه بالخوف.

يهتمُّ الموظفون أيَّما اهتمام بهؤلاءِ الجواسيس السياسيين، لم يكن لهؤلاء عملٌ واضح، فعملهم يتَّسمُ بالحدةِ والسرية، يتحدثُ الجميع عنهم والحسد بادٍ على أعينهم؛ يقولُ الموظفون أنّ هؤلاء الجواسيس يجنون مبالغَ ضخمةٍ، وأن الرعب يكتنف كل جزئيةٍ من جزئيات حياتهم، وأن كلّ الأبواب مفتوحةٌ في وجوههم أينما حلّوا، وأنهم يُأثّرون على حياة الناس تأثيراً كبيراً؛ فبمقدورهم تحديدُ مكان أيَّ أحدٍ إلى درجة أنه مهما حاول المرءُ التخفي فسينتهي به المطاف في السجن.

تصطادُ أعينُ يافسي الواسعةُ أي حركةٍ في المكان؛ استطاع تكوين خبرة عما يحدث حوله دون أن يشعر بذلك لأن عقله الضعيف لا يستطيعُ استيعاب ما يحدث حوله ويكوِّن فكرةً متناغمةً عن الأمر، لكن كلّ تلك الأحداث التي مرَّتْ به ألقت بثقلها عليه وشكّلت حدثًا واحدًا بالنسبة له، أثارت بداخله رغبةً غير محسوسة لمعرفة المزيد عمّا يحدث حوله، أثاروا بأفعالهم الفضول بداخله ليصل إلى استنتاجاتٍ غير متوقعه، أشارت تلميحاتهم السرية إلى أمورٍ كانت ترعب يافسي من جرأتها.

لم يكترث من حوله ببعضهم البعض فقلوبهم خاليةَ من الشفقة؛ حتى أنّ يافسي لم يكن يأسفَ لحال من يراه، بدا ليافسي أن الجميع يتظاهر في حركاتهم وسكَنَاتِهم؛ حتى أنهم يتظاهرون ببكائهم وأنينهم حين يتلقون الضربات، يرى شيئًا تخفيه أعين من حوله، شيءٌ لا يبعث على الثقة، سمع أكثر من مرةٍ أحدهم وهو يقول مهدداً بصوتٍ منخفض: «انتظر، سيحين دورنا يوماً ما أيضاً».

حين يحلُّ المساء يختلي يافسي بنفسه في تلك الغرفةِ الكبيرة ويسترجع أحداث يومه فتبدو وكأنها أحداثٌ غيرُ حقيقيةٍ وتافهة؛ أحداثٌ مبهمةٌ بالنسبة له، أحداثٌ تُزعجُ من يمر بها وتسبب لهم الحيرة والارتباك، يبدو أن الجميع مجبرٌ على العيش بهدوءٍ دون أن يحمل أحدهم ضغينةً وحقدًا بداخله، لكن لم يرغب أحدٌ منهم في إخبار الآخرين بسره الذي يخفيه عن حياته الأخرى؛ فلا أحد يثق في جاره، الجميع يكذب ويجعل الآخرين يكذبون، كان الإنزعاج الناجم عن نمط الحياة هذا واضحًا على وجوههم، يُطلق الجميع صرخات الشكوى من فرطِ صعوبة الحياة التي يعيشونها، ينظرون إلى الآخرين على أنهم أعداءٌ خطيرون، استياؤهم من حياتهم وفقدان ثقتهم بالآخرين يجعلهم في حربٍ دائمة ويشطر قلوبهم إلى شطرين.

لم يجرؤ يافسي على التفكير بهذه الطريقة، لكنه أحسَّ شيئًا فشيئًا بعدم وجود نظام حوله، وأن هناك حياةً مُثقلةً بالمصاعب تدور حوله، يعتريه شعورٌ بالملل الشديد في بعض الأحيانً؛ فيشعرُ بضعفٍ في أصابعه ويضع القلم جانبًا، يضعُ رأسه على الطاولة ويبدأ في النظر دون حراك لغموض المكان، سعى يافسي للعثور في أعماقِ روحه عن شيءٍ يحتاجه حاجةَ الظمآنِ للماء.

وبينما هو غارقٌ في تفكيره يسمع صرخات رئيسه، ذلك الرجل العجوز طويلُ القامةِ حليقُ اللحيةِ رماديُ الشارب وهو يقول له: «كليمكوف، هل أنت نائم؟».

عند سماعه لرئيسه يُمسك يافسي بالقلم ويقول لنفسه وهو يتنهَّد: «سيمضي هذا الوقت قريبًا».

لم يستطعْ يافسي معرفة ما إذا كان إيمانه بهذه المقولة باقيًا في قلبه أو أنه لم يعد يؤمن بها وكان يقولها لمجرد قولها فقط.

الفصلُ التاسع

استيقظتْ ريسا من نومها في الصباح الباكر، توجهتْ إلى يافسي وهي تلبسُ ملابسَ خفيفة بعينين يغالبهما النوم، ناولتهُ القهوةَ من دون أن تقول له شيئًا، دوريمدونت يسعلُ ويعطسُ في غُرفتها، بدأ صوته الخشن في الارتفاع أكثر فأكثر، بدت نبرته أكثر صرامةً من ذي قبل. يمضغُ دوريمدونت طعامه بصوتٍ عالٍ، قبل أن يهمَّ بتناول الطعام يمسح شفتيه ويدفع لسانه الكبير إلى الخارج وينفخ، ينظرُ إلى الطعام بشراهة، يبدأ وجهه الأحمر القاسي باللمعان، يصوِّبُ عينيه الرماديتين الصغيرتين تلقاء وجه يافسيَ وكأنهما حشرتين تبحثان عن دفء، يحكُّ جلده وعلامات الإنزعاج بادية على وجهه.

بعدها قال ليافسي: «أعلمُ مدى قساوة الحياة يا أخي، أعلم حجم الخير والشر الذي يأتي في طريقنا ونحن نمضي في هذه الحياة يا عزيزي، وقد ابتسم الحظ في وجهك حين أتيت إلى هنا؛ حيث وضعتك في وظيفةٍ ستصل بك إلى المعالي، هذا إن لم تكن أحمقًا بالطبع».

أخذ دوريمدونت يترنَّح يمنةً ويسرةً بجسده الضخم وهو يخاطبُ يافسي؛ الكرسيُ يصدر صوتًا وكأنه صوتُ أنين من حركته، وبينما كان يافسي يستمع إلى حديثه شعر أن هذا الرجل يمكن أن يجبره على فعل كل ما يريده.

يتحدَّثُ الجاسوس مع نفسه متفاخرًا في بعض الأحيان ويثني على نفسه قائلًا: «تلقيت الشكر مرةً أخرى اليوم من رئيسي فيليب فيليبوفيتش؛ حتى أنه مدَّ إليَّ يده ليصافحني».

في إحدى المرات أمسك دوريمدونت الفتى من أذنيه وبدأ يحكي له قصةً قائلًا: «منذ حوالي شهرين كنتِ جالسًا في مطعمٍ بالقرب من محطة سكة الحديد، رأيتُ رجلًا يأكل شرائح لحم، وبينما كان يأكل ظلَّ ينظر يمنةً ويسرةً ويراقب ساعته، عليك أن تعي يا يافسي أن الرجل النزيه لن ينظر في جميع الاتجاهات؛ فلا أحد يهتم لأمره، وهو يعرف الوقت دائمًا، أما من تراه يلتفت عن يمينه ويساره فاجزم أنه يعمل عميلًا لدى قسم الأمن، لذا ظللتُ أراقب هذا الرجل، توقف قطار الضاحية وخرج منه رجلٌ ضعيفُ البنيةِ داكنُ البشرةِ قصيرُ اللحيةِ ودخل إلى المطعم، بدا هذا الرجل يهوديًا وكان يضع زهرتين في أعلى رأسه أحدهما حمراء والأخرى بيضاء؛ بدت هاتان الزهرتان وكأنهما علامةٌ على شيءٍ ما، وكأنهما يرحبان ببعضهما البعض، جلس الرجل وطلب وجبةً، شرع في الأكل وأتبع الوجبةَ بمشروبٍ غازي وخرج من المطعم، فتبعه الشخص الآخر على مهل، وما كان مني إلا أن لحقت بهما».

نفخ دوريمدونت خديه ثم أخرج تيارًا من الهواء تفوح منه رائحة اللحم والجعة في وجه يافسي، أنحنى يافسي برأسه كي لا تصيبه تلك الرائحة، فانفجر الجاسوس ضحكًا، تجشأ بصوتٍ عالٍ وواصل حديثه وهو يرفع إصبعه قائلًا: «ظللت أتابع الرجلين لمدة شهر وثلاثة وعشرين يومًا، وأخيرًا أبلغت عنهما وذكرت في بلاغي أنني أتابع أشخاصًا مشبوهين، ذهبا بعيدًا وعادا مرة أخرى، فشرعت أبحث عن حقيقتهما، قال لي الرجل ذو الشعر الأشقر الذي كان يأكل شرائح اللحم «ليس

من شأنك»؛ أما اليهودي فقد أعطاني اسمه الحقيقي، وبعد البحث اتضح لنا أن هذا الرجل مطلوبٌ للعدالة، فقبضنا عليه ومعه امرأة معروفة ـ وقعت بين أيدينا للمرة الثالثة ـ بدأنا ننتقل إلى أماكن أخرى مختلفة وقبضنا على آخرين وكأننا نحصد محصول الفطر، لنصل إلى العصابة بأكملها، واستطعنا بذلك أن نفسد صفقةً جديدةً، عندما أعطانا الرجل ذو الشعر الأشقر اسمه تبيَّن أنه من الشخصيات المهمَّة وقد تسلل عبر سيبيريا، نحن على مقتبل العام الجديد وأتوقع مكافأة على عملي هذا».

استمعتْ ريسا إلى حديثِ الجاسوسِ وهي تنظر إلى رأسه بينما كانت تمضغ ببطءٍ قطعة خبز وترمي بعض القطع هنا وهناك، قالت بنبرةٍ متراخية: «نعم لقد قبضت عليهم لكنهم لا يزالون على قيد الحياة».

ابتسم الجاسوس وأجاب بنبرةٍ مثيرة: «أنتِ لا تفهمين في السياسة، لهذا السبب تتحدثين عن هذا الهراء عزيزتي، لا نريد أن نمحو هؤلاء الناس من على وجه الأرض، إنهم بمثابة شرارات توصلنا إلى المكان الذي اشتعلت منه النار، هذا ما يقوله فيليب فيليبوفيتش الذي كان يومًا ما سياسيًا فضلًا عن كونه يهوديًا، نعم! نعم! إنها لعبةٌ خطيرة جدًا».

أخذ يافسي يلقي بنظراته الكئيبة في أنحاء الغرفة، كانت الجدران الصفراء تحوي على صور القياصرة والجنرالات والنساء، تكادُ هذه البقعُ الملونةُ المزعجةُ على الجدار أن تقتلع العينين وكأنها جروحٌ وتقرحاتٌ منحوتةٌ على جسدٍ أعياه المرض، رائحةُ الأثاث والنبيذ والطعام الدهني الساخن مُلتصقةٌ بتلك الجدران، نورُ مصباحِ الغرفة يخفت شيئًا فشيئًا وهو يلقي بظلالٍ ميتةٍ على الوجوه.

تذكَّر يافسي لسببٍ ما وجه المتسولِ العجوزِ الأشعثِ ذي الأنف المسطح والعينين اللتين يبدو عليهما الارتباك والمكر، كان يلتقي به كلَّ يوم تقريبًا وهو في طريقه إلى المكتب، يتظاهر المتسول بالظرافة وهو يهتف طالبًا المال ويغنيً قائلًا:

«جسمٌ سمينٌ وأنفٌ أحمر

ينادي بشربةٍ من خمرٍ أحمر

وَاغَوْثَاهُ من يُنجد حاجًا أعياه الضرر

من يتصدَّقُ على أتعسِ البشر

من يروي ظمآنًا ويزيل عنه الخطر

بحقِّ الإله هاتوا خمرًا أحمر!».

وبينما كان يافسي يتَذكَّرُ هذا المُتَسوِّل جاء الجاسوس ووضع يده على الطاولة وأخذ بشعر يافسي يجره قائلًا له: «يجب أن تصغي إليَّ عندما أتكلم».

اعتاد دوريمدونت على ضربِ يافسي، أهَانته تلك الضربات على الرغم من أنها لم تؤلِمه، وكأنه يضربُ روحه عوضًا عن وجهه، كان دوريمدونت مولعًا بضرب يافسيَ على رأسه بخاتمه الثقيل حتى تكادُ تسمعُ صوت قَضْقَضَةِ العظام من جمجمته، حين يهمُّ دوريمدونت بضرب يافسي تقول ريسا: «توقف يا دوريمدونت لوكين! لاَ تفعلها».

«حسنًا، حسنًا، لن أقطعه إلى أشلاء! يجب أن أعلمه».

بدأ جسدُ ريسا ينحلُّ شيئًا فشيئًا، ظهرت بقعٌ زرقاء تحت عينيها، باتت نظراتها جامدةً ومملة، حين يكون الجاسوس بعيدًا عن المنزل في المساء تُرسل يافسي ليحضر لها النبيذ لتحتسيه في أكواب صغيرة، تبدأ بالحديث بصوتٍ خافت، تقولُ كلامًا يشي بارتباكها وتشويشها، كثيرًا ما تتوقف وتتنهد، بعد احتسائها للخمر يصبح جسدها الضخم لينًا وتبدأ في فكِّ أزرار لباسها زرًا تلو الآخر وتفكُّ شرائطها وتستلقي على الأريكة بملابس خفيفة وكأنها عجينٌ يُوشك أن يُخبز.

قالت له وهي تهزُّ رأسها: «أشعر بالملل والضجر! آهٍ لو كنتَ وسيمًا أو أكبر سنًا فلعلَّك تخرجني من كآبتي، يا لك من طفلٍ عديم الفائدة!».

خيَّم الصمتُ في رأس يافسي، ومرارة الإهانة توخز في قلبه.

قالت له والحزن يعتريها: «حسنًا، لماذا تحدِّق في الأرض؟»، ألا ترى أن من هم في سنك لديهم عشيقات منذ فترة طويلة، ويعيشون حياةً صاخبة، بينما أنت... أوه يا لك من أبله!».

عندما تُفرط ريسا في شرب النبيذ تتوجه إلى يافسي، توقظ في نفسه شعورًا معقدًا من الخوف والعار والفضول؛ ولكن لم تستطع أن تشعل فيه الجرأة، يُغمض عينيه بإحكام، ويخضع بلا حولٍ ولا قوةٍ ليدها الخشنة الوقحة، يتعرض هذا الفتى الضعيف للاضطهاد من هوس هذه المرأة التي بيَّتت نيةً خبيثةً تجاهه.

بعدها تصيح في وجهه وتدفعه وهي مشمئزة قائلةً: «اذهب إلى السرير، اذهب! أوه! يا إلهي».

تركها يافسي وذهب إلى غرفته، بدأ يفقد تدريجيًا الشعور الدافئ الذي لم يكن معتادًا عليه، وبينما كان مستلقيًا على سريره يعتريه شعور الإهانة والإثارة في آنٍ واحد. سمع ريسا تغني بصوت غليظٍ له هديل ــ تُغني ذات الأغنية على الدوام ــ وسمع معها صوتَ قرع زجاجة النبيذ.

تلبَّدتْ السماء بالغيوم في إحدى الليالي المظلمة، الأمطار تهطلُ بغزارةٍ، الريح تعوي بالقرب من نافذة غرفة يافسي، تمكَّنت ريسا في تلك الليلة من إثارة المشاعر التي تحتاجها لدى هذا الشاب، قالت مبتسمةً وقد بلغ منها الثملُ مبلغه: «ها نحن قد وصلنا، أنت الآن عشيقي! ألا ترى كم هو جميلٌ هذا الشعور؟».

وقف يافسي على السرير وكأنه مخمور، ارتعدت قدماه وبالكاد يلتقط أنفاسه، نظر إلى جسدها الضخم الناعم ووجهها العريض المبتسم، لم يعد يشعر بالخجل، ولكن قلبه لا زال أسير الحزن غارقًا في الغضب، لسببٍ ما أراد أن يبكي؛ لكنه ظلَّ صامتًا، باتت هذه المرأة غريبةً عنه، تافهةً وبغيضةً؛ تلاشت كلُّ المشاعرِ الجميلة التي يحملها تجاهها برؤيته لجسدها الجشع، اختفت بداخله دون أن تترك أثرًا، مثل قطرات مطرٍ سقطت في بركة مليئةٍ بالوحل.

«سنعيش معًا، وسنتجاهل دوريمدونت الخنزير».

ردَّ يافسي بنبرةٍ هادئة: «ولكن ألن يكتشف أمرنا؟».

«أوه! أيها الجبان الصغير! تعال إلى هنا!».

لم يجرؤ على رفض طلبها، لكنه لم يعُد قادرًا على مواجهة العداء الذي يكِّنه تجاهها، شرعت في اللعب معه واستمرت لفترة طويلة، كانت تطلق ابتساماتٍ على مضض تشي بحالتها المزرية، دفعت جسده الذي بدت عظامه من فرط هزله وتولَّت عنه مدبرة.

عندما اختلى يافسي بنفسه بدأ يُفكِّر واليأس يعتريه، قال مناجيًا نفسه: «الآن سوف تُدمِّر حياتي، سوف تقلب الأمر ضدي، لقد ضاعت حياتي».

نظر يافسي من النافذة؛ فإذا بشيء غامضٍ ومخيفٍ يتراءى أمام ناظريه في عتمة الليل، بدأ هذا الشيء يُطلقُ صوتًا أشبه بالبكاء، وتردد في النافذة صوتٌ كصوتِ عواءٍ يعتصره الحزن، دخل من النافذة وبدأ يكشِط الحائط، قفز إلى السقف، عاد إلى الشارع يئنُّ ويبكي، سرق هذا الشيء فكر يافسي وأخذ يُفكر بماهيته بحذرٍ وفضول قائلًا في نفسه: «ربما سأقول لكابيتون إيفانوفيتش في الغد أنها خنقت الرجل العجوز!».

اشتعل الخوفُ في قلبِ يافسي من هذا السؤال، ولم يكن بمقدوره أن يمحوه من ذهنه.

قال لنفسه: «سوف تدمِّر حياتي بطريقة أو بأخرى»، ظلَّ هذا السؤال أسيرًا في صدر يافسي أيبقيه بداخله أم يطلقه.

بدتْ ريسا في الصباح وكأن شيئًا لم يحدث في الليلة المنصرمة، أعطته خبزه وقهوته بكلِّ فتور والكسل مسيطرٌ عليها، كانت ريسا كما هو الحال دائمًا مرهقةً من فرطِ شربها في الليل، لم تُلمِّح له بمعاملتها وحديثها أنها قد تغيّرت عليه.

غادر يافسي المنزل متوجهًا تلقاء المكتب بهدوء، ومنذ ذلك اليوم ظلَّ يجلس في المكتب للعمل إلى وقتٍ متأخرٍ من الليل، يمشي إلى المنزل ببطءٍ شديدٍ حتى يصل متأخرًا قدر الإمكان؛ فالبقاء مع المرأة وحيدًا صعبٌ عليه، يخاف التحدث إليها، خشية أن تتذكر تلك الليلة التي دمرت فيها مشاعره تجاهها، ظلَّت عزيزة على قلبه على الرغم من أن مشاعره تجاهها أخذت في التضاؤل.

لم يكن يافسي وحيدًا في المكتب وقت الليل وإنما كان معه ياكوف زاروبين ورئيسه كابيتون إيفانوفيتش ذو الشارب الرمادي الذي يُلقَّبُ بالمِدْخَنَة، لحيةٌ حمراء صغيرةٌ تتربع على وجه رئيس يافسي، تلمعُ بلونٍ ذهبي من بعيد، تشبه الأغصانِ الصغيرة من مسافةٍ قريبة، تبدو عيونه الغاضبة من تحت رموشه الرمادية وجفونه الباهتة، يتحدثُ متذمرًا ويدخن السجائر الصفراء السميكة بلا توقف، تحومُ غيوم الدخان المُتلونة بالزرقة حول رأسه الأبيض الكبير؛ فتميزه عن الموظفين الآخرين الذين أطلقوا عليه لقب المِدْخَنَة.

قال يافسي ذات مرةٍ لزاروبين متحدثًا عن رئيسه: «يا له من رجل خطير!».

أجابه زاروبين مشيرًا إلى رأسه: «لقد تصدَّع جزؤه العلوي، فقد قضى ما يقرب من عام كامل في ملجأه، لكنه رجل هادئ».

لاحظ يافسي في بعض الأحيان المِدْخَنَة وهو يلتقطُ كتابًا أسودًا صغيرًا من جيب سترته الرمادية الطويلة ويدنيه من وجهه، يُغمغم بشيءٍ ما وشاربه يتحرك للأعلى وللأسفل.

يسأل يافسي زاروبين قائلًا: «هل هذا كتابٌ للصلوات؟».

فيجيبه: «لا علم لي».

يرتعش وجه زاروبين الداكن بين فينةٍ وأخرى، تنتفخ عيناه الصغيرتان، يتجه نحو يافسي ويهمس في أذنيه قائلًا: «هل تُعاكس الفتيات؟».

ـ «لا».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأنني أخاف ذلك».

ـ «آهٍ منك! تعال معي، سنجدُ الفتيات دون مقابل، سنحتاج فقط إلى مبلغ 20 كوبيك لنشتري به الجعة، سنقول لهم أننا من قسم الشرطة وسيسمحون لنا بالدخول ويعطونا الفتيات دون مقابل فهم يخافون من رجال الشرطة، الكل يخاف منَّا». واصل حديثه بصوتٍ منخفضٍ مشتعلٍ بالحماس: «ما أجملَ الفتياتِ هناك! سميناتٌ ودافئاتٌ مثل أسرةٍ مصنوعةٍ من الريش! إنهنَّ الأفضل! يا لروعتهن! بعضهن يدللنك وكأنهن بمثابةِ أمك، فيربتن على رأسك ويجعلنك تغفو، يا لجمال هذا الأمر!».

سأله يافسي: «ألديك أم؟».

«نعم ولكني أعيش مع خالتي؛ فوالدتي أشبه بالخنزيرة، إنها امرأة بذيئة وتعيش مع جزار، ولا أزورها البتة، فالجزار لن يسمح لي بذلك، عندما أذهب إليها يركلني على ظهري، يا له من مقرف!».

اهتزت أذنا زاروبين الصغيرتان اللتان تشبهان الفأر، الْتَوتْ عيناه الضيقتان، سحب شفته الأعلى بأصابعه وكأنه متشنج، بدأ يتحرك في المكان متحمسًا وقال: «لماذا أنت هادئٌ هكذا يا صاح؟ يجب أن تكون أكثر جرأة، وإلا فسوف يسحقونك بكثرة العمل، كنتُ خائفًا في البداية أيضًا واعتلى جميعهم كرامتي، ما رأيك أن نصبح أصدقاء طيلة حياتنا القادمة!».

على الرغم من أن يافسي لم يحب زاروبين وكان خائفًا من حركته المفرطة أجابه: «حسنًا، لنكن أصدقاء».

ـ «أعطني يدك، حسنًا ها نحن ذا قد أصبحنا أصدقاءً! سنذهب في الغد لرؤية الفتيات، حسنًا؟».

ـ «لا، لن أذهب».

لم يلاحظا توجه المِدْخَنَة إليهما، فباغتهما قائلًا: «ماذا تفعلان؟».

ردَّ عليه زاروبين بفظاظة: «نحن لا نتشاجر».

«يا لك من كذَّاب، قل لي ما يحصل يا كليمكوف لا تخضع لهذا الفتى».

قال يافسي وهو يقف أمامه: «حسنًا سأفعل».

أحس يافسي بشعور من الفضول تجاه هذا الرجل، في إحدى المرات تحلى يافسي بالشجاعة للتحدث إلى المِدْخَنَة فقال له: «كابيتون إيفانوفيتش».

ـ «ما بك؟».

ـ «أريد أن أطرح عليك سؤالًا إن أمكن».

قال له من دون أن ينظر إليه: «تحلَّى ببعض الشجاعة! تحلَّى ببعض الشجاعة!».

ردَّ عليه يافسي: «لماذا يعيش الناس بهذا السوء؟».

رفع الرجل العجوز حواجبه الثقيلة وقال وهو ينظر إلى يافسي: «وما هو شأنك في كلِّ هذا؟».

ذُهل يافسي من ردِّ الرجل العجوز وكأنه ضربه على صدره، ظلَّ يافسي يُفكِّرُ في هذا الردِّ الذي يحتوي على بساطة لا يمكن تفسيرها.

قال الرجل العجوز بهدوء: «حسنًا!». ثم قام بضمِّ حاجبيه وأخرج كتاباً أسوداً من جيبه ونقره بإصبعه وقال: «هذا هو العهد الجديد، هل قرأته؟».

ـ «نعم».

ـ «هل فهمته؟».

ـ «لا».

ـ «اقرأه مجددًا، أتعي ما أقول! على أية حال...».

أخفى الرجل العجوز الكتاب في جيبه وهو يحرك شاربه وقال: «ظللتُ أقرأ هذا الكتاب لمدة ثلاث سنوات، نعم، لثلاث سنوات، لا أحد يستطيع فهمه، إنه كتابٌ لا يفهمه إلا أنقياء القلب، لا أحد يستطيع فهمه».

تذمَّر العجوز بلطفٍ دون أن يشعر الفتى بذلك، ازدادت الرغبة لدى يافسي لطرح المزيد من الأسئلة التي تشغل فكره، أشعل الرجل العجوز سيجارةً فطوَّقهُ الدخان، يبدو أنه نسي أنه كان يحادث شخصًا، خرج كليمكوف من المكان بهدوء، ازداد إعجابه بهذا الرجل أكثر من ذي قبل وقال في نفسه: «من الأفضل لي أن أتقرَّب منه أكثر».

أصبح هذا حلمه منذُ تلك اللحظة، لكن هذا الحلم يتعارض مع حلم ياكوف زاروبين الذي قال هامسًا: «أتعلم؟ دعنا نحاول الدخول إلى قسم الأمن، ونصبح جواسيس سياسيين، يا لها من حياة رائعة سنعيشها!».

ظلَّ يافسي صامتًا، فقد كان الجواسيس السياسيون يرعبونه بسبب نظراتهم الصارمة والغموض الذي يكتنف عملهم المظلم وحياتهم القاتمة.

الفصلُ العاشر

وقع حادثٌ في المنزل في إحدى الليالي حين ظهر دوريمدونت في وقتٍ متأخرٍ من الليل بملابسٍ ممزقةٍ دون قبعةٍ أو عصى، وجههُ ملطخٌ بالدماء، جسدهُ الضخم يرتعش، الدموعُ تنْهمِرُ على خديه المتورمين، يبكي ويقول بصوتٍ أجوف: «انتهى كل شيء! يجب أن أذهب بعيدًا... إلى مدينة أخرى... في أقربِ فرصةٍ ممكنة».

بادرت ريسا بصمتٍ وتريثٍ تمسحُ وجهه بمنشفةٍ مغموسةٍ بالكحول والماءِ وهو يتأوه من الألم قائلًا لها: «على مهلك! على مهلك! أولئك الوحوش! كانوا يوجِّهُون لي الصفعات الواحدة تلو الأخرى! أتعلمين ألمَ الصفعة عندما تحطُّ على الوجه! توخي الحذر! ألا تسمعين؟».

أعطى يافسي الماء للجاسوس، خلع عنه حذاءه، استمع إلى آهاته، شعر بالرضا بداخله وهو يرى دموع الجاسوس ودمه، اعتاد على هذا الأمر كونه كان يرى الناس يتعرضون للضرب حتى تسيل منهم الدماء، لم يتأثر لسماع صرخاتهم على الرغم من تذكره لألم الضربات التي تلقاها في طفولته.

حين تمدد الجاسوس على السرير سألته ريسا قائلةً: «من فعل بك هذا؟».

«لقد نصبوا لي شِركًا وحاصروني في ضاحية بالقرب من مصنع الخيوط، يجب عليَّ الآن أن أذهب إلى مدينة أخرى، سأطلب النقل».

عندما استلقى يافسي على سريره لينام، بدأ الجاسوس وريسا يتشاجران بصوتٍ عالٍ.

قالت المرأة بصوت عالٍ وحازم: «لن أذهب».

صاح الجاسوس وهو يذرف الدموع: «هوّني عليك! لا تستفزي رجلًا مريضًا!».

ـ «لن أذهب!».

ـ «سأجعلك تذهبين معي».

علِم يافسي في الصباح من وجه ريسا الجامد ونظرة الجاسوس الغاضبة بأن الاثنين لم يتفقا على شيء، تشاجرا مرةً أخرى عند تناول الغداء، كان الجاسوس أقوى خلال النهار فبدأ يُلقي بسيلٍ من اللعنات والشتائم، كان وجهه الأزرق المتورم فظيعاً، يده اليمنى مرتخية وهو يشير بيده اليسرى مهدداً، أدارت ريسا الشاحبة والضعيفة عينيها وأخذت تتبع تأرجح يده الحمراء.

كررتْ بعنادٍ كلماتها قائلةً: «لن أذهب أبدًا».

ـ «لمَ لا؟».

ـ «لا أريد ذلك».

ـ «لكنك تعلمين أنني أستطيع أن أدمر حياتك».

ـ «لا أهتم لما تقوله».

ـ «قلت لكِ لا! ستذهبين معي».

ـ «لن أفعل ذلك».

ـ «سنرى ذلك، من أنتِ على أية حال؟ هل نسيتِ حقيقتك؟».

ـ «الأمر سيانٌ بالنسبة لي».

ـ «حسنًا».

أشاح الجاسوس بوجهه وأدبر مغادراً بعد تناول الغداء دون أن يقول أي شيء، أرسلت ريسا يافسي ليحضر لها النبيذ، أحضر لها زجاجة نبيذٍ وزجاجةً أخرى من مشروبٍ غامق، صبّت كليهما في كأس وتناولته برشفة واحدة، ظلّت واقفةً وقتًا طويلًا وعيناها ثملتان وهي تُمرر راحة يدها على صفحة عنقها.

قالت ليافسي وهي تشير إلى الزجاجة: «هل تريد أن تشرب؟ ألا تريد؟ ستبدأ في الشرب عاجلًا أم آجلًا».

نظر يافسي إلى صدرها العريض الذي بدأ بالذبول، وإلى فمها الصغير وعينيها الخافتتين، تذكر حالها سابقًا وكيف أصبحت اليوم، أشفق عليها وأخذ ينظر إليها بنظرةٍ حزينة، أحسَّ بثقلٍ في صدره وكآبةٍ تعتريه في حضور هذه المرأة.

قالت له: «آهٍ يا يافسي أتمنى لو استطاع المرء أن يعيش حياته كلها بقلبٍ نظيف».

باتت شفتاها ترتعشان، سكبت الخمر في كوبٍ وقدمته ليافسي قائلةً: «اشرب!».

أومأ برأسه رافضاً الشرب.

قالت له وهي تضحك: «يا لك من جبانٍ صغير، الحياة صعبة بالنسبة لك... أنا أعي ذلك. ولكن لماذا تعيش هكذا؟ لا أدري لمَ؟ هيَّا قل لي».

أجاب يافسي بنبرةٍ كئيبة: «هذه هي حياتي، أعيشها هكذا، ما الذي يتوجب عليَّ فعله بعد؟».

نظرت ريسا إليه وقالت بنبرةٍ حنونة: «ستخنُق نفسك يوماً ما إذا واصلت حياتك بهذه الطريقة»، أحسّ يافسي بالضيق وتنهَّد، تشبَّث بالكرسي الذي يجلس عليه، أخذت ريسا تمشي في أنحاء الغرفة بخطى متكاسلةٍ دون ضجيج، توقفت أمام المرآة عاكفةً عليها تنظرُ إلى وجهها دون أن ترمش، أخذت تتحسسُ رقبتها البيضاء بيديها، ارتجفت كتفاها، تثاقلت يداها، وبدأت مرة أخرى تسير في أرجاء الغرفة، خداها يتحركان إلى الأعلى والأسفل، أخذت تهمهم دون فتح فمها، كان صوتها مخنوقاً وكأنه أنينٌ يخرج من شخصٍ قد آلمته أسنانه.

على الطاولة مصباحٌ أخضرٌ يحتضر، الناظرُ عبر النافذة سيرى البدر يتوسط السماء الشاسعة؛ يميلُ للاخضرار وكأنه معلقٌ في السماء بلا حراكٍ حاله كحال مصباح الغرفة وكأنه نذيرٌ بمرضٍ يقترب.

قال يافسي وهو يقوم من كرسيِّه: «أنا ذاهب لأخلد للنوم».

لم ترد عليه ريسا ولم تنظر إليه، توجه تلقاء الباب وكرر بصوتٍ منخفض: «ليلة سعيدة، أنا ذاهب للنوم».

«هيَّا اذهب، أنا لا أرغمك على البقاء، اذهب من هنا».

رأى يافسي تعباً في وجه ريسا فتوقف عند الباب قائلًا لها: «هل يمكنني فعلُ شيءٍ من أجلك؟».

نظرت إلى وجهه بعينيها المنهكتين وقالت بنبرةٍ هادئة: «لا، لا شيء».

أخذتْ تمشي صعوداً ونزولاً في الغرفة لفترة طويلة، سمع يافسي حفيف تنورتها وصوت غنائها وقرع الزجاج وصوت سعالها.

«ستخنُق نفسك يومًا ما إذا واصلت حياتك بهذه الطريقة»، استذكر يافسي هذه الكلمات التي قالتها ريسا فلامست أعماق قلبه وكأنها حجارةٌ تكاد تهوي بقلبه في بحرٍ لا قعر له.

أيقظ الجاسوسُ يافسي بوقاحة في منتصف الليل وقال له هامساً: «أين ريسا؟ إلى أين ذهبت؟ هل ذهبت منذ فترة طويلة؟ لماذا لا تجيبني؟ أيها المخادع!».

غادر دوريمدونت الغرفة على عجل، ثم أدخل رأسه عبر فتحة الباب وسأله بنبرةٍ عنيفة: «ماذا كانت تفعل؟».

ـ «لا شيء».

ـ «هل كانت تشرب؟».

ـ «نعم».

ـ «تلك الخنزيرة!».

بعدها حرّك الجاسوس أذنيه واختفى.

حين غادر تساءل يافسي بداخله: «لماذا كان يهمس؟».

مصباحُ الغرفةِ يومضُ استعداداً لرحيل نوره، الجاسوس يتمتمُ باسم الربِ ويُشعل عود الثقاب باحثًا عن نورٍ يزيل عتمة الظلام، أنار المكان واختفى، ثم تسلّل نورٌ خافتٌ إلى سرير يافسي وكأنه يبحث على استحياء عن شيءٍ في تلك الغرفة الضيقة؛ تبيَّن ليافسي أنه الجاسوس الذي عاد مجدداً إلى غرفة يافسي بالكاد يفتح عينه اليسرى من فرطِ تورمها، ينظرُ بعينه اليمنى إلى الجدران حتى حطَّت نظراتُه على وجه يافسي وقال له: «ألم تقل لك ريسا أي شيء؟».

ـ «لا».

ـ «كم هي غبية هذه المرأة!».

شعر يافسي بالحرج من كونه مستلقياً على سريره بوجود الجاسوس معه فهمَّ بالجلوس، وبينما هو يهمُّ بالجلوس قال له دوريمدونت على عجل: «لا تتحرك من مكانك! عُد كما كنت!»، وجلس على السرير عند قدمي يافسي.

قال له بنبرةٍ لطيفةٍ وهادئةٍ على غير عادته: «لو كنتَ أكبر بعام واحد... فسأجعلك عميلًا سياسيًا في قسم الأمن وستكونُ في وضع جيد للغاية، صحيحٌ أن الراتب ليسَ كبيرًا، لكنك ستحصل على مكافأةٍ حين تنجح في المهمات الموكّلة إليك، ستكون حياتك حرة؛ تُولّي وجهك أينما شئت، وتستمتع بوقتك كيفما شئت، بالمناسبة ريسا امرأة جميلة، هل توافقني الرأي؟».

أجابه يافسي متفقًا مع كلامه: «نعم هي جميلة».

تنحنح الجاسوس وتنهد مبتسماً وهو يقول: «نعم، نعم». أخذ يضرب الضمادة على رأسه بيده اليسرى ويضغط على أذنه، ثمَّ أردف قائلاً: «لن تشبع من هذه المرأة، هي سيِّدة الإغراء وأمُّ الخطايا، إلى أين ذهبت؟ قل لي؟».

ردَّ عليه يافسي بنبرةٍ هادئة وكأنه خائفٌ من حدوث شيءٍ ما: «لا أدري».

تابع الجاسوس حديثه قائلاً: «ليس لدى ريسا أي عشيق، ولم يقترب منها أحد، بالمناسبة أنصحك بأن لا تتعجل مع النساء، فلديك الوقت الكافي لهن، ستنفق أموالاً كثيرة عليهن؛ ها أنا ذا قد جمعت آلاف الروبيلات ولكن ماذا تبقى منها؟».

متثاقل المشية، مُتعب الجسد، كأنه مربوطٌ بقطعة قماش، أخذ في الارتعاش أمام ناظري يافسي وكأنه على وشك السقوطِ أرضاً، بدا صوته الباهتُ مضطرباً، يتحسس رأسه وصدره بيده اليسرى

باستمرار.

قال الجاسوس وهو ينظر بشكل مثير للريبة حول الزوايا المظلمة للغرفة ويتأوَّه: «غرقت في هذه الفوضى العارمة مع تلك النسوة! كم هو مزعجٌ هذا الأمر؛ لكن لا يمكنك أن تتقدم خطوةً واحدةً بدون تلك النسوة، ليس لدي شيءٌ أفضل أقوم به في العالم، البعضُ يقول أن لعب الورق أفضلُ من النساء، لكن لاعبي الورق لا يستطيعون المضي في حياتهم دونهن، حتى أن الصيد لا يلهيك عنهن! لا شيء يمكنه أن يلهيك عن النساء!».

في الصباح رأى كليمكوف الجاسوس نائماً على الأريكة بثيابه، كانت الغرفة ممتلئةً بالدخان ورائحة الكيروسين تنبعث من المصباح الذي لم تنم عيناه طيلة الليل، دوريمدونت يشخرُ وفمهُ الكبيرُ مفتوحٌ على مصراعيه، يده تتدلى على الأرض، بدا مثيراً للاشمئزاز والشفقة.

بزغ نور الصباحِ، بدت ملامحُ السماءِ الشاحبةُ من النافذة الصغيرة، استيقظ الذباب وبدأ طنينه ينتشر في المكان، تجمَّعَ على الزجاجة الرمادية للنافذة، إلى جانب رائحة الكيروسين كانت هناك رائحةً أخرى قويةً ومزعجةً، أطفأ يافسي المصباح وبادر لسبب ما بغسل نفسه على عجلةٍ من أمره، ارتدى ملابسه واستعد للذهاب إلى العمل.

الفصلُ الحادي عشر

عند الظهيرة نادى زاروبين يافسي قائلًا: «كليمكوف، هل تعرف ريسا بتروفنا فيالكوفسكايا، إنها عشيقة سيِّدك لوكين، أليست كذلك؟».

ـ «نعم».

ـ «حسناً!».

ـ «ماذا حدث لها؟».

ـ «لقد قطعتْ حنجرتها».

وقف يافسي من مكانه والهلع يتملَّكُه، تابع زاروبين حديثه وقال: «وجدوها للتو في المخزن، هيا بنا لنراها».

ركض زاروبين وأخذ يقول لباقي الموظفين في طريقه: «قلت لكم إنها عشيقة لوكين».

أخذ يتابع صراخه مركزاً على كلمة «عشيقة».

نظر يافسي إلى لوكين وقد تحجَّرَت عيناه من هول المشهد؛ رأى رأس ريسا معلقًا في الهواء، شعرها الثقيل متدلٍ إلى الأسفل، وجهها مخضرٌ شاحب، شفتاها مغلقتان بإحكام، اختفت عيناها وتراءى ليافسي بقعٌ داكنةٌ عوضًا عنهما، اختفى كل شيءٍ حوله في حضرة وجه المرأة الميتة، لم يستطع يافسي أن يزيل ناظريه عن وجهها رغم هلعه وشفقته عليها.

سأله المِدْخَنَةُ قائلًا: «لم لا تذهب لتناول الغداء؟».

لم يبقَ في المكتب سوى القليل من الرجال، تنهَّد يافسي وأجاب: «قطعت عشيقتي حنجرتها».

«حسنًا! اذهب إلى المقهى».

خرج المِدْخَنَةُ من المكان بحذرٍ متأنياً في مشيته، وفجأةً قفز يافسي من مكانه وأمسك يده قائلًا: «خذني معك».

ـ «هيا نذهب».

ـ «لا أقصد هذا، ما أقصده أن تأخذني لنعيش معاً».

انحنى المِدْخَنَة نحوه وقال: «ماذا تقصد بـ(نعيش معاً)؟».

ـ «أعني أن أعيش معك في مسكنك... على الدوام».

ـ «آها! حسناً، في هذه الأثناء دعنا نتناول الغداء، هيا بنا».

في المقهى طائر كناري يغني أغنيةً آسرة، أخذ الرجل العجوز يأكل البطاطا المقلية في صمتٍ مطبق، لم يستطِعْ يافسي تناول الطعام، فقد كان ينظر إلى وجه رفيقه منتظراً إجابته.

«إذن أنت تريد أن تعيش معي؟ حسناً، هيا بنا».

كان لهذه الكلمات وقعٌ كبيرٌ على قلب يافسي بحيث شعر أنها ستنتشله من تلك الحياة البائسة، قال ممتناً: «سأنظِّف حذاءك».

وضع المِدْخَنَةُ أقدامه الطويلة على صندوق مهترئٍ أسفل الطاولة وقال: «لن تحتاج إلى تنظيف هذا الحذاء، أخبرني عن عشيقتك؟ هل كانت امرأة جيدة؟».

وجَّه الرجلُ العجوز عينيه بلطفٍ نحو الفتى وكأنهما تقولان له: «قل الحقيقة».

قال يافسي مطأطئ الرأس: «لا أعلم»، شعر يافسي أنه يبالغ في استخدام هذه الإجابة.

ردَّ عليه المِدْخَنَةُ: «ماذا تعني بقولك هذا؟».

قال يافسي بخيبة أمل: «لا أعرف أي شيء».

استجمع يافسي جرأته وقال فجأةً: «أرى أشياء هنا وأخرى هناك؛ ما المغزى من كل هذه الأشياء؟ لا أستطيع استيعاب الأمر! لا بُدَّ من وجود حياةٍ غير هذه الحياة».

ردَّ عليه المِدْخَنَةُ وقد اتسعت عيناه: «حياةٌ أخرى؟».

«نعم وإلا سيستحيل أن نعيش هذه الحياة وحدها».

نبتت على وجه المِدْخَنَةِ ابتسامةٌ هادئة، ضرب بالسكين على الطاولة وصاح منادياً النادل: «احضر لي زجاجة جعةٍ كبيرة، احضر لي جعةً ولا شيء غيرها، ما تقوله طريفٌ أيها الفتى، سنرى إن كان كلامك صحيحاً».

قال له يافسي مكررًا كلامه: «أرجوك دعني أعيش معك».

ـ «حسناً... حسناً... سنعيش معاً، سوف تأتي معي اليوم».

ـ «هيا بنا».

شرع المِدْخَنَةُ في احتساء الجعة بهدوء، وعند عودتهما إلى المكتب وجدا دوريمدونت هناك، وما إن وصلا حتى اتجه نحو يافسي والدم يغطي عيونه وقال له: «هل سمعت عن ريسا؟».

«نعم سمعت الخبر».

همس الجاسوس واضعاً يده غير المصابة على صدره: «لقد فعلت الأمر خارج... شرابها المفرط كان وراء الحادثة».

قال له يافسي مستدركًا الحديث: «لن أعود إلى هناك بعد الآن».

ـ «إلى أين ستذهب؟».

ـ «سأعيش مع كابيتون إيفانوفيتش».

ـ «أممم!».

شعر دوريمدونت بالإحراج من قول يافسي ونظر حوله وقال: «اعتنِ بنفسك! هذا الرجل ليس في وعيه، ولم يطردوه من عمله إلاَّ شفقةً عليه، إنه رجل خطير؛ فكن حذرًا معه، ولا تتحدث أمامه عمَّا تعرف».

ظنّ يافسي أن الجاسوس سيشتاط غضبًا عند سماعه برغبته في الانتقال عنه؛ لكنه فوجئ بهمسه وأخذ يستمع استماع المصغي لكلامه.

«حسناً، سأغادر المدينة، وسأخبر رئيسي عنك، عندما يحتاج إلى جاسوسٍ جديد فستكون أنت خياره، اطمئن لا تشغل بالك، انقل سريرك وأغراضك من مسكني إلى مسكنك الجديد، خذ أغراضك اليوم، أتسمعني؟ سأنتقل من هناك هذا المساء إلى أحدِ الفنادق، هاك خمسة روبلات ستفيدك، وابقَّ هادئاً، أتعي ما أقوله لك؟».

واصل الجاسوس همسه السريع، عيناه تدوران دوراناً مثيراً للريبة، عندما فُتح الباب وَثَبَ من كرسيه وكأنه يهرب من شيءٍ ما، تنبعثُ منه رائحة دهان، يبدو أنه فقد أهميته الآن.

قال وهو يضع يده على كتف يافسي: «حسناً عش حذراً، لا تثق بأي كان، خاصةً النساء، أدرك قيمة المال، اشترِ بالفضة واحتفظ بالذهب، لا تزدري النحاس، دافع عن نفسك بالحديد كما يقول القوزاق[2] فأنا منهم».

كان صعبًا على يافسي أن يستمع إلى صوته الهادئ، لم يصدق كلمةً واحدةً مما قاله الجاسوس بسبب خوفه منه، شعر كليمكوف بالارتياح عندما ابتعد عنه، شرع ينجز عمله بشغف، محاولًا تناسي ريسا

وجميع الأفكار المزعجة الأخرى، أحسَّ في ذلك اليوم وكأن شعورًا جديدًا قد استقر في قلبه، أحسَّ وكأنه على أعتاب حياة أخرى، حدَّق بإيفانوفيتش المِدْخَنَةِ بأطرافِ عينيه، انحنى المِدْخَنَةِ وحوله سحابةٌ من الدخان الرمادي.

قال يافسي لنفسه: «ما لهذه الأشياء تأتي دفعةً واحدة؟ ريسا قطعت حنجرتها، والآن ربما سيأتي دوري».

لم يستطع يافسي أن يتخيل حياته القادمة؛ لم يفهم ما يريد لنفسه في الواقع، بات ينتظر المساء بفارغ الصبر، ويؤدي عمله بسرعةٍ في محاولة لتقصير الوقت.

حينَ يمشي يافسي في المساء إلى جانب إيفانوفيتش المِدْخَنَةِ ينظرُ الجميعُ إليهما، حتى أن بعضهم يتوقف ليُحدِّقَ فيه، لم يكن سريعًا في مشيته ولكن خطواته كانت طويلة، يتمايل بجسده ويدفع رأسه إلى الأمام كأنه طائرُ الكركي، يضعُ يديه خلف ظهره، سترته المفتوحة تتطاير من على جانبيه كجناحٍ مكسور، يبدو أن اهتمام يافسي بتحركات الرجل العجوز قد فصله عن بقية العالم.

ـ «ما اسمك؟».

ـ «يافسي».

ردَّ عليه الرجل العجوز وهو يُعدِّلُ قبعته بيده الطويلة: «جون اسمٌ جميل، كان لدي ابن يدعى جون».

«أين هو؟».

أجاب الرجل العجوز بهدوء: «هذا ليس من شأنك»، مشى عدة خطوات وأضاف بنفس النبرة: «عندما قلت لك (كان لدي) فأعني أنه لم يُعد موجوداً، لم يُعد موجوداً!»، أخرج شفته السفلى وأمسكها بإصبعه الصغير وقال: «سنرى لمن ستكون الغلبة». أمال رأسه ونظر إلى عيني يافسي وقال بنبرةٍ جدية وهو يهز إصبعه: «سيزورني صديقٌ اليوم، لديّ صديق، ليس من شأنك ما نفعله ونقوله، ليس بالضرورة أن أعرِفَ ما تعرِفُه أنت ولا أريد أن أعرِفَ ما تفعلُه، والأمر نفسه ينطبق عليك بالتأكيد».

أومأ يافسي برأسه موافقًا على ما يقوله العجوز.

«يتوجَّب عليك أن تجعل هذه قاعدة عامة في حياتك، طبّقها على الجميع، لا أحد يعرف شيئًا عنك، هذه هي الطريقة التي يجب أن تعيش بها، ولا تعرف شيئًا عن الآخرين، المعرفةُ طريقٌ زرعه الشيطان لدمار البشر؛ تكمنُ السعادةُ في الجهل بكل بساطة».

استمع يافسي منصتًا لكلام العجوز ومحدقًا في وجهه، لاحظ العجوز احترامه الزائد فقال متذمرًا: «لاحظت أن فيك خصلةً بشرية». سكتَ هُنَيْهَةً وتابع حديثه قائلًا: «ولكن هذه الخصلة موجودةٌ حتى

في الكلاب».

صعدا درجًا خشبيًا ضيقًا به عدة انحناءات ليصلا إلى غرفةٍ ضيقةٍ فوق السقف يعبثُ فيها الظلام الدامس وتغطيها رائحة الغبار، واصل يافسي في إشعال عود الثقاب استجابةً لأمر العجوز محاولًا مرارًا فتح الباب، وبينما كان يشعل أعواد الثقاب التي أحرقت أصابعه أحسَّ بأملٍ جديد يومض في قلبه.

أخيرًا فتح العجوز الباب المغطى بقطعة قماشٍ ممزقةٍ وشعرٍ خشن، دخلا غرفةً بيضاء ضيقة طويلة، سقفها يشبه سقف المقبرة، أمام الباب نافذةٌ عريضة باهتة، في الزاوية يمين المدخل موقدٌ صغير بالكاد يُمكن رؤيته، سريرٌ ممتدٌ على طول الجدار يسار الغرفة يقابله أريكة حمراء صغيرة، رائحة الكافور والأعشاب المجففة تنتشر في الغرفة، فتح العجوز النافذة وأخذ نفسًا عميقًا.

ـ «من الجيد أن تستنشق هواءً نقيًا، سوف تنام على الأريكة، ما هو اسمك؟ لقد نسيت، أليكسي؟».

ـ «يافسي».

ـ «حسنًا».

رفع المصباح وأشار إلى الحائط قائلًا: «هذا ابني جون».

صورةٌ معلقةٌ مرسومةٌ بقلم رصاص رفيع، إطارٌ أبيضٌ نحيلٌ معلقٌ على الحائط بالكاد تلمحه العين، في الصورة وجه شابٍ بملامح صارمة، عريض الجبهة، حاد الأنف، مطبق الشفتين، اهتز المصباحُ في يد الرجل العجوز وتشكَّل ظلٌ على المدخنة، امتلأت الغرفة بصوت أنين خفيف.

أخذ يكرر اسم ابنه «جون»، وضع المصباح مرة أخرى على الطاولة وقال: «أساميا تحملُ الكثير».

أخرج رأسه من النافذة، أخذ يستنشق الهواء مُصدرًا صوتًا صاخبًا، وبينما هو في ذلك طلب من يافسي أن يجهز إبريق السماور[3] دون أن يتلفت إليه.

بينما كان يافسي منشغلًا مع الفرن، دخل رجلٌ أحدب، أزال قبعته القشية بهدوء وأخذ يلوِّح بها على وجهه، قال بصوت جميل: «الجوُ خانقٌ هنا رغم أن الخريف قد حل».

قال العجوز: «ها أنت ذا قد وصلت».

شرعا في التحدث بصوتٍ منخفض وهما يقفان عند النافذة، أدرك يافسي أنهما كانا يتحدثان فأطلق أذنيه ليسترق حديثهما، لكنه لم يستطع معرفة ما يقولانه.

جلس الثلاثة على الطاولة، شرع المِدْخَنَة بسكب الشاي، يختلسُ يافسي النظر بين فينةٍ وأخرى للنظر في وجه الضيف، كان حليق اللحية مثل المِدْخَنَة، مزرق الوجه، كبير الفم، رفيع الشفاه، داكن العينين وكأنهما غارقتين في جبٍ عميقٍ يعلوهما جبهةٌ مسطحة، كان رأسه أصلعًا كبيرًا، ظلّ ينقرُ على الطاولة بأصابعه الطويلة.

قال له المِدْخَنَةُ: «حسنًا، اقرأ».

ـ «من البداية؟».

ـ «نعم».

سحب الأحدبُ مجموعةً من الأوراق من جيب معطفه وفتحها قائلًا: «سأتخطى الألقاب، هذه هي الطريقة التي اتبعها»، سعل الأحدبُ وشرع في القراءة بعينين شبه مغمضتين: «نحن أفرادٌ من الشعبُ لا يعرفهم أحد، بلغنا من العمر ما يؤهلنا لقول هذا، نقع خانعين عند قدميك لنقدم هذا البيان المحزن حول شكاوينا، بيانٌ يخرج من أعماق قلوبِنا؛ قلوبُنا التي حطمتها الحياة ولكن لا زالت مؤمنةً إيمانًا عميقًا بإحسان جلالة الملك وحكمته. ما رأيك؟».

ردَّ عليه العجوز المِدْخَنَةُ: «واصل هيا».

«أنت والد الشعب الروسي، ملجؤهم حين يبحثون عن الرأي الحكيم، أنت القوة الوحيدة على وجه الأرض القادرة...».

قاطعه العجوز قائلًا: «من الأفضل أن تقول القوة الوحيدة على وجه الأرض التي وُهبت... انتظر... انتظر... القوةُ الوحيدةُ القادرةُ على استعادة النظام والعدالة والمحافظةِ عليهما، يجب أن نضع كلمة ثالثة من أجل التناسق في الكلام لكنني لا أعرف أي كلمة».

قال له العجوز بصوتٍ حازمٍ: «احذر عند انتقائك للكلمات، تذكَّر أن الكلمات تحمل معانٍ مختلفة لدى كلِّ أحد».

نظر إليه الأحدب وعدَّل من وضعيةِ نظّارته.

ردَّ عليه: «نعم سأهتم بذلك لاحقًا».

ثم تابع قراءته: «روسيا العظمى تتهاوى، الشر منتشرٌ في بلدنا والرعب يقضُّ مضاجع الناس الذين يتعرضون للاضطهاد بسبب العوز والحاجة، أعمى الحسدُ قلوبهم، الروسُ الصبورون واللطفاء يموتون ويولد عوضًا عنهم قبائلٌ انزاح الخيرُ من قلوبها وأعمى الشرُّ والجشعُ بصيرتها، باتوا أشبه بالذئاب والحيوانات المتوحشة، الإيمان يضمحل، الناس خلف أسوار هذه القلعة يعيشون في تخبُّط، أما أصحاب القلوب المريضة فيستهدفون العُزَّل ويأسرونهم بغوايةٍ من الشيطان، يجرونهم نحو طريق الجريمة ومخالفة قوانينك يا سيِّدنا».

قال العجوز متذمرًا: «سيِّدنا؟ هذا اللقب نطلقه على القساوسة».

ـ «ألم يعجبك البيان؟».

ـ «لا، يجب أن نغير فيه».

ـ «كيف نغيره؟».

ـ «يجب أن نقول له مباشرةً أن هناك ثورةً عامةً تنتشر بين الناس بسبب أوضاعِ الحياة، وأنت الذي اصطفاك الإله لتخرجنا ممَّا نحنُ فيه».

هزَّ الأحدب رأسه مستنكرًا.

ـ «يحق لنا أن نشير إلى بعض الأمور لكن ليس لدينا الحق في تقديم المشورة».

ـ «من هو عدونا، وما هو اسمه؟ الملحد، أم الإشتراكي، أم الثوري، أم الثالوث الأقدس، ذاك الذي ألحق الدمار في أسرنا، وسرق أطفالنا، والداعم الأكبر للمسيح الدجال».

قال الأحدب بنبرةٍ هادئة: «أنت وأنا لا نؤمن بالمسيح الدجال».

ـ «هذا لا يُهِم، نحن نتحدث عن الشعب، إنهم يؤمنون بالمسيح الدجال، ويجب أن نشير إلى مكمن الشر الذي نراه؛ إنها عقيدة الدمار».

ـ «يعرف القيصر هذا الأمر».

ـ «كيف ينبغي عليه أن يعرف هذا الأمر؟ من سيقول له الحقيقة؟ لا أحد يجني الشرَ على أطفاله، وعلى ماذا تعتمد تعاليمهم؟ تعتمدُ على الفقر والاستياء منه بالطبع، علينا أن نقول له على الفور «أنت الأب وأنت الغني، امنح الثروات التي جمعتها لشعبك، هكذا ستقطع جذور الشر، وستحفظ مُلكك»».

سحب الأحدب كتفيه، فتح فمه على مصراعيه وقال: «سيزجون بنَّا في السجنِ إن قلنا هذا»، ثمَّ نظر إلى وجه يافسي وسيِّده.

استمع كليمكوف إلى ما قرأه الأحدب وإلى المحادثة التي دارت بينهما وكأنها من قصص الخيال، شعر أن كلَّ الكلماتِ دخلتْ رأسه وعلقت إلى الأبد في ذاكرته، نظر بعينيه البارزتين إلى الأحدب ومن ثم إلى العجوز، لم يزحْ ناظره حتى رأى نظرة الأحدب القاتمة، كان مفتونًا بالتفاصيل.

قال الأحدب: «هذا الأمر مزعجٌ على أي حال».

قال العجوز ليافسي بنبرةٍ مكتئبة: «ماذا تفعل يا كليمكوف؟».

جفَّ حلق يافسي ولم يستطع الإجابة بسرعة، وقال بعدها: «أستمعُ إليكما».

أدرك من وجوههما أنهما لم يصدقاه، وأنهما كانا خائفين منه، قام من على الطاولة وقال متخبطًا: «لن أخبر أيًا كان عن هذا الحديث، أحتاج إلى هذه المعلومات لنفسي، اسمحا لي أن أستمع إلى حديثكما، لماذا عليَّ أن أستمع؟ كما قلت لك يا كابيتون إيفانوفيتش أن الأمور يجب أن تكون مختلفة».

قال العجوز مشيرًا إلى يافسي: «أترى يا أنتون؟ لا يزال هذا الصبيُ صغيرًا ومع ذلك يقول أن الأمور يجب أن تكون مختلفة، هذا هو مصدر قوة هؤلاء الأطفال».

ردَّ عليه الأحدب: «نعم...نعم».

احمّرَّ وجه يافسي خجلًا وجلس على كرسيه، غمز العجوز ليافسي وانحنى نحوه.

ـ «سأخبرك بما نقوم به؛ نعكف في الوقت الراهن على صياغة رسالةٍ موجهةٍ إلى القيصر، نَطلبُ منه اتخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ تجاه المسؤولين عن الخيانة السياسية، أتفهم ما أقوله؟».

ـ «نعم».

قاطعهما الأحدب قائلًا بنبرةٍ هادئةٍ: «هؤلاء هم عملاءٌ للحكومات الأجنبية وعلى رأسهم إنجلترا، يتلقون رواتبَ ضخمةً لتحريض الشعب الروسي ليثور على الحكومة ويضعف شوكتها، الإنجليز يفعلون ذلك حتى لا نأخذ الهند منهم».

أخذا يتبادلان الحديث مع يافسي واحدًا تلو الآخر؛ ما أن ينتهي أحدهما حتى يبادر الآخر في الحديث، استمع يافسي إليهما استماع المصغي محاولًا تذكر لغتهم الغريبة، ولكن دماغه لم يتحمل هذا الجهد المضني، بدا له أنه على وشكِ إيجاد أمرٍ سيضيئ الحياة كلها ويضيئ دروب الناس ويُبعد عنهم مصائبهم ويزيل غضبهم، كان يافسي سعيدًا بحديث رجلين حكيمين معه ومعاملتهما له معاملة البالغين، شعر بامتنان واحترام عظيمين لهذين الرجلين اللذين يرتديان ملابسَ رثَّة والمنشغلين في نقاشهما حول بناءِ حياةٍ جديدة، أحسَّ يافسي بثقلٍ في رأسه كما لو كان محشواً بالرصاص، أطبق جفنيه بقوة، يُكابد إحساساً مؤلماً يجثم على صدره.

قال له العجوزُ: «اذهب لتستلقي على فراشك وتنام».

قام يافسي مستجيباً لكلام العجوز، خلع ملابسه ورمى بجسده على الأريكة.

تنفستْ ليلةُ الخريف برطوبتها العطرةِ الدافئةِ التي ارتسمت على زجاجِ النافذة، ملايينُ النجوم تسطع في السماء المذْلَهِمَّة وهي تعلو وتعلو، فتيلُ المصباح يومضُ محتضرًا حتَّى تمزَّق نوره إلى أشلاء،

ينحني الرجلان تجاه بعضهما البعض وهُما منشغلان بالقراءةِ وتبادلِ أطراف الحديث بهدوءٍ وجِديَّة، كان كلُ شيءٍ حولهما غامضاً ومُلهماً في الوقت ذاته، كان هذا الحديثُ كفيلاً بجعلِ يافسي مسروراً ومتطلعاً إلى حدوثِ شيءٍ جديد، شيءٍ يجلب الخير معه.

الفصلُ الثاني عشر

بعد مرورِ بضعةِ أيام على إقامة يافسي مع كابيتون إيفانوفيتش بدأ يشعرُ ببعضِ التغيرات تطرأ على حياته؛ فبعد أن كان يتحدث بهدوء واحترام مع رجال الشرطة الذين يعمل معهم في المكتب أصبح ينادي الرجل العجوز بوتينكو بلهجةٍ حادةٍ موبخاً إياه، إذ يقول له في بعض الأحيان: «انظر إلى كل هذا الذباب في محبرتي! كيف يمكنني الكتابة بوجود هذ الذباب في حبري؟».

يدخل الجندي العجوزُ وصدره مليءٌ بالصلبان والميداليات ويقول كالعادة بنبرةٍ غير مبالية: «لدينا أربعٌ وثلاثون محبرةً وهناك الآلاف من الذباب المتعطش للشرب؛ لهذا نراها في الحبر، ماذا بوسعها أن تفعل؟».

أمر يافسي الشرطي العجوز قائلًا: «اغسل محبرتي واسكب فيها حبراً جديداً»، ثم مضى إلى غرفة الملابس؛ أخذ ينظر إلى وجهه أمام المرآة، يتمعَّنُ في وجهه الشاحب الهزيل بأنفه الصغير وشفاهه النحيلة، وضع يده فوق فمه بحثًا عن شعيرات شاربه الذي بدأ ينمو لتوه، نظر إلى عينيه اللتين تكسوهما الحيرةُ والحزنُ وقال محاولًا تعديل خصلات شعره: «يجب أن أحلق شعري وأرتدي طوقًا قماشيًا حول رقبتي الهزيلة».

شَرعَ يافسي في نفسِ الليلة في قصِّ شعره واشترى طوقين، أحسَّ حينها أنه أصبح رجلًا.

كان المِدْخَنَةُ يقظًا ولطيفًا في تعامله مع يافسي، ولكن تراه في أغلب الأحيان يرسمُ ابتسامة سخريةٍ على وجهه مما يثيرُ قلق يافسي، حين يزوره الأحدب تتغير تعابير وجه العجوز وكأنه منهمكٌ بالتفكير بشيءٍ ما، يصبح صوته أكثر صرامة، كان يقاطع الأحدب في أي شيءٍ يقوله، ويعترض على كلامه قائلًا: «الأمر ليس كذلك...ليس كما تقول...أنت لم تصل إلى مستوى حكمتي... عقلك مثل المسدس المهترئ تُلقي أفكارك هنا وهناك، يجب أن تُركز عند إطلاقك للنار حتى تسير الرصاصات في نفس الإتجاه».

هزَّ الأحدب رأسه بإيماءةٍ حزينة وردَّ عليه بصوت غليظٍ قائلًا: «تريث يا هذا؛ أنَّى لنا أن ننجز عملًا جيدًا في يوم واحد! علينا نواصل عملنا ونمضي فيه».

قال العجوز: «الوقت يمضي وشوكة العدو تزداد قوة».

أجابه الأحدب: «بالمناسبة رأيتُ رجلًا طويل القامة مدبب اللحية مشدود العينين يعيش في مكانٍ ليس ببعيدٍ مني، كان يسير بسرعة، سألت عنه دفوركين فأخبرني أن الرجل جاء للبحث عن وظيفة؛ فبعثت على الفور رسالةً إلى قسم الأمن».

قاطع العجوزُ الأحدبَ حديثه وهو يمسح ذراعه وقال: «لا يهمني هذا الأمر، هذا المنزل رطب، ولهذا السبب تنتشر الصراصير فيه؛ لن تتخلص منها بهذه الطريقة، يجب أن يكون المنزل جافًا».

وبينما كان الرجلان يتحدثان في جلستهما قال العجوز: «أنا جندي، وفيما مضى كنت أقود نصف سَرِيّة، أصبحتُ أفهمُ هذه الحياة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، أرى أنه من الضروري أن يكون الجميع علَى درايةٍ تامةٍ بالقوانين واللوائح؛ فالمعرفة بهذه الأمور تؤدي بنا إلى أن نجتمع في الرأي دون خلاف، ما الذي يقف بيننا وبين المعرفة بالقانون؟ الفقر والغباء بالطبع؛ وما الغباء إلا نتيجةٌ من نتائج الفقر، فلِمَ لا يُحاربُ القيصرُ الفقر؟ نريده أن يتصدَّى للفقر الذي هو أساس الحماقةِ البشريةِ ومنبعُ العداء له».

تلقَّف يافسي كلمات العجوز وصدقها، الفقر أساس كلِّ مصيبةٍ من مصائب الإنسان بكلِّ بساطة، وبعده تأتي الأسباب الأخرى كالحسدِ والحقدِ والقسوة، ومن ثَم يأتي الطمعُ وخوفُ الناسِ وقلقُهُم من بعضهم البعض، خطة العجوز كانت بسيطةً أيضًا، قال إنَّ القيصر غنيٌّ وشعبه يقبع تحت خطِ الفقر، كُلُّ ما يتوجب على القيصر فعله هو منح ثرواته للشعب الذين سيقنعون ويصبحون مواطنين صالحين.

تغيَّرت أفكارُ يافسي تجاه الناس؛ صحيحٌ أنه ظلَّ مستعدًا لخدمة الآخرين مثلما كان سابقًا لكنه أصبح أكثر صرامة، بدأ يتعامل مع الآخرين بحذر، ينظرُ إليهم نظرةَ من سَبَرَ أغوارَ الحياةِ واهْتدى إلى طريق السلام والطمأنينة.

شعر يافسي بحاجةٍ تطرقُ أبواب قلبه للتباهي بمعرفته التي اكتسبها، ففي يومٍ من الأيام وبينما كان يتناول الغداء في المقهى مع ياكوف زاروبين أخذ يحكي بفخرٍ كلَّ ما سمعه مِّن الرجل العجوز وصديقه الأحدب.

رمشتْ عينا زاروبين الضيقة، تململ على مقعده، أخذ يحكُّ شعره بأصابع كلتا يديه وقال متعجبًا: «يا إلهي! هذا صحيح! إنك لتقول الحق! لديه الآلاف المؤلفة، ونحن نقبع في عذابنا هذا، من علمك كل هذا الكلام؟».

أجاب يافسي إجابة الواثق من نفسه: «لا أحد، هذه أفكاري».

ـ «قل لي الحقيقة يا هذا، أين سمعت هذا الكلام؟».

ـ «لماذا لا تصدقني، هذا الكلامُ من بنات أفكاري».

نظر إليه ياكوف نظرةً تشي برضاه وقال: «إذا كان الأمر كذلك فلستَ بتلك الدرجة من الغباء؛ لكني أعتقد أنك تكذب».

شعر يافسي بالإهانة من قوله وردَّ عليه: «الأمر سيانٌ عندي أصدقتني أم لا، ولكنك الخاسر إن لم تصدقني».

ردّ عليه ياكوف وقد بدت نواجذه من شدةِ الضحك وهو يضرب إحدى يديه بالأخرى قائلًا: «أنا الخاسر؟».

بعد يومين دخل عليهم مساعد القائد كوموف بصحبةِ رجلٍ رماديِ العينِ مستديرِ الرأسِ مُصفرِّ الوجه، ذهبا نحو طاولة يافسي.

قال القائد ليافسي بنبرةٍ تُنبئ بحدوث أمرٍ جلل: «كليمكوف جهز نفسك للذهاب إلى قسم الأمن».

ـ «هل خزانة طاولتك مقفلة؟».

ـ «لا».

همَّ يافسي بالوقوف لكن ساقه كانت ترتعدُ خوفًا، خرَّ على كرسيه، اقترب الرجل ذو الرأس المستدير وقال له بنبرةٍ جافة: «اسمح لي»، ثُمَّ فتح خزانة الطاولة وأخرج الأوراق.

كان يافسي في تلك اللحظات ضعيفًا غير قادرٍ على استيعاب ما يحصل حوله، استعاد حواسه في غرفةٍ شبه مظلمةٍ وهو يجلس على طاولةٍ مغطّاة بقماشٍ أخضر، تكدَّس الضيقُ في صدره واعتراه الحزنُ والكرب، الأرض كأنها تتحرك تحت قدميه، جدرانُ الغرفة تتحرك أمام ناظريه كما لو أنه يشاهد أضواء الشفقِ القطبي[4]، ظهر أمام الطاولة وجهُ رجلٍ أبيضٍ له لحيةٌ سوداء كثَّةٌ يرتدي نظاراتٍ زرقاء لامعة، أخذ يافسي يُمعن النظر في زجاج النظارات ولونها الأزرق الذي يشعُّ في الظلام، جذبَهُ بريقها وكأنها مغناطيس يمتص الدم من عروقه، قبل أن يتوجها إليه بالسؤال أخبرهما يافسي عن حديث العجوز ورفيقه الأحدب؛ فقد استوعب حديثهما وأخذ يسرده بالتفصيل، وكأن قلبه مغطى بجلدٍ رقيق وشرع في انتزاعه.

قاطعه صوتٌ عالٍ يصمُّ الآذان قائلًا: «حسنًا، حسنًا، هذان المغفلان يقولان أن الإمبراطور القيصر فاشلٌ في كلِّ شيء؟».

«نعم».

مدَّ الرجل ذو النظارات الزرقاء يده ببطء، ووضع الهاتف على أذنه وقال بنبرةٍ مرحة: «بلكين! اسمعني يا زميلي، نجري في الوقت الحالي بحثًا ليليًا في غرفة اثنين من الأوغاد، ألقِ القبض عليهما؛ الأول يعمل موظفًا في قسم المحفوظات يُدعى كابيتون روزوف، والآخر موظف في ديوان الخزانة واسمه أنطون دراجين...ماذا قلت؟ حسنًا، حسنًا، بالطبع».

أمسك يافسي بحافة الطاولة بيده، أحسَّ بألم في عينيه.

قال الرجل ذو اللحية السوداء وهو يهمُّ بالجلوس على الكرسي: «هكذا إذن يا صديقي». أخذ يُرتِّب لحيته بكلتا يديه، يلعب بقلمه ويضعه على الطاولة، يدخل يديه في جيوب بنطاله، ظل صامتًا لفترة

طويلة ثم سأل بنبرةٍ حادَّة: «ماذا أفعل معك الآن؟».

همس يافسي قائلًا: «سامحني».

أخذ الرجل ذو اللحية السوداء يُفكر وتجاهل ردَّ يافسي وقال: «يبدو أنني سمعت هذا الاسم في مكان ما».

كرر يافسي قوله: «سامحني».

ـ «هل تشعر أنك مذنب؟».

ـ «نعم للغاية».

ـ «جيد، ما هو الذي تشعر بالذنب حياله؟».

دخل يافسي كليمكوف في صمتٍ مطبق، شعر كما لو أن الرجل ذو اللحية السوداء لن يسمح له أبدًا بمغادرة الغرفة.

«لا تعرف الإجابة؟ فكِّر!».

أخذ كليمكوف نفسًا عميقًا، وبدأ يسرد قصة ريسا وكيف خنقت الرجل العجوز.

ردَّ عليه ذو النظارة الزرقاء وهو يتثاءب غير مبالٍ: «الرجل اسمه لوكين؟ لهذا السبب اسمك مألوف بالنسبة لي».

توجَه الرجلُ تلقاء يافسي، رفع ذقنه بإصبعه، نظر إلى وجهه لبضع ثوان وقرع الجرس؛ فإذا بصوت قدم أحدهم عند الباب فدخل رجلٌ عظيم الخلقة مفتول العضلات، أخذ ينظر إلى يافسي وهو يُحرك أصابعه الحمراء كأنه يودُّ الانقضاض على فريسته بمخالبه.

«خذه من هنا يا سيميونوف».

ردَّ عليه الرجل الضخم سيميونوف بصوتٍ أجوف قائلًا: «إلى الزنزانة عند الزاوية؟».

«نعم».

قال سيميونوف ليافسي: «تعال معي».

أحسَّ يافسي كما لو أنه على وشك أن يجثو على ركبتيه، وحين بدأ يحني ساقيه باغته سيميونوف وجعله تحت ذراعيه، سحبه عبر الممر الطويل ونزل به من الدرج الحجري إلى الأسفل.

قال سيميونوف ليافسي وهو يدخله عبر بابٍ صغير: «ما الأمر أيها الشقي؟ أخائفٌ أنت؟ أنت أشبه بالعنكبوت؛ فلا وجه لك، وجلدك يكاد يختفي، ولكنك متمرد!».

أصابت هذه الكلمات يافسي في مقتل؛ فدخل من الباب ويداه ممدودتان حتى اصطدم بالجدار، فجأةً سمع قرع الباب الحديدي خلفه؛ فجلس القرفصاء ووضع يديه على ركبتيه ورفع ركبتيه إلى أعلى رأسه، لم ينبس بكلمة، بدا له أنه سيموت حالًا، قفز فجأةً وأخذ يركض حول الغرفة كفأرٍ مذعور، تلمَّس ما حوله فوجد لوحةً مغطاةً بغطاءٍ خشن وطاولةً وكرسي، ركض نحو الباب وتلمَّسه بيديه، رأى في الحائط أمامه نافذةً مربعةً صغيرةً فهرع نحوها فوجد أنها تحت الأرض، كانت المنطقة الواقعة بين الزنزانةِ والجدارِ الخارجي مغطاةً بأعمدةٍ موضوعةٍ أفقيًا يدخل الثلج بينها وتجتمع القاذورات بداخلها، اتجه يافسي نحو الباب، وضع جبهته عليه وأخذ يهمس والحزن يعتريه: «سامحني وأخرجني من هنا».

ثم سقط على الأرض، فقد وعيه وغرق في بحرٍ من اليأس لا قاع له.

الفصلُ الثالث عشر

تمضي الأيامُ والليالي الكالحةُ المدلهمةُ، تَدُسُّ السمَّ في قلبِ يافسي شيئًا فشيئًا، تنهشُ روحه، تُدخل الوهن في قلبه، يدخلون عليه والصمتُ الأخرق مسيطرٌ عليهم، صمتٌ يحمل تهديداتٍ وشؤمًا، لم يخبره أحد عن موعد نهاية عذاباته هذه، عمَّ الصمتُ والسكون روح يافسي، لم يجرؤ على التفكير أو بالأحرى لم يكن قادرًا على ذلك، حين يخرج من زنزانته يمشي محاولًا ألّا يصدر صوتًا بنعله.

ذهبوا به بعد مرور عشرةِ أيام على حبسه إلى الرجل ذي النظارات الزرقاء فيليب فيليبوفيتش ومعه الرجل الضخم الذي زجَّ به فيَ السجن في المرة الأولى.

قال له وهو يضرب شفته السفلى الحمراء بأصابعه: «لم يعجبك السجن يا يافسي كليمكوف؟».

كان صوته العالي الغريب أشبه بصوت أحدهم وهو يضحك بداخله، ينعكسُ ضوءُ المصباح على نظاراته الزرقاء فيرسلُ أشعةً قويةً إلى صدر يافسي الخاوي، يصبح يافسي عند هذه اللحظة مستعدًا للقيام بأي شيءٍ بُغيةَ وضع حدٍ لهذه الأيام الكئيبة التي أغرقته في ظلامٍ دامس وكادت تصيبه بالجنون.

قال له بنبرةٍ هادئة: «دعني أذهب من هنا».

ضحك وضرب شفته بإصبعه وقال: «نعم سأخرجك وأفعل لك أكثر من ذلك؛ سأصحبك للعمل معنا، من الآن فصاعدًا ستَزُجُ بالآخرين في المكان الذي أخذتك منه للتو؛ في المكان ذاته وفي غرفٍ صغيرة أخرى أفضل منها».

انحنى كليمكوف شكرًا له.

تابع حديثه وقال: «لقد توسَّط لك الراحل لوكين؛ وعرفانًا منا لخدمته وإخلاصه سنعطيك وظيفةً معنا وستحصل في المقابل على خمسة وعشرين روبلًا شهريًا».

دخلت كلماته صدر يافسي واخترقت ذكرياته، اصطفت بداخله كلمةً كلمةً كما لو أنها حُفرت بداخله؛ فانحنى مرةً أخرى له.

«هذا الرجل بيوتر بتروفيتش سيكون رئيسك ومعلمك، يجب أن تفعل كلَّ ما يقوله لك، هل فهمت ما أقوله؟»، التفت إلى الرجل الآخر وقال: «لذلك فقد قررنا أن يعيش معك».

ردّ يافسي بصوتٍ عالٍ وقال: «جيد جدًا، هذا الأمر أفضل بالنسبة لي».

عاود الرجل التحدث مع يافسي بصوتٍ خافت وقال له كلامًا هدَّأ من روعه وبعث في روحه الأمل؛ حاول يافسي التقاط كلماته وتتبع حركة شفاهه الحمراء المختبئة تحت شواربه.

«تذكَر، ستكون الآن حارسًا من حراسِ القيصر المقدَّس وستصدَّ من يحاول اغتياله أو إضعاف شوكته، واضح؟».

قال يافسي بنبرةٍ هادئة: «شكرًا لك».

وضع بيوتر بتروفيتش قبعته على جبينه وقال على عجالة: «سأشرح له كل شيء، لقد حان وقت الذهاب».

«حسنًا اذهبا من هنا... نريدُ منك عملًا جيدًا يا كليمكوف ولن ترى إلا ما يرضيك ويُسعدك، ولا تنسى أنك شاركت في اغتيال بائع الكتب المستعملة راسبوبوف، لقد اعترفت بذلك بنفسك، ودونت شهادتك كتابيًا. أتعي ما أقوله لك؟ حسنًا إلى اللقاء».

أومأ فيليب فيليبوفيتش برأسه وتحركت معه لحيته الكثَّة التي بدت وكأنها اقتُطعت من قطعة خشب، بعدها مدَّ يده البيضاء الضخمة إلى يافسي وبها عددٌ من الخواتم الذهبية على أصابعه القصيرة.

أغلق يافسي عينيه وقال: «يا لك من رجلٍ مخيف!».

هتف فيليب فيليبوفيتش بصوتٍ خفيفٍ وضحك ضحكةً باهتةً وقال: «ليس هناك ما يخيفك من الآن فصاعدًا، أنت الآن خادم القيصر؛ يتعين عليك أن تكون واثقًا من نفسك وجريئًا؛ فأنت تقف على أرضٍ صلبة، أتعي ما أقوله لك؟».

عندما خرج يافسي إلى الشارع لم يستطع السيطرة على أنفاسه، فأخذ يترنح وكاد أن يسقط، نظر بيوتر حوله وهو يرفع طوق معطفه وأوقف سيارة أجرة.

قال بنبرةٍ منخفضة: «سنذهب إلى المنزل...إلى منزلي».

نظر إليه يافسي وكاد أن يبكي، نظر إلى وجه بيوتر الناعم الذي نبت عليه شارب صغير خفيف.

سأله بيوتر بنبرةٍ منزعجة: «لماذا تنظر إليَّ بهذه الطريقة؟».

نكَّس يافسي رأسه محاولًا عدم النظر إلى وجه سيِّده الجديد على الرغم من رغبته في ذلك، لم يتحدث بيوتر معه طوال الرحلة، لكنه كان منشغلًا في حساب شيء ما باستخدام أصابعه؛ فكان يثنيهم واحدًا تلو الآخر ويقطِّبُ حاجبيه ويعضُّ شفتيه، يقول للسائق من حينٍ لآخر غاضبًا: «هيَّا أسرع!».

كان الجو باردًا، المطر يتساقط، أصواتٌ عالية تنتشر في الطريق، بدا ليافسي أن السائق يتدحرجُ بسرعةٍ على جبلٍ شديدِ الانحدار متجهًا نحو وادٍ قذرٍ أسود.

توقفوا عند منزلٍ كبيرٍ من ثلاثة طوابق، كانت معظم النوافذ مظلمةَ ومعتمةَ، لم يظهر سوى لمعانٌ أصفر بسيط يخرجُ منَ المصابيح في الداخل، مياه الأمطار تنهمر من السقف وكأنها تنتحب.

قال بيوتر ليافسي: «هيَّا اصعد عبر السلالم».

صعدا السلالم وسارا عبر ممرٍ طويلٍ خلف عدد من الأبواب البيضاء، ظنّ يافسي أن هذا المكان سجنٌ، لكن الرائحة القوية للبصَل المقلي والدهان الأسود لم تشِ بوجودهم في السجن، فتح بيوتر أحد الأبواب البيضاء، أشعل مصباحين في الغرفة، تفحَّص بعناية أركان الغرفة.

قال بيوتر ليافسي وهو يخلع قبعته ومعطفه على عجل: «إذا سألك أحدهم من أنت فقل أنك ابن عمي جئت من مدينة تسارسكوي سيلو[5] للبحث عن وظيفة، تذكر...لا تحاول الهرب».

على وجه بيوتر ترتسم ملامحٌ تُظهر مدى انشغال باله، وتُخيِّمُ علاماتُ الكآبة على أطراف عينيه، حديثه غير مترابط، شفتاه الرفيعتان ترتعشان.

أخرج رأسه من الباب ونادى قائلًا: «إيفان، أحضر الإبريق لنحضِّر الشاي».

تقوقع يافسي في ركنٍ من أركان الغرفة وأخذ ينظر حوله خائفًا وجلًا لا يدري ما سيحدث معه.

قال له الجاسوس: «اخلع معطفك واجلس، ستكون الغرفة المجاورة غرفتك».

أخرج من جيبه دفتر ملاحظات ومجموعة من أوراق اللعب ووضعها على الطاولة، تابع حديثه معه دون أن ينظر إليه: «تدرك تمامًا أن عملنا سري، يجب علينا أن نبقى مُتَخفين، وإلا فسيقتلوننا كما قتلوا لوكين».

سأله يافسي بنبرةٍ هادئة: «هل قُتل؟».

ردَّ عليه بيوتر بنبرةٍ قلقة: «نعم».

مسح جبهته وأخذ ينظر إلى أوراق اللعب متمتمًا وهو يدوّن في دفتره دون أن يرفع رأسه: «سألعب على ألف ومائتان وأربعة عشر، لدي هذه الأوراق: الخال وسبعة الهاس وميم الهاس[6]».

بدأ بعدِّ الأوراق وأخذ يتمتم تمتمةً مبهمة ويُفكِّر في أمرٍ ما، وفجأةً بدأ يحدّث يافسي بسرعةٍ قائلًا: «الثُوَّار أعداءٌ للقيصر والرب...عشرة ديمن...ثلاثة...ألغلام...اشتراهم الألمان من أجل جلب الخراب إلى روسيا، نحن الروس بدأنا في فعل كل شيء بأنفسنا، أما الألمان...الباشا... خمسة وتسعة...يا للهول! يا للصدفة إنها المرة السادسة عشرة!».

فجأةً أصبح بيوتر بتروفيتش مبتهجًا، عيناه تلمعان، علامات الرضى مرتسمةٌ على محياه.

استدرك كلامه وقال ليافسي: «ماذا كنت أقول؟».

«كنت تتحدث عن الألمان».

«أوه نعم! الألمان الجشعون، إنهم أعداءُ الشعب الروسي، يودون لو أنهم يستطيعون قهرنا، يريدون منا أن نشتري جميع بضائعنا منهم ونمنحهم خبزنا؛ ليس لدى الألمان خبز...الميم...ورقتان من الهاس، عشرة أوراق من الكلفس... وعشرة من...».

أخذ يصوِّب نظره نحو السقف وعيناه مشدودتان، تنهَّد وخلط الأوراق ثم قال: «عمومًا، جميع الأجانب يحترقون حسدًا على ثروات روسيا وقوتها... سألعب على ألف ومئتان وخمسة عشر...يريدون إشعال ثورة في بلدنا، وإلغاء حكم القياصرة...لدي ثلاثة من أوراق الخال...ينشرون موظفيهم في كل مكانٍ ويجعلون حكامهم يراقبوننا من أجل سرقتنا وتدميرنا، أنت لا تريد أن يحدث هذا الأمر أليس كذلك؟».

قال يافسي الذي لم يفهم شيئًا مما سمعه وهو يتابع حركات أصابعه السريعة وتقليب أوراق اللعب: «نعم لا أريد أن يحدث هذا».

علَّق بيوتر على ردِّ يافسي بنبرةٍ جديّة: «بالطبع لا أحد يريد ذلك». صفَّ أوراق اللعب مرة أخرى وضرب خديه وقال: «أنت روسي ولا تريد لذلك...أن يحدث...لذا يتعين عليك محاربة الثُوَّار عملاء الأجانب، والدفاع عن حرية روسيا وعن القيصر وحياته. هذا كلُّ ما أودُّ قوله، هل استوعبت ما قلته؟».

ـ «نعم فهمت».

ـ «سأخبرك لاحقًا عن طبيعة عملك، ما أودّ قوله لك الآن ألَّا تجعل للكسل مكانًا في عملك، نفذ جميع الأوامر بدقة، لا تكتفِ بالنظر بعينيك الأماميتين بل اجعل لك عيونًا من خلفك فغيابها سيجلب لك المصائب من كلِّ حدبٍ وصوب... الهاس...سبعة أوراق ديمن...عشرة أوراق ميم».

أحدهم يطرق الباب.

قال بيوتر: «افتح الباب»، فإذا برجلٍ ذي شعرٍ أحمرٍ مجعدٍ يحملُ إبريق الشاي في صينية.

ـ «هذا أنت يا إيفان، هذا ابن عمي، سوف يعيش هنا معي، جهِّز له الغرفة المجاورة».

ـ «حاضر سيِّدي، بالمناسبة لقد كان السيِّد تشيزوف هنا».

ـ «أكان سكرانًا؟».

ـ «نعم قليلًا، أراد أن يأتي».

قال الجاسوس بعد أن غادر الخادم الغرفة: «هيا جهِّز الشاي يا يافسي، أحضر كوبًا واشرب بعض الشاي، كم كان راتبك في قسم الشرطة؟».

ـ «تسعة روبل في الشهر».

ـ «ألديك مالٌ الآن؟».

ـ «لا مال عندي».

ـ «يجب أن يكون لديك بعض المال، يجب عليك أن تطلب بدلةً رسميةً لك فواحدةٌ لن تكفيك، يجب أن تراقب الجميع دون أن يلاحظك أحد».

شرع مرة أخرى في التمتمة وتقليب أوراق اللعب، أثناء تقديمه للشاي حاول يافسي استرجاع أحداث اليوم الغريبة لكنه لم ينجح، أحسَّ وكأن المرض قد تمكّن من جسده، برودةٌ تدبُّ في جسده ويداه ترتعشان، أراد أن يَنْزوي في ركنٍ ويغمض عينيه، ويستلقي بلا حراكٍ لفترةٍ طويلة، رأسه أصبح مليئًا بتلكمُ الكلمات والعبارات التي سمعها.

سأله فيليب فيليبوفيتش بنبرةٍ رقيقةٍ قائلًا: «ما هو الذنب الذي اقترفتَه؟».

ردَّ عليه الجاسوس بيوتر قائلًا: «لقد قتلوا دوريمدونت لوكين»، بعدها ضحك مبتهجًا وهو يمسك ورق اللعب ويقول: «اللعبةُ السادسة عشرة مجددًا!»

عندها تذكر ما قالته له ريسا في إحدى الأيام: «ستخنق نفسك بهذه الحياة».

أحدهم يقرع الباب بقوة؛ فإذا ببيوتر يرفع رأسه ويقول: «ساشا، أهذا أنت؟».

أجاب بصوتٍ غاضب: «نعم افتح الباب».

عندما فتح يافسي الباب تراءى أمامه رجلٌ طويل القامة، يتمايل بأرجُله الطويلة، شاربه الأسود يصل إلى أسفل ذقنه، شعره ذقنه صلبٌ كشعر الحصان لدرجة أن كلَّ خصلةٍ تبتعد عن الأخرى، عندما خلع قبعته ظهر رأسه الأصلع، ألقى القبعة على السرير، وفرك وجهه بقوةٍ بكلتا يديه.

قال له بيوتر: «لماذا رميت قبعتك الرطبة على سريري؟».

ردَّ الضيف وكأنه يتحدث من أنفه: «اذهب إلى الجحيم أنت وسريرك!».

قال بيوتر ليافسي: «قُم وضع المعطف على الشمَّاعة».

جلس الضيف وهو يمُدُ ساقيه الطويلتين ويشعل سيجارة وقال: «من هذا...؟».

قال بيوتر: «إنه ابن عمي يافسي... هيَّا أحضر بعض الشاي».

ردَّ الضيف: «كلنا أبناء عم فبشرتنا واحدة، هل لديك نبيذ؟».

طلب بيوتر من كليمكوف إحضار زجاجة من النبيذ وبعض المرطبات، أحضر يافسي ما طلبه بيوتر ثم جلس ووضع إبريق الشاي بين وجهه ووجه الزائر حتى لا يراه.

سأل الضيف بيوتر وهو يومأ برأسه مشيرًا إلى ورق اللعب: «كيف حال العمل معك أيها الغشاش؟».

قام بيوتر من كرسيه وقال بحماس قبل أن يستقيم واقفًا: «لقد اكتشفت السر! لقد اكتشفت السر!»

«أي سرٍ هذا أيها المجنون؟».

أمسك بيوتر بدفتر الملاحظات ووضع أصابعه عليه وقال متحمسًا: «انظر يا ساشا، لقد فعلتها للمرةِ السادسة عشرة، أتعلم أهمية ذلك؟ لعبت على ألف ومائتين وأربعة عشر، وقد تكررت أوراق اللعب كثيرًا؛ لذا سألعب هذه المرة على ألفين وسبعمائة وأربعة، هل فهمتني؟ الأمر الذي يعني أن فرص الفوز ستتضاعف إلى اثنين وخمسين مرة، سأكرر اللعب ثلاث عشرة مرة وفقًا لعدد الأوراق في كلِّ لونٍ وسيصبح المجموع خمسةٌ وثلاثون ألفًا ومائة واثنان وخمسون، سأكرر اللعب مرةً أخرى على هذا الرقم أربع مرات حسب عدد الألوان، وسيصل الرقم الذي سأحصل عليه إلى مائة وأربعون ألف وستمائة وثمانية».

قال له الضيف وكأنه يتحدَّث من أنفه وهو يهز رأسه ويطبق شفتيه بسخرية: «أنت مجنون!».

ـ «لماذا تقول هذا يا ساشا؟ اشرح لي!».

ـ «ستكون لعبتك مكشوفة للآخرين! فكِّر في الأمر! سأريك طريقتي...».

أدنى المذكرة من وجهه وبدأ في القراءة بسرعة: «سيكون لدي ورقة خال السبيت، وسبعة من الديمن، وعشرة من الميم، وسيكون لدى اللاعب الأول باشا الهاس وورقة الخمسة والعشرة من الديمن، أما اللاعب الثاني فسيكون لديه سبعة هاس والميم، واللاعب الثالث سيكون لديه باشا الديمن واثنان من الهاس وعشرة من الميم».

ارتعدت يداه، جسمه يتصبب عرقًا، أصبح وجهه لطيفًا.

كليمكوف يراقب وجه الضيف من خلف إبريق الشاي فإذا به يرى عيونًا كبيرةً نبتت على بياضها عروقٌ حمراء، وأنفٌ كبيرٌ صلبٌ يبدو عليه الانتفاخ، ومستعمرةٌ من البثور تنتشر على طول جبهته مثل قماشٍ موضوعٍ على جبهة ميت، رائحةٌ كريهةٌ تنبعث منه، أعادت رؤية هذا الرجل ذاكرة يافسي إلى الوراء حيث تلك الأحداث الأليمة التي مرت به.

وضع بيوتر الدفتر على صدره ولوَّح بيده في الهواء وقال متحمسًا: «سأكون حينها قادرًا على اللعب دون أن أخسر، سيخسرون مئات الآلاف بل الملايين ولن أضطر إلى أن أغش في اللعب ولن أضطر إلى الاحتيال، سنتَّبع قانون اللعبة اتباعًا صارمًا».

ضرب صدره ضربةً شديدة بقبضةِ يده حتى بدأ في السعال، ثم جلس على كرسيه وضحك ضحكةً هادئة.

بعدها صرخ الضيف ساشا وألقى سيجارته على الأرض قائلًا: «أين النبيذ؟».

صاح بيوتر قائلًا «هيَّا يا يافسي اذهب وقل...»، لم يكمل بيوتر حديثه وقاطعه صوت طرقات الباب.

عاد بيوتر يخاطب الضيف قائلًا وهو يبتسم: «هل ستشرب مرة أخرى؟».

مدَّ ساشا يده لزجاجة النبيذ وقال: «لم أبدأ بعد ولكني سأشرب بعد لحظات».

ـ «أنت مريض والنبيذ سيُضر بصحتك».

ـ «النبيذ مضرةٌ للأصحاء أيضًا، النبيذ والخيال مضران، وإني أراك ستصبح أبلهًا عمَّا قريب».

ـ «لن أصبح أبلهًا لا تقلق عليَّ».

ـ «بل ستصبح كذلك؛ معرفتي بالحساب تقول لي أنك في طريق يؤدي بك إلى الحماقة».

ـ «كل شخصٍ منَّا لديه حساباته الخاصة».

ردَّ عليه ساشا وهو يحتسي كوبًا من النبيذ ويشمُّ قطعة خبز: «اخرس!».

ما إن انتهى من الكأسِ الأول حتى بدأ يشرب كأسًا آخر، ثمَّ نكَّس رأسه ووضع يديه على ركبتيه وقال: «لقد تحدثتُ اليوم إلى الجنرال مجددًا، قدمت اقتراحًا إليه فقلت «امنحني الموارد التي أحتاجها وسأستطيع تمييز الخبيث من الطيب؛ سأفتتح ناديًا أدبيًا وسأوقِعُ بأولئك الأوغاد» انتفخت وجنتاه وضرب بطنه وقال لي «أيها المغفل! أعلمُ ما يتوجب عليَّ فعله وكيف أقوم بعملي». نعم يعرف كل شيء، لكنه لا يعرف أن عشيقته رقصت أمام فون روتزن، ولا يعرف أن ابنته أجهضت حملها».

انتهى من كأس النبيذ الثاني وبدأ في شرب الكأس الثالث وتابع حديثه: «جميعُ من حولنا أوغادٌ ومخادعون، كيف نستطيع أن نعيش هذه الحياة! في إحدى المرات أصدر موسى أوامره بقتل 23000 من المصابين بمرض الزهري، في وقتٍ لم يكن فيه الكثير من الناس؛ آهٍ لو أن لي قوةً فسأبيد مليونًا من البشر».

قال له بيوتر مبتسمًا: «لمَ لا تبدأ بنفسك أولا؟».

أخذ ساشا نفسًا عميقًا دون أن يجيبه كما لو أنَّ نوبة هذيانٍ أصابته.

ثمَّ قال: «هؤلاء الليبراليون، والجنرالات، والثوريون، والعاهرات...وددتُ لو أحفر خندقًا كبيرًا وأحرقهم فيه، أريدُ أن أغمر الأرض بالدم، وأطعمها برماد الجثث، هذا سيجعلها أرضًا خصبة، المزارعون ذوي البطون الممتلئة سينتخبون مسؤولين مُشبَعي البطون أمثالهم؛ فالإنسان حاله كحال الحيوان؛ فهو بحاجةٍ إلى مراعي غنية وحقولٍ خصبة، يجب أن نسوي هذه المدن بالأرض، يجب أن ندمِّر هذه المظاهر المُتْرفة، يجب إبادة كلّ ما يعيقنا من أن نعيش حياة الخراف والدِيكة، فليذهبوا إلى الجحيم!».

اخترقت كلماته الثقيلة المقززة قلب يافسي واتخذت لها مكانًا فيه؛ كلماتٌ كانت صعبةً على يافسي وخطرةً عليه في الوقت ذاته، بدأ يحدث نفسه قائلًا: «سوف يستدعونني على حين غرَّة ويسألوني عمَّا قاله، ربما كان يتحدث بهذا الحديث ليوقعني في الفخ ثم يقبضون عليّ».

بدأ يرتعش ويتحرك يمنةً ويسرةً حتى قال لبيوتر بنبرةٍ هادئة: «هل يمكنني الذهاب؟».

– «إلى أين؟».

– «إلى غرفتي».

– «نعم هيّا اذهب».

قال له ساشا دون أن يرفع رأسه: «هل أصابك الخوفُ أيها الحمار! هيا تحرَّك».

خلع يافسي ملابسه دون أن يصدر أيّ ضجةٍ حتَّى أنه لم يفتح المصباح، أخذ يتلمس الفراش في الظلام، ولفَّ نفسه بغطاءٍ باردٍ ورطب، أراد ألَّا يرى شيئًا، ولا يسمع حسًا، أراد أن ينزوي في مكانٍ لا يراه فيه أحد، كلمات ساشا علقت في ذاكرته، حتى أنه ظنَّ أنه يشم رائحة ساشا، تخيَّل تلك الحبوب الحمراء على جبينه الأصفر، علامات التعجب تتدفق من فتحة الباب واحدةً تلو الأخرى.

قال لنفسه: «أنا فلاح وأعرف ما يتعين عليَّ فعله».

لم يكن يافسي يرغب في ذلك لكنه عاود الاستماع إلى حديثهما بإصغاء، أنهك التفكير دماغه وهو يحاول تذكُّر شخصٍ يشبه هذا الرجل المليء بالحقد رغم أنه يخشى تذكره.

أرخى الليل سدوله، بسط البردُ جناحيه في المكان، ينعكس الضوء خلف الزجاج الأسود، يختفي ويعاود الظهور مرةً أخرى، يضجُّ المكان بصوتٍ مثل صوت الكشط، المطرُ تذروه الرياح، يضربُ بقطراته الثقيلة زجاج النوافذ.

اختلى يافسي مع نفسه والحزنُ يعتريه فقال: «هل يجب عليَّ أن أذهب إلى الدير؟»، فإذا به يتذكر الإله الذي نادرًا ما يسمع اسمه في حياته في المدينة، لم يكن يفكر به طيل تلك السنين؛ بات قلبه

مسكنًا للخوف والمهانة، ليس فيه مكانٌ لرحمةٍ قد تتنزل عليه من السماء، باغَتَهُ وميض الأمل هذا فبدأ يشتعِّلُ في قلبه، ملأ صدره ببرودةٍ غير معتادة، أخمد يأسه الذي عاش أسيرًا له، وثب من السرير وجثا على ركبتيه وضغط يديه بقوة على صدره، أشاح ببصره تلقاء الزاوية المظلمة من الغرفة، أغلق عينيه، بقى على حاله دون أن ينبس بكلمة، أخذ يستمع إلى ضربات قلبه؛ لكنه كان متعبًا للغاية والبرد يوخز جلده بآلافٍ من الإبر الحادة، فارتجف واستلقى مجددًا على السرير ليغُطَّ في نومٍ عميق.

الفصلُ الرابع عشر

حين استيقظ يافسي من نومه رأى أنه ظلَّ نائمًا في الزاوية التي أدى فيها صلاته الصامتة، لم يرَ أية صورٍ مُقدَّسةٍ معلقةٍ على الحائط، بل كان هناك صورتان؛ إحداهما لصيادٍ يحمل ريشةً خضراء على قبعته وهو يُقبِّلُ فتاةً بدينة، والأخرى لامرأةٍ منسدلة الشعرِ تحملُ زهرةً في يدها.

تنهَّد وهو ينظر إلى غرفته دون أن يكترث لما يراه، غسل وجهه، ارتدى ملابسه، جلس عند النافذة، القاذوراتُ تنتشر أينما صوَّبَ بصره؛ في الشارع والأرصفة والمنازل، تمشي الخيول بخطى متثاقلةٍ وهي تهزُّ رأسها، يجلسُ الرجالُ على العربات وأجسادهم تهتزُّ وكأنهم مسمارٌ يوشكُ أن يخرج من قطعةِ خشب، يسيرُ الناس على عجلٍ كعادتهم لكن الطين الرطب يُخفف من عجلهم ويُقلل من خطورتهم المعتادة.

أحسَّ يافسي بالجوع؛ لكنه لم يكن يعلم ما إذا كان باستطاعته طلب الشاي والخبز، فجلس بلا حراك كصخرةٍ صمَّاء حتى سمِعَ أحدهُم يطرق الحائط فتوجه إلى باب غرفة بيوتر.

سأله الجاسوس الذي كان مستلقيًا على السرير: «هل تناولت الشاي؟».

ـ «ليس بعد».

ـ «لماذا لم تطلبه؟».

تابع بيوتر حديثه مع يافسي وهو يُنزلِ قدميه العاريتين من فوق السرير وينظر إلى أصابعه ويمُدُّها: «سنشرب الشاي ثم سترافقني، سأُريكَ رجلًا، عليك أن تتبعه، يجب أن تُلازمه حيثُ يذهب، واضح؟ راقب الوقت الذي يدخل فيه إلى المنزل ومدة بقائه هناك، إذا غادر المنزل أو قابل رجلًا آخر ركِّز على مظهر هذا الرجل وبعد ذلك...حسنًا لن تفهم كل شيء من البداية».

نظر بيوتر إلى كليمكوف وهو يصدرُ صوت صفيرٍ، تابع حديثه متكاسلًا: «كان ساشا في الليلة الماضية يُثرثرُ حول أشياءٍ مختلفة... انتقد الجميع لًا تُفكِّر في إخبار أحدٍ عمَّا سمعته منه، خذ حذرك منه، فهو رجلٌ مريضٌ كثيرُ الشرب، يُشكِّلُ مصدر قوةٍ لنا، لا يمكنك أن تُلحق الأذى به لكنه سيأكلك حيًا، تذكَّر كلامي، لقد كان طالبًا ذات مرة ويعرف أعمالهم من الألفِ إلى الياء، زُجَّ به في السجن في إحدى المرات عقوبةً له على جريمةٍ سياسيةٍ ارتكبها، والآن يعملُ معهم ويتقاضى مئة روبلات في الشهر، يستعين به فيليب فيليبوفيتش حين يحتاجُ المشورة، حتى الجنرال نفسه يستعينُ به».

قال بيوتر بنبرةٍ متذمرةٍ بوجهه المترهل العابس الذي يوشك على تسليم أجفانه إلى النوم: «لا مجال للمُزاحِ في عملِنا، إذا قبضت على أحدهم وأمسكته من عنقه فسوف... لكن قبل ذلك يجب عليك أن تتعقبهم وتضع مسافةً كبيرةً جدًا بينك وبينهم، يجب أن تعرف موقعهم وتوقيت وجودهم في الموقع ذاك ومن كان معهم؛ عليك أن تعرف كل شيءٍ...كل شيء».

في الليلة السابقة ورغم القلاقل التي حدثت فيها أخذ يافسي انطباعًا عن بيوتر بأنه شخص ذكي ورائع؛ حين لاحظه يتحدث بجهدٍ ويتحرك بصعوبةٍ غير قادرٍ على حمل شيءٍ بيده شعر بجرأةٍ في الحديث معه وقال متصنعًا الشجاعة: «هل سنسير في الشوارع طوال اليوم؟».

ـ «في بعض الأحيان ستسير في البرد ليلًا حيث درجة الحرارة تلامس الثلاثين درجة مئوية؛ هذه المهنة اخترعها شيطانٌ رجيم».

ـ «وماذا سنفعل حين نقبضُ عليهم جميعا؟».

ـ «من تقصد؟».

ـ «الأعداء الخونة».

ـ «لا تطلق عليهم هذا الاسم بل قُل الثُوَّار أو المعارضون السياسيون؛ لن نستطيع القبض عليهم جميعًا، يبدو أنهم وُلدوا ومعهم توأمٌ آخر يشبههم».

بينما كان بيوتر يشرب الشاي فتح مذكرته فإذا به يشتعلُ نشاطًا ويقفز من كرسيه، أمسك بورق اللعب ووضعه على الطاولة وبدأ حساباته: «...سألعب على ألفٍ ومائتين وستة عشر، لدي ثلاثة أوراق من السبيت، سبعة من الهاس، وخال الديمن».

قبل أن يغادر المنزل ارتدى معطفًا أسودَ وقبعةً مُقلَّدة مصنوعةً من جلد الغنم، حمل حقيبةً في يده وكأنه من الشخصيات البارزة.

قال ليافسي بنبرةٍ صارمة: «تجنَّب المشي بجانبي في الشارع، ولا تتحدث معي، حين أدخل أحد المنازل في الشارع توجَّه إلى مسكن دفورنيك وأخبره أن عليه انتظار تيموفايف، فقريبًا سـ...».

أخذ يافسي كليمكوف يمشي خلف بيوتر دون أن يُزيحَ ناظريه عنه خشية أن يفقد أثره وسط الزحام، اختفى فجأةً؛ فأصبح كليمكوف في حيرة من أمره، سار إلى الأمام ثم توقف واتكأ على عمودِ إنارة، رأى أمامه منزلًا كبيرًا به حواجزٌ شبكية على نوافذه المظلمة في الدور الأول، رأى عبر المدخل الضيق ساحةً مظلمةً مرصوفةً بالحجارة الكبيرة، خشي يافسي الدخول وظلّ ينظر حوله ويمشي بخطواتٍ متثاقلة.

رأى يافسي رجلًا ذي لحيةٍ صغيرةٍ حمراءَ يخرجُ بخطواتٍ متسارعة، يرتدي معطفًا بلا أكمام وقبعةً تتدلى حوافها على جبينه، نظر إلى يافسي وغمز بعينيه الرمادية وقال له بنبرةٍ منخفضة: «تعال إلى هنا، لماذا لم تذهب إلى دفورنيك؟».

ـ «لقد فقدتُ أثرك».

ـ «فقدت أثري؟ انتبه مرةً أخرى! وإلا سأعاقبك على فعلتك، اسمعني جيدًا، على بعد ثلاثة أبواب من هنا ستجد مبنى مجلس زيمتوف[7]، سيغادر رجلٌ يعمل هناك من المبنى قريبًا، اسمه ديمتري إيليتش كورنسوف، تذكَّر يتوجب عليك أن تتبعه، واضح؟ تعال معي وسأريك إياه».

أصبح كليمكوف ككلبٍ صغيرٍ يلاحقُ رجلًا يرتدي معطفًا وقبعةً سوداء، ضخمُ البنيةِ قويُ الجسد، يمشي بسرعةٍ وفي يده عصا يتمايل بها ويسقطها أرضًا بقوة، شعره الأسود يتدلى من تحت قبعته على أذنيه ورقبته.

شعر يافسي فجأةً بالشفقة تجاه الرجل، وهو أمرٌ نادرٌ معه، دفعه الشعور إلى اتخاذ خطوةٍ نحو الأمام؛ بدأ يتعرق من فرط انفعاله، مشى في الشارع بخطوات متثاقلة، بعدها ركض إلى الأمام وعبر الشارع حيث التقى بالرجل وجهًا لوجه؛ رأى أمامه وجهًا ذي لحيةٍ داكنةٍ وحواجبٍ ملتصقة، ترتسم عليه ابتسامة تنعكس في عيونه الزرقاء، له جبهةٌ عريضةٌ ارتسمت عليها التجاعيد، تتحرك شفاه الرجل وكأنه يغني أو يتحدث مع نفسه.

توقف يافسي ومسح العرق من على وجنتيه بيديه، ثم لحق بالرجل منكسًا رأسه وعينيه إلى الأرض، يرفعهما بين الحين والآخر حتى لا يفقد أثر الرجل الذي يتبعه.

أخذ يافسي يفكِّر مع نفسه قائلًا: «هذا الرجلُ ليس شابًا على ما يبدو ويعيش في فقرٍ مدقع؛ المصائب تأتي من الفقر والخوف».

هنا تذكر يافسي حديث العجوزِ المِدْخَنة فبدأ يرتعش وقال لنفسه: «سوف يقتلني»، متأسِفًا على ما حدث للمدخنة.

راح يافسي ينظرُ إلى المباني أمامه بعيونٍ متشائمةٍ متعبة، ضجيج الشارع يدبُّ في أذنيه، الوحل البارد يتطاير هنا وهناك، أحسَّ يافسي برتابةٍ وكآبة، تذكَّر ريسا فإذا به ينحرف عن طريقه بعيدًا عن الشارع.

توقف الرجل الذي يتعقبه عند عتبة أحدِ المنازل، ضغط على الجرس، رفع قبعته وأخذ يلوِّح بها على وجهه ووضعها مرةً أخرى على رأسه، كاشفًا عن جزءٍ من رأسه الأصلع، كان يافسي متمركزًا على بعد خمس خطوات عند الرصيف، ينظر إلى وجه الرجل فأحس بحاجةٍ لإخباره بشيءٍ ما، لاحظ الرجل مراقبة يافسي له فقطَّب عن جبينه وابتعد، شعَرَ بالقلق فنكَّس رأسه وجلس على الرصيف.

قال يافسي لنفسه «لم أرَ إساءةً من هذا الرجل! فكيف لي أن أفعل هذا معه دون أي سبب! لا خير فيما أفعله! لا خير فيما أفعله!».

سمع يافسي صوت أحدهم يهمس قائلًا: «أنت من قسم الأمن؟».

صدرَ الهمسُ من فلاحٍ طويل القامة يرتدي مئزرًا متسخًا ويمسك بمكنسةٍ في يديه.

أجابه يافسي بـ«نعم» لكنه استدرك نفسه وقال بداخله: «كان عليَّ ألَّا أخبره بذلك».

ردَّ عليه حارس المبنى: «شخصٌ جديد مرةً أخرى؟ هل تتعقب كورنسوف؟».

ـ «نعم هو».

ـ «أخبر الضباط أنه في هذا الصباح جاء إليه ضيفٌ من محطة القطار يحمل ثلاثة صناديق؛ ولم يسجلها بعد لدى الشرطة، لديه أربع وعشرون ساعة لفعلِ ذلك، كان شابًا وسيمًا له شاربٌ صغير ويرتدي ملابسَ نظيفة».

شرع حارس المبنى في كنسِ الرصيف؛ فَرَشَّ حذاء يافسي وسرواله بالطين، ثُم توقف وقال: «سيلاحظون وجودك وأنت هنا؛ فهم ليسوا بحمقى ويعرفون من هم على شاكلتك، يتوجب عليك أن تقف عند البوابة».

انصاع يافسي لما يقوله الحارس وتوجَّه نحو البوابة، وفجأةً رأى ياكوف زاروبين على الجانب الآخر من الشارع، رآه مرتديًا معطفًا جديدًا وقفازاتٍ وحاملًا عصًا في يده واضعًا قبعةً مستديرةً سوداء مائلةً على رأسه، ابتسم وغمز كفتاةٍ واثقةٍ من جمالها بينما كان يمشي بمحاذاة الرصيف.

قال ليافسي وهو ينظر حوله: «صباح الخير، جئت لأحلَّ محلك، اذهب إلى مقهى سوموف في شارع ليبيد، واسأل عن رجلٍ يُدعى نيكولاي بافلوف».

سأله يافسي: «هل تعمل في قسم الأمن أيضًا؟».

«التحقت بالعمل معهم قبل عشرة أيام، لماذا؟».

نظر يافسي إلى وجهه المشرق وقال: «هل أنت الذي أخبرتهم عني؟».

«وهل أنت الذي خُنت المِدْخَنَة؟».

أجاب يافسي بعد أن فكَّر هُنَيْهَةً قائلًا: «فعلت ذلك بعد أن خنتني؛ فقد كنتَ الوحيد الذي أخبرتُه بالأمر».

ضحك ياكوف ونكز يافسي على كتفه قائلًا: «وكنتَ أنت الوحيد الذي أخبره المِدْخَنَة بالأمر، آهٍ منك! اذهب بسرعة أيها الدجاجة!».

مشى ياكوف بجانب يافسي وهو يحرِّك عصاه يمنةً ويسرة وقال له: «هذه الوظيفة جيدة؛ يمكنك أن تعيش سيِّدًا، تمشي وتنظر إلى كل شيءٍ حولك، أترى هذه البدلة التي أرتديها؟ إنها تجعل الفتيات

ينجذِبن إلي».

ترك ياكوف يافسي فجأةً وعاود أدراجه بسرعة، أخذ يافسي ينظر إليه بنظرةٍ معاديةٍ؛ فلطالما اعتبره فاسقًا فارغًا، ولطالما نظرَ إليه بنظرةٍ دونية؛ فصعُبَ عليه رؤيته بتلك الحال وبتلك الملابس الأنيقة.

بدأ يافسي يحدِّث نفسه قائلًا: «أعلمُ أنه قد وشى بي، صحيحٌ أني وشيت بالمِدْخَنَة؛ ولكن كان ذلك بدافع الخوف، فلماذا وشي ياكوف بي؟ حسنًا، سننظر من منَّا الأفضل».

توجَّه يافسي إلى المقهى وسأل عن نيكولاي بافلوف، أخبروه بأن يصعد الدرج، حين وصل إلى الأعلى سمع صوت بيوتر على الجانب الآخر من الباب.

«هناك اثنان وخمسون ورقة لعبٍ في كلِّ علبة، في المدينة وفي مقاطعتي هناك الآلاف من الناس وأنا أعرف بضع مئاتٍ منهم؛ أعرف من يعيش مع من، وأعلم وظائفهم ومتى يذهبون إليها؛ الناس يتغيرون لكن أوراق اللعب هذه لا تتغير قطّ».

كان ساشا مع بيوتر في الغرفة ومعهما رجلٌ آخر طويلُ القامة قويُ البنية يقف عند النافذة وهو يقرأ ورقة، لم يتحرك عندما دخل يافسي.

حين رأى ساشا يافسي قال له وهو ينظر إليه بنظرةٍ تحمِلُ الشر: «يا لك من غبيٍ أحمق!».

ثم تابع حديثه قائلًا: «يجب أن ينتهي الأمر، أتسمعني يا مكلاكوف؟».

مكلاكوف تيموفي فاسيليفيتش كان ذلك الرجل الذي يقرأ الورقة عند النافذة، حين خاطبه ساشا أدار رأسه ونظر إلى يافسي بعيونه الواسعة المشرقة وقال: «حسنًا».

بدا بيوتر متحمسًا بشعره الأشعث وهو يسأل يافسي عما رآه، بقايا العشاء لا زالت تراوح مكانها على الطاولة، رائحة الشحوم والملفوف المخلل اخترقت أنف يافسي وزادت من شهيته للطعام، وقف يافسي أمام بيوتر الذي ينظف أسنانه بريش الإوز، أخذ يسردُ عليه المعلومات التي سمعها من الحارس بنبرةٍ هادئة، حين بدأ يافسي في سردِ حديثه وضع مكلاكوف يديه خلف ظهره وأمال رأسه، ظلَّ يستمع بكلِّ جوارحه وهو يلفُّ شاربه، تميَّزَ مكلاكوف عن بيوتر وساشا بشعره الذي يشعُّ مثل الفضة المطلية باللون الأصفر، تميَّزَ بوجهه النظيف الجاد، وحواجبه الملتصقةُ ببعضها، وعيونه الهادئة، وهيئته الرزينة، وجسده القوي، وبدلته الأنيقة، وصوته الجهوري.

سأل مكلاكوف يافسي قائلًا: «هل حملَ الحارس الصناديق بنفسه؟».

ـ «لم يخبرني عن ذلك».

ـ «هذا يعني أنه لم يحملها، كان سيخبرك ما إذا كانت ثقيلةً أم خفيفةً، من الواضح أنهم حملوها بأنفسهم».

سأل ساشا قائلًا: «هل هي لمكتب الطباعة؟».

ردَّ مكلاكوف: «بل للعدد الحالي من مجلة الأدب».

قال ساشا بنبرةٍ خشنةٍ وهو يتلفّظ بقولٍ سيء ويهزُّ قبضة يده: «حسنًا، يجب أن نجري بحثًا، يجب أن أجد مطبعة، سأجهز هذ المطبعة بنفسي، وسأعثر على الحمير، سنعطيهم كلَّ ما يحتاجونه ثم سنعتقلهم، وسيكون لدينا الكثير من المال».

صاح بيوتر قائلًا: «ليست خطةً سيئة!».

نظر مكلاكوف إلى يافسي وسأله: «هل تناولت العشاء؟».

ردَّا يافسي: «ليس بعد».

قال بيوتر وهو يشير إلى الطاولة: «خذ عشاءك وتناوله بسرعة».

سأل مكلاكوف بنبرةٍ هادئة: «لماذا تعطونه بقايا الطعام؟»، ثمَّ توجه إلى الباب وفتحه ونادى قائلًا: «أحضروا العشاء من فضلكم».

قال ساشا لبيوتر: «حاولْ إقناع الأحمق أفاناسوف ليعطينا الطابعة التي صادروها العام الماضي».

أجاب بيوتر: «سأحاول فعل ذلك».

لم ينظر مكلاكوف إليهم بل ظلَّ يلوي شاربه، حين جاء العشاء ظهر رجل بسيط المظهر وجهه مليءٌ بالبثور، ابتسم للجميع وصافح يافسي بقوة وقال له: «اسمي سولوفيوف».

ثمَّ قال: «هل سمعتم الأخبار أيها الأصدقاء؟ هذا المساء سيكون هناك مأدبةُ طعام للثوار في قاعة تشيستوف، ثلاثةٌ من زملائنا سوف يذهبون إلى هناك كأنهم خدم، ستكونُ يا بيوترَ أحد هؤلاء الخدم».

صاح بيوتر ووجه محمَّرٌ من فرط غضبه قائلًا: «أنا مرةً أخرى! اضطررت إلى القيام بهذا الدور للمرة الثالثة خلال شهرين! اسمح لي! لا أريد أن أفعلها مرةً أخرى».

قال سولوفيوف بنبرةٍ ودية: «لا تحدثني عن هذا الموضوع».

ردَّ بيوتر: «ماذا يعني ذلك؟ لماذا يختارونني لأكون خادمًا؟».

قالت ساشا مبتسمًا: «لأنك تبدو وكأنك واحدٌ منهم».

كرر سولوفيوف كلامه: «سيكون هناك ثلاثة أشخاص، ما رأيك بتناول بعض الجعَّة؟».

فتح بيوتر الباب وصاح غاضبًا: «أحضروا ست زجاجات من الجعَّة»، ثمَّ ذهب إلى النافذة وهو يحرك قبضته ويفرقعُ أصابعه.

قال ساشا: «أترى ما يحدث يا مكلاكوف؟ لا أحد منَّا يريد أن يعمل بجدية وحماس؛ لكن الثُوَّار يسيرون في الإتجاه الصحيح... يعقِدون المآدب والإجتماعات وينشرون الأدب، ويقومون بحملاتٍ دعائية في المصانع!».

ظلَّ مكلاكوف صامتًا ولم ينظر إلى ساشا، أخذ سولوفيوف الكلمة وابتسم قائلًا: «قبضتُ على فتاةٍ اليوم في محطة القطار ولديها بعض الكتب، كنت قد رأيتها في إحدى الفلل في فصل الصيف. بينما كنت أسير في المحطة دون وجود أي شخص لأتتبعه قلت لنفسي لِمَ لا أنظر هنا وهناك علِّي أجدُ أحدًا؛ فإذا بي أراها وهي تسير حاملةً حقيبة يد، ذهبتُ إليها ودعوتُها لتبادل الحديث معي قليلًا؛ بَيْد أني لاحظتُ أنها تبتعد عني مخفيةً حقيبتها خلف ظهرها، فقلت في نفسي حينها «يا عزيزتي الغبية لقد أوقعتِ نفسك في ورطة»، أخذتها على الفور إلى مركز الشرطة، فتحوا أمتعتها، فوجدوا فيها العدد الأخير من مجلة «التحرير» وكتبًا أخرى من قمامتهم، أخذتها إلى قسم الأمن، لم يكن لديَّ حلٌ غير هذا الحل فإذا لم تجد سمكةً تأكلها فلن تأكل غير الحشائش. وبينما كنا في العربة أشاحت بوجهها الصغير بعيدًا عني، رأيتُ الدموع تنحدر من عينيها وخدودها محمرّة، لكنها ظلَّت صامتة، سألتُها: «هل أنتِ مرتاحةٌ سيِّدتي؟»، لم ترد عليَّ بكلمة.

ضحك سولوفيوف فبدت التجاعيد على وجهه.

مكلاكوف يسأل: «من هي هذه المرأة؟».

سولوفيوف: «ابنة الدكتور مليخوف».

ردَّ ساشا: «نعم أعرفه».

علَّق سولوفيوف قائلًا: «إنه رجلٌ محترم، وقد حصل على وسام القديسة آنا ووسام فلاديمير».

كرر ساشا قوله «أعرفه، إنه مشعوذٌ مثل البقية، وقد حاول علاجي».

قال سولوفيوف بنبرةٍ لطيفة: «الإله وحده قادر على علاجك الآن، أنت تُدَمِّرُ صحتك».

صاح ساشا بأعلى صوته قائلًا: «اذهب إلى الجحيم!».

سأل مكلاكوف وهو ينظر من النافذة: «هل بكت الفتاة؟».

ردَّ سولوفيوف: «لا، لكنها لم تكن سعيدة، كما تعلم لا أحبذ القبض على الفتيات فلديّ ابنة».

قال ساشا غاضبًا: «ماذا تنتظر يا مكلاكوف؟».

أجاب مكلاكوف: «لدي وقتٌ كافٍ حتى ينتهي كليمكوف من تناول العشاء».

نادى ساشا كليمكوف قائلًا: «هيَّا أسرع في مضغ طعامك أسرع!».

قال بيوتر: «نعم، نعم، هيَّا أسرع!».

استمع كليمكوف للحديث استماع المصغي بينما كان يتناول عشاءه، يُلاحظهم دون أن يشعروا بوجوده بينهم، أحسَّ بالراحة لأنهم يعاملونه معاملةً حسنةً باستثناء ساشا، شعرَ برغبةٍ عارمةٍ في مشاركتهم الحديث وجعل نفسه مفيدًا لهم، وضعَ السكين والشوكة، مسح شفتيه بسرعة بالمناديل المتسخة وقال لهم: «لقد انتهيت».

فتح أحدهم الباب، فإذا برجلٍ خفيف الحركة بثيابه الرثّة وجسده المنحني يدخلُ الغرفة، أخذ يهمس قائلًا:«إششش!».

دفع رأسه من الباب لينظر في الممر، أخذ يستمع، ثم أغلق الباب بعناية وقال: «لماذا لا يُقفل الباب؟ أين هو المفتاح؟»، ثم نظر حوله، أخذ نفسًا عميقًا وقال: «شكرا للإله!».

قال له ساشا: «كم أنت غبي، أخبرنا ما هو الأمر الذي تودُّ قوله؟ هل يريدون ضربك مرة أخرى؟».

ركض الرجل تجاه ساشا وهو يلهثُ ويمسحُ العرق من جبينه، بدأ يغمغم بصوتٍ منخفض: «نعم أرادوا ذلك، أرادوا قتلي بمطرقة، كان هناك رجلان يتبعانني من السجن، ذهبتُ هناك لقضاء بعض الأعمال وحين خرجت كانا يقفان عند البوابة وأحدهما يحمل مطرقةً في جيبه».

قاطعه سولوفيوف قائلًا: «ربما كان مسدسًا».

ردَّ الرجل: «لا، كانت مطرقة».

سأل ساشا بسخرية: «هل رأيتها؟».

أجابه الرجل: «كيف لا أعرفُ أنها مطرقة؟ سمعتهما يتحدثانِ عن ضربي بمطرقة دون أن يصدرا أي ضجيج».

عدَّل من ربطة عنقه، أقفل أزرار معطفه، بحث عن شيءٍ في جيبه، مسح رأسه المجعدَ المبْتلَّ بالعرق، يداه تتحركان باستمرار على جسده وكأنَّهُ سينهار في أيِّة لحظة، وجههُ الرماديُ النحيفُ يتصببُ عرقًا، عيناه الداكنتان تتحركان من جانبٍ إلى آخر، شَخَصَ بصرُهُ فجأةً، بدأ الرعب يدبُّ في أوصاله وقال وهو يتكئ على الباب: «من هذا الفتى؟ من أين أتى؟».

ذهبَ إليه مكلاكوف وأخذه من يده وقال له: «هوِّن عليك يا يليزار، إنه واحدٌ منّا، انضم إلينا مؤخرًا».

يليزار: «هل تعرفه؟».

ردَّ ساشا بصوتٍ غاضب: «أنت حمار! يجِبُ عليك الذهابُ إلى الطبيب».

أجابه يليزار: «هل سبق لك وأن وُضعت تحت سيارة؟ لم يسبق لك، صحيح؟ إذن لا تستعجل وتطلق هذه الأسماء عليَّ».

قاطعه ساشا وقال: «انظر يا مكلاكوف...»، لكن الرجل لم يعطِه فرصةً ليقول كلامه واستمر في حديثه قائلًا: «هل سبق لك أن تعرضتَ للضربِ ليلًا من أشخاص مجهولين؟ أتفهمُ معاناتي؟ أشخاصٌ مجهولون! هناك مئاتُ الآلاف من هؤلاء الأشخاص المجهولين في المدينة! مئاتُ الآلاف! إنهم في كلِّ مكان، وأنا واحدٌ منهم وأعيش بينهم، هل فهمتَ ما قُلتُه؟».

قاطعهما سولوفيوف بصوته الناعم المُطمْئِنِ لكنه غرق وسط كلماتِ الرجل المُنْكَسِرِ من خوفه، أحسَّ يافسي بالدوار من حديثه وغَرق هو الآخر في كلماته المُحطَّمة، أحسَّ بالعمى وهو يتابعُ حركةً جسده المكسور وتمايل يديه الجبانتين، توقَّع يافسي أن شيئًا ضخمًا أسودًا سيشق طريقه عبر الباب ويسحق الجميع.

قال مكلاكوف وهو يضع يده على كتفه: «حان الوقت الذهاب».

عندما كانوا جالسين في سيارة الأجرة قال يافسي بنبرةٍ هادئة: «أنا غيرُ لائقٍ لهذا العمل».

سأله مكلاكوف: «لماذا؟».

ـ «لأني خجول».

ـ «سوف يزول هذا الخجل».

ـ «لن يزول أبدًا».

أعاد مكلاكوف كلامه بنبرةٍ هادئة: «كل شيءٍ سيزول».

طقسٌ شديدُ البرودة، سماءُ مُلتَّحِفةٌ بالسواد، ثلجٌ يتساقط، أنوارٌ تَنْعَكِسُ على الوحل مُكونةً بقعًا ذهبيةً يسير عليها الناس والخيول فيطفئون بريقها، ظلّ يافسي ومكلاكوف صامتين لفترةٍ طويلة، نظر يافسي بدماغه الفارغ إلى ما حوله وشَعَرَ أن مكلاكوف ينظرُ إلى شيءٍ ما في وجهه.

استأنف مكلاكوف حديثه: «سوف تعتاد على هذا العمل، لكن إذا كان لديك عملٌ آخر فاترك هذا العمل في الحال، هل لديك عملٌ آخر؟».

ـ «ليس لدي».

ـ «هل مضى وقتٌ طويل مُنذُ أن التحقت بقسم الأمن؟».

ـ «التحقت بالأمس».

ـ «هذا هو السبب إذن».

ـ «إلى أين نتجه الآن؟».

عوضًا عن الرد على سؤال يافسي قال مكلاكوف: «هل لديك أقارب؟».

أجابه يافسي: «ليس لدي أيُّ قريب».

انحنى الجاسوس دون أن يقول أيَّة كلمة، عينه توشك أن تغلق أبوابها، بينما كان يلتقطُ أنفاسه من أنفه اهتز شعر شاربه الرقيق، صوتُ جرسٍ ينتشر في الأجواء ويبعث الدفء فيه، تبعته أغنية كئيبة لم يتجاوز صوتها أسطح المنازل وأبتْ الوصول إلى السحابِ الثقالِ التي غطت المدينة كمظلةٍ قاتمة.

قال مكلاكوف بنبرةٍ منخفضة: «غدًا يومُ الأحد، هل ستذهب الى الكنيسة؟».

ـ «لا».

ـ «لم لا؟».

«لا أعلم لماذا، هكذا فقط، رغم أنها قريبة».

«أنا أحبُّ الذهاب إلى الكنيسة من أجلِّ قدَّاس الصباح؛ حين يغنّي قارئ القداس وأشعة الشمس تصافح زجاج النافذة، يا لها من لحظاتٍ بهيجة».

شجَّعت كلماتُ مكلاكوف البسيطة يافسي ليتحدَّث عن نفسه؛ فقال: «الغناء جميل؛ عندما كنت صغيرًا كنت أغني في الكنيسة في قريتنا، وحينَ أغني أفقد إحساسي بما حولي وكأني أرتفع محلقًا بعيدًا عن هذا الكون».

«هذا ما وددت سماعه».

تنهَّد يافسي ونظر نظرةً حزينةَ إلى محطةِ السككِ الحديدية التي ظهرت فجأةً أمامهما وحجبت عنهما رؤية الطريق.

توجها نحو ساحةٍ تجمَّع فيها جمعٌ غفيرٌ من الناس، استندا على حائطٍ هناك، سقطت جفون مكلاكوف على عينيه وكأنَّ النعاس غلبه، بدأت أصوات الشرطة تتعالى، امرأةٌ حسناءٌ ذات عيونٍ داكنةٍ ووجهٍ أسمرٍ تضحك بصوتٍ رنَّان.

قال مكلاكوف هامسًا: «تذكَّر وجه المرأّة التي تضحك والرجل بجانبها، اسمها سارة لوري وهي دايةٌ تولِّدُ النساء، تعيش في مدينة سادوفوي، دخلت السجن وعاشت في المنفى، امرأةٌ ذكيةٌ للغاية، الرجل العجوز أيضًا عاش في المنفى سابقًا ويعمل صحفيًا».

بدا مكلاكوف خائفًا فجأةً، فسحبَ قبعته إلى الأسفل ليغطي بها وجهه بسرعة، تابع حديثه بصوتٍ منخفض: «هل ترى الرجل الطويل ذا البدلة السوداء والشعر الأحمر تعلوه قبعةٌ من وبر؟».

أومأ يافسي برأسه.

ـ «إنه الكاتب ميرونوف، لقد دخل السجن أربع مرات حتى الآن في مدنٍ مختلفة، بالمناسبة هل تقرأ الكتب؟».

ـ «لا أقرا».

ـ «يا للأسف! كتاباته ممتعة!».

دودةٌ حديديةٌ سوداءٌ قادمة، على رأسها قرنٌ وثلاثةُ عيونٍ ملتهبةٍ، صاحت وتوقفت عند المحطة بجسمها الضخم، أطلقت صافرتها وملأت الهواء بأنفاسها البيضاء السميكة، لامس بخارها الساخن وجه يافسي، وفجأةً ظهر أمامها مجموعةٌ من الناس الذين كانوا صغار الحجم مقارنةً بالحجم الهائل لهذا المخلوق.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها يافسي القطار من مسافةٍ قريبة، بدا القطار مفعماً بالحياة ومليئاً بالأحاسيس في عينيه، شدَّ انتباهه كثيراً، أثارَ في الوقت ذاته شعورًا مؤلمًا بداخله، بدأت العجلات الحمراء الكبيرة في الدوران والعتلات الصلبة تلمع وهي تتحرك إلى الأعلى والأسفل مثل سكينٍ عملاقة.

تنهَّدَ مكلاكوف مقهوراً.

سأله يافسي: «لماذا تتنفس هكذا؟».

أجاب الجاسوس الساخط: «لا شيء».

احمَّرت وجنتاه، بدأ يعضَّ شفتيه، توقَع يافسي من خلال نظراته أنه يَتعقبُ الكاتب الذي يسير على مهلٍ ويحرِّك شاربه، كان برفقة هذا الكاتب رجلٌ طاعنٌ في السن قصيرُ القامة ممتلئُ الجسد يرتدي معطفًا غير مزخرفٍ، قبعةٌ صيفيةٌ على رأسه الكبير، ضحك هذا الرجل بصوت عالٍ وصاح وهو يرفع وجهه الأحمر الملتحي: «استطعت فعلها، استطعت فعلها...»

رفع الكاتبُ رأسه وانحنى لشخصٍ ما، رجلٌ له قَصَّةُ شعرٍ خفيفة، عريضُ الجبهة، عريضُ الأنفِ، ضيِّقُ العينين، عظامُ خدِّه بارزة، بدا وجهه في نظرِ يافسيٍ قاسيًا وغير مريحٍ البتة، رأى شيئًا قاسيًا فيه بسبب شاربه الأحمر الكبير.

قال مكلاكوف: «هيَّا تعال ربما سيذهبان معًا، يجب أن تكون حذرًا للغاية؛ فالرجل الذي وصل لتوه لديه خبرةٌ طويلة».

استقلا سيارة أجرة مرةً أخرى.

قال مكلاكوف بغضبٍ للسائق: «اتبع هذه العربة». ظلَّ صامتًا لفترةٍ طويلة، منحنيًا بظهره ومتمايلًا بجسده.

تمتم أخيرًا قائلًا: «كنتُ في منزله في صيف العام المنصرم في عملية تفتيش».

قاطعه يافسي: «في منزل الكاتب؟».

ـ «نعم في منزله».

حين رأى مكلاكوف أن سائق الأجرة الذي أمامه قد توقف قال لسائقه: «ابتعد قليلًا عنهم، بسرعة!».

بعد دقيقة خرج من سيارة الأجرة ووضع بعض المال في يد السائق.

قال ليافسي: «انتظر»، واختفى وسط الظلام الدامس، سمع يافسي صوته يقول: «عفوا هل هذا منزل ياكوفليف؟».

أجاب أحدهم بصوتٍ أجوف: «لا، هذا منزلُ بيرتسيف».

ـ «وأين هو منزل ياكوفليف؟».

ـ «لا علم لي».

ـ «عذرًا على إزعاجك».

توجَّه يافسي نحو السياجِ بعدَ أن رأى أن مكلاكوف قد أبطأ عليه وفكَر مع نفسه قائلًا: «من السهولة أن.... نتعقب الآخرين».

جاء الجاسوس إليه وقال له بنبرةٍ تشي بارتياحه: «ليس لدينا ما نفعله هنا اليوم، في صباح الغد سترتدي بدلةً مختلفة وسنراقب هذا المنزل».

شرعا يمشيان في الشارع، ظلَّت كلماتُ مكلاكوف تطرقُ أُذني كليمكوف وكأنه يسمع طبولًا تُقرع: «تذكَّر وجوه أولئك الذين يمرون بهذا المنزل ولباسهم ومشيتهم، لا يوجد شخصٌ يشبه الآخر تمام الشبه؛ فكلُّ واحدٍ لديه شيءٌ يميزه، عليكَ أن تتعلم اقتناص الأشياء الغريبة فيمنْ تراه...في أعينهم، في أصواتهم، في طريقة وضعهم لأيديهم وهم يمشون، في طريقة رفعهم لقبعاتهم وهم يلقون التحية، عملُنا يتطلَّبُ ذاكرةً جيدةً قبل كل شيء».

شعر يافسي أن الجاسوس يتحدث إليه بنبرةٍ تُضْمِرُ العداء تجاهه؛ الأمر الذي جعله يشعر بالحنق حياله.

قال له مكلاكوف: «وجهكُ بارزٌ جدًا وخاصةً عيونك، وهذا لن يجدي نفعًا، يجب عليك أن ترتدي قناعًا وأنت تعمل، قناعًا يتماشى مع مهنةٍ معينة؛ أرى أنَّ شخصيتك تتناسب مع الباعة المتجولين، لذا يجب أن تحمل صندوقًا به مجموعةٌ من المواد والمسامير والإبر والشرائط وأشياء أخرى، احرص على الحصول على هذا الصندوق، هيّا اذهب الآن إلى المطبخ وتعرَّف على الخدم».

عاد مكلاكوف إلى صمته، أزال لحيته المزيَّفة، وضع قبعته على رأسه، بدأ في المشي ببطء ثمَّ قال: «الخدمُ مستعدون للقيام بما يُزعجُ سادتهم، يمكنك أن تحصل على ما تُريده منهم بسهولة وخاصةً النساء...مثل الطاهيات والممرضات وخادمات الغرف، يا لحبهنَّ للقيل والقال، بالمنسابة الجو باردٌ هنا، اشعر بقشعريرةٍ في جسدي، دعنا نذهب إلى المقهى».

«ليس لدي نقود».

«لا عليك سأتكفلُ بالأمر».

نادى صاحب المقهى بصوتٍ صارم: «أعطني كوبًا كبيرًا من الكونياك وكوبين من الجعة، هل ستشربُ معيَّ الكونياك يا يافسي؟».

أجاب يافسي وهو يشعر بالحرج: «لا، أنا لا أشرب الخمر».

«هذا أفضل لك».

نظر الجاسوس بعنايةٍ في وجه كليمكوف، أخذ يحرك شاربه، أغلق عينيه لدقيقةٍ ومدّد جسده بالكامل حتى خرجت طقطقةٌ من عظامه.

عندما انتهى من شرب الكونياك قال بنبرةٍ منخفضة: «جيدٌ أنك قليل الكلام، ما الذي تَفكَرُ به الآن؟».

نكَّس يافسي رأسه ولم يرد عليه.

ـ «أخبرني عن كل شيء تودُّ قوله».

ـ «عن ماذا على وجه الخصوص؟».

رمش مكلاكوف دون أن يجيبه.

تابع يافسي حديثه: «أعتقد أنه يستحسن بي أن أذهبَ إلى الدير».

ـ «لماذا؟».

ـ «لا لشيء».

ـ «هل تؤمن بوجود الإله؟».

بعد لحظة من التفكير قال يافسي كما لو أنه يختلقُ عذرًا لنفسه: «نعم لديَّ إيمان به، لكني لا أفعل شيئًا للإله بل لنفسي، من أنا بالنسبة للإله؟».

«حسنًا، دعنا نشرب».

بَلعَ يافسي كوبًا من الجعة، أحسَّ بقشعريرة في جسده من شدةِ البرد، لعق شفتيه بلسانه وسأل فجأةً: «هل يضربونك كثيرًا؟».

صاح الجاسوس مندهشًا من هذه الإهانة: «من؟ أنا؟».

أجابه يافسي: «ليس أنت فقط ولكن جميع الجواسيس يتلقون الضربات».

صحَّحَ مكلاكوف ليافسي وهو يبتسم قائلًا: «لا تقل جواسيس بل عُملاء، نعم تعرضوا للضرب؛ بَيْد أني لم أتعرض للضرب على الإطلاق».

استغرق في تفكيرٍ عميق، أنزل كتفيه إلى الأسفل، ظهر ظلٌ على وجهه الأبيض وقال: «مهنتنا شاقّة، فالناس ينظرون إلينا بصورةٍ سلبيةٍ وكأننا كلابٌ نتعقبُهم».

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ مفاجئةٌ، انحنى نحو يافسي قائلًا: «يندرُ أن يعاملني أحدٌ معاملةً إنسانية، آخرُ مرةٍ كانت قبل خمس سنوات في منزل ميرونوف، أتيت إليه مع رجال الشرطة في زي مفتشٍ برتبة رقيب، لم أكن على ما يرام في ذلك الوقت؛ فقد كنت مصابًا بالحمى، كنت بالكاد قادرًا على

الوقوف على قدمي، استقبلنا استقبالًا وديًا بابتسامة على محياه، كان محرجًا بعض الشيء، ميرونوف رجلٌ عظيمُ الهيئة طويلُ الأيدي وله شاربٌ يشبه القطة، أخذ يمشي معنا من غرفة إلى أخرى، خاطبنا بصيغة الجمع احترامًا منه، حين يلمِسُ أحدًا منَّا تراه يُسارع في الإعتذار، شعرنا جميعًا بالحرج منه...الكولونيل والمدعي العام ونحن الموظفون الصغار، وجهه مألوفٌ لدى الجميع كون صوره تظهر في الصحف، يقولون إنه معروفٌ حتى في خارج البلاد؛ بينما نقتحِمُ منزله ليلًا لتفتيشه! شعرنا بالخجل من أنفسنا، لاحظتُ أنه ينظر إليّ، ثم دنا مني وقال: «يستحسن بك أن تجلس تبدو مريضًا»، كلماته أزعجتني ثم جلست وفكرت وقلت بداخلي: «ابتعد عني»، قال لي: «هل تريد دواءً؟» كنا جميعًا صامتين، لم يكن أحدٌ منهم ينظر إليَّ أو إليه».

ضحك مكلاكوف ضحكةً هادئة وتابع حديثه قائلًا: «أعطاني دواء الكينين في كبسولة ومضغته، بدأت أشعرِ بمرارةٍ لا تطاق في فمي واضطرابٍ بداخلي، شعرت أنني سأسقط إذا حاولت الوقوف، حينها تدخَّلَ الكولونيل وأمر بنقلي إلى مكتب الشرطة، كنَّا حينها قد انتهينا من عملية التفتيش، قال المدعي لميرونوف معتذرًا: «لابد أن ألقي القبض عليك»، ردَّ عليه بكلٍ بساطة «وبماذا سيفيدكم القبضُ علي؟ حسنًا؛ اقبض علي، فكلٌ منَّا يقوم بعمله»».

أحب يافسي هذه القصة، لامست قلبه وعانقت شغافه، أيقظت فيه الرغبة ليكون مفيدًا لمكلاكوف؛ فقال بداخله: «يا له من رجلٍ صالح».

تنهَّد الجاسوس، طلب كوبًا آخر من شراب الكونياك وارتشفه ببطء، خارت قواه فجأةً فإذا به يضع رأسه على الطاولة.

أراد يافسي الحديث وطرح الأسئلة؛ تتزاحم في دماغه كلماتٌ كثيرة، لكنه عاجزٌ عن ترتيبها وإخراجها من دماغه لتكون واضحةً لمن يستمع إليه، بعد جهدٍ جهيدٍ وجد يافسي ما كان يبحث عنه فقال: «هل يعملُ مع أعدائنا؟».

أجابه الجاسوس وبالكاد يرفع رأسه: «من هو؟».

ـ «الكاتب».

ـ «من هم الأعداء؟ ماذا تقصد بهم؟».

بدا وجه الجاسوس ساخرًا من يافسي وهو يلوي شفتيه مبينًا امتعاضه منه.

بات يافسي مرتبكًا؛ قام الجاسوس مكلاكوف من مكانه دون أن ينتظر إجابتهً وألقى عملةً فضيةً على الطاولة وقال لشخصٍ بجانبه: «هذا ثمن الشراب».

وضع قبعته على رأسه، مشى نحو الباب بدون أن يقول كلمةً ليافسي، تبعه وهو يمشي على رؤوس أصابعه دون أن يجرؤ على ارتداء قبعته.

قال له مكلاكوف وهما يسيران في الشارع: «كن في المكان الذي أخبرتك عنه في الساعة التاسعة غدًا، وسننتهي في الساعة الثانية عشرة».

وضع مكلاكوف يديه في جيوبِ معطفه واختفى دون أن يودِّع صاحبه، شعرَ يافسي بحزنٍ يعتريه فجأةً، أخذ يمشي بمحاذاة الشارع المهجور، حين رأى أنه يسير تحت أعمدةِ الإنارة انطلق بسرعةٍ مبتعدًا عن الأنوار، أحسَّ بالمرض يدنو منه، أحاط الظلام به من جميع الجوانب، البردُ يُلقي بحمله على جسده، أحس بطعم الجِعةِ المر يسري من فمه إلى صدره، دقات قلبه تتسارع تسارعًا غير مألوف، تتصارع الأفكار في رأسه كثلجٍ يتساقط في فصل الخريف.

أخذ يافسي يُحدِّث نفسه قائلًا: «قضيتُ يومًا هناك، يا لهم من.... يا لهذه الأيام الغريبة، لا أريد منها إلّا حبًا يحتويني».

نام يافسي ورأى في المنام أن ابن عمه ياكوف يجثو على صدره، ويمسكه من رقبته ويخنقه؛ فإذا به يستيقظ من نومه ويسمع صوت بيوتر الغاضب في الغرفة الأخرى وهو يقول: «ما أحقرَ إمبراطورية القيصر وكل هذا الوهم الذي نعيشه!».

سمع يافسي صوت امرأةٍ تضحك وتقول بنبرةٍ رقيقة: «اصمت...اصمت...لا تصرخ».

تابع بيوتر: «ليس لدي وقت لمعرفةِ المُصيب من المخطئ، لست أحمقًا، أنا شابٌ ويجب أن أعيش شبابي، هذا الوغد يلقي عليَّ محاضراته حول الأوتوقراطية وأنا أستمع إليه لثلاث ساعات وكأني أعمل نادلًا عنده وأتحمل كل هذه الترهات؛ قدمي تُوجعني وظهري يؤلمني من كثرة الإنحناء، إن كان يحبُّ الأوتوقراطية لماذا يبخلُ بأمواله، مع ذلك لن أبيع كبريائي للأوتوقراطية من أجل حفنة من المال، فليذهب معها إلى الجحيم!».

نظر يافسي من النافذة وهو يصارعُ النعاس، نظراته تكادُ تختفي وسط نعاسه مع دخول صباح الخريف، لم يستطع مغالبة نعاسه فعاد إلى الفراش بهدوء ونام مجددًا.

بعد عدة ساعات جلس على الرصيف المقابل لمنزل بيرتسيف، أخذ يمشي ذهابًا وإيابًا لفترة طويلة، بدأ بِعدِ النوافذ في المنزل وقاس عرضها بخطواته، تفحّص واجهة المنزل الرمادية بكل تفاصيلها العتيقة إلى أن أضناه التعب، خرج الكاتب من الباب مرتديًا معطفًا على كتفيه، لم يكن يرتدي الجرموق[8] على قدميه، واضعًا قبعته على جانبٍ من رأسه، مشى متوجهًا نحو يافسي.

قال يافسي بداخله وهو ينظر إلى وجهه المتجهم وحواجبه المقطّبة: «سيصفعني على وجهي». حاول النهوض من مكانه والرحيل؛ بيْدَ أنه لم يكن قادرًا على الحركة فقد قيّده الخوف بسلاسلٍ من حديد.

سمع صوتًا غاضبًا يقول له: «لماذا تجلس هنا؟».

ـ «لا لشيء».

ـ «ابتعد عن هنا».

ـ «لا أستطيع».

ـ «إليك هذه الرسالة؛ اذهب وأعطها لمن أرسلك هنا».

ـ «لا أستطيع».

ـ «لم لا؟».

رأى يافسي تلك العيون الزرقاء الكبيرة ولم يكن قادرًا على عصيانها؛ فأشاح بوجهه جانبًا وقال: «أنا...أنا...أنا ليس لدي إذن... لأخذ أي شيءٍ منك...أو للتحدث إليك، سأذهب بعيدًا».

قال له الكاتب وهو يبتسمُ ابتسامةً متجَّهِمة: «نعم، اذهب بعيدًا من هنا».

أخذ كليمكوف الظرف الرمادي ومشى دون أن يسأل نفسه إلى أين يتجه، وضع الظرف في يده اليمنى بالقرب من صدره كما لو أنه يحمل شيئًا خطيرًا ويخفي أمرًا جلَلًا، شعر بألمٍ في أصابعه من شدةِ البرد وقال لنفسه: «ما الذي سيحدث لي؟».

لاحظ أن الظرف لم يكن مختومًا، فتوقف ونظر حوله وفتح الرسالة فوجد فيها: «خذ هذا الظرف بعيدا عني... ميرونوف».

تنفَّس الصعداء وقال: «يجب أن أعطي هذه لمكلاكوف، لكنه سيوبخني، ربما يستحسن بي أن أتراجع، لكن إن لم أفعلها فسيأتي شخصٌ آخرٌ قريبًا ويفعلها على أي حال».

على الرغم من زوال خوفه شعر يافسي بالحزن لأنه هذه الوظيفة لا تُناسبه، كان صعبًا عليه أن يرى فشله في كسبِ ثقة الجاسوس الذي أحبه كثيرًا.

وجد يافسي مكلاكوف على العشاء بصحبة رجلٍ أحولٍ ذي عيونٍ صغيرةٍ يرتدي ملابسَ سوداء.

قال مكلاكوف: «أسمحا لي أن أعرفكما على بعضكما: كليمكوف...كراسافين».

وضع يافسي يده في جيبه لإخراج الرسالة وقال بنبرةٍ مُحْرجَة: «هذا ما حدث لي....».

رفع مكلاكوف يده قائلًا: «ستخبرني لاحقًا، اجلس الآن وتناول العشاء».

كان يافسي حينها مُرهق الوجه، باهت العينين، أشعث الشعر، قال لنفسه: «يبدو أن مكلاكوف قد أفرط في الشرب بالأمس».

قال الرجل الأحول: «لا يا تيموفي فاسيليفيتش، كلامك غير صحيح، سنستمتع في كلِّ جزئيةٍ من جزئيات عملنا شريطة أن نحب ما نفعل».

نظر إليه مكلاكوف، وشرب كوبًا كبيرًا من النبيذ بجرعةٍ واحدة وقال: «إنهم بشرٌ، ونحن بشرٌ كذلك، كلامهم لا يعني أي شيء؛ أحدهم يقول لي افعل هذا والآخر يقول افعل ذاك لكني أفعلُ ما أريد».

لاحظ الأحولُ أن يافسي ينظر إلى مُقلَتَي عينيه وهي تتدحرج فسارع بارتداء نظارته، يتحركُ بمهلٍ وحذَرٍ كقطةٍ سوداء، أسنانه صغيرةٌ وحادة، أنفه مستقيم ورقيق، عندما يتحدث تتحرك معه أذناه الورديتان، أصابعه تمسك بفتات الخبز وتصنع منه كرياتٍ صغيرة يضعها على حافة طبقه.

سأل يافسي وهو يحرك رأسه باتجاهه: «هل تعمل مساعدًا لدى مكلاكوف؟».

ـ «نعم».

ـ «كيف العمل معك أيها الشاب؟».

ـ «بدأتُ العمل بالأمس».

أومأ كراسافين برأسه وهو يلوي شاربه الأسود الرقيق وقال «أوه! أوه!».

ثم واصل حديثه قائلًا: «بالطبع يا تيموفي فاسيليفيتش، لا يمكننا تجاوز أقدارنا في هذه الحياة، فقانون الإله يقضي بأن نرى الأطفال يكبرون والكبار يموتون، وهذا لا يُهِمُ أحدًا منَّا، لدينا مهمةٌ مُحددة؛ نُلاحق الخارجين عن النظام والقانون، هذا كل شيء، إنه عمل شاق لكنه عملُ الأذكياء، ولأُقرِّبَ لك الصورة فعملنا أشبه بعملية صيد».

نهض مكلاكوف من الطاولة ومشى في زاوية الغرفة متجهًا نحو يافسي، حين وصل إليه قال: «ما الذي كُنتَ تُريد قوله لي؟».

أعطاه يافسي الرسالة؛ قرأ الجاسوس مضمونها فنظر إلى وجه يافسي في دهشةٍ وأعاد قراءتها وقال له بصوتٍ منخفض: «ممن هذه الرسالة؟».

أجاب يافسي هامسًا: «أعطاني إياها بنفسه؛ خرج إلى الشارع وسلمني إياها».

انتظر يافسي أن يتلقَّى توبيخًا أو لكمةً منه فنكَّس رأسه؛ لكنه سمع صوت ضحكةٍ خفيفة، رفع رأسه بحذرٍ ورأى الجاسوس ينظر إلى الظرف وابتسامةٌ عريضةٌ تعلو محياه وبريقٌ يضيء في عينيه.

قال له مكلاكوف: «اسمعني يا غريب الأطوار، لا تَحدِّث أحدًا عن هذا الأمر، أيها المهرج».

قاطعهما كراسافين قائلًا: «هل أبارك لكما على هذه المهمة الناجحة؟».

قال مكلاكوف بصوتٍ عالٍ وهو يسير إليه: «بالطبع».

علَّق كراسافين بنبرةٍ تحفيزيةٍ قائلًا: «رائع أيها الشباب»، اتجهت بؤبؤ عينيه بلونهما الأخضر نحو أنفه، فتوسعت فتحتا أنفه وانتفضتا.

صاح مكلاكوف قائلًا وهو يفرك يديه وكأنه سعيدٌ بما يقول: «لكن اليابانيين هزمونا في نهاية المطاف!».

قال كراسافين وهو يهزُّ أذنيه: «لا افهم سبب سعادتك وأنت تتحدث عن هذا الأمر! ألم ترَ تلك الدماء الروسية التي أريقت في هذه الحرب؟ يزعُم البعض أنَّ ما حدث في صالحنا؛ لكني أرى أن ضعفنا واضحٌ وضوح الشمسِ في رابعة النهار».

ـ «على من يقع اللوم؟».

ـ «اليابانيون؟ ماذا يريدون؟ كل دولةٍ تريد أن تعيش مستقلةً بذاتها».

لم يهتم يافسي بإكمال متابعة نقاشهم هذا، أحسَّ أن إعجابه بمكلاكوف قد ازداد، نظر إلى وجهه وحدَّثته نفسه بالإنتقال للعيش معه كونه أفضل من بيوتر الذي تجهَّم على السلطات التي قد تُلقي القبض عليه وعلى يافسي.

حين غادر كراسافين، سارع مكلاكوف بإخراج الرسالة وقرأها مرةً أخرى وأخذ يضحك، نظر إلى يافسي وقال: «إياك أن تخبر أحدًا عنها، هل تفهمني؟ قلت لي أنه خرج بنفسه إلى الشارع؟».

ـ «نعم لقد خرج بنفسه وقال لي ابتعد من هنا».

ـ «لو أنَّ شخصًا آخر في مكانه لخدشك مثل القطة».

شدّ الجاسوس عينيه، نظر من النافذة وقال بنبرةٍ هادئة: «كما قلت لك، جهِّز نفسك بمستلزمات البائع المتجوِّل، انتهى عملك اليوم وليس لديّ أية مهمات أخرى لك، استمتع بوقتك، سأحاول خلال هذه الأيام أن أجعلك مختلفًا، إلى اللقاء!».

مدَّ مكلاكوف يديه، لمسهما يافسي ممتنًا وابتعد عنه والسعادة تغمره.

الفصلُ الخامس عشر

بدأ كليمكوف يشعر بمزيدٍ من الحرية والراحةِ بعد بضعة أسابيع، ينطلقُ في كل صباح مرتديًا ملابسَ دافئةً ومريحةً، حاملًا صندوقًا به بضائعُ صغيرة على صدره، يتلقَّى التعليمات في المقاهي التي يتجمع فيها الجواسيس أو في مراكز الشرطة أو في مساكن الجواسيس، كانت التوجيهات التي يتلقاها بسيطةً ومحددة.

يقولون له: «اذهب إلى منزل كذا وكذا، تعرَّف على الخدم، انظر كيف يعيش السادة».

حين ينجحُ في اختراق مطبخ المنزل المستهدف، يحاول أولًا رشوة الخدم وذلك بتخفيض سعر البضائع وإعطائهم بعض الهدايا الصغيرة؛ بعدها يسألهم عما طُلب منه معرفتُه؛ حين يشعر أن المعلومات التي حصل عليها غير كافية يسدُّ النقص من رأسه وفقًا للخطة التي رسمها له سولوفيوف العجوز السمين المنغمس في شهواته.

قال سولوفيوف ذات مرة بنبرةٍ متعجرفة: «هؤلاء الرجالِ الذين نتتبعهم لديهم نفس الأطباع؛ فهم لا يؤمنون بالإله، لا يذهبون إلى الكنيسة، يرتدون ملابسَ رثَّة، يقرؤون الكثير من الكتب، يسهرون لساعاتٍ متأخرةٍ من الليل وغالبًا ما يجتمعون في مساكن بعضهم البعض، يشربون القليل من النبيذ، لا يلعبون الورق، يتحدثون عن الدول الأجنبية، يتحدثون عن أنظمة الحكم، يتحدثون عن العمال وإيمانهم بالإشتراكية، يتحدثون عن الحرية الكاملة للشعب، يتحدثون عن الفقراء ويُصَرِّحُون بضرورة التمرد على القيصر واستئصال الحكومة بأكملها وتولي أعلى المناصب، يقولون أن الإشتراكية تجلب العبودية ويريدون التحرر منها».

توقَّف الجاسوسُ عن الحديث هُنَيْهَةً، سعل وتنفس الصعداء ثم تابع قائلًا: «الحرية... الجميع يحبونها ويريدون أن يصبحوا أحراراً؛ لكن إن منحتني الحرية فقد أصبحُ أوغد الناس في هذا العالم، الأمور تسير بهذه الطريقة، حتى الأطفال يستحيل أن نعطيهم الحرية الكاملة. آباءُ الكنيسة والقدّيسون سلكوا درب الغواية وارتكبوا أعظم الذنوب، الخوفُ يجعل حياة الناس متماسكةً لا الحرية؛ الإلتزام بالقانون ضرورة للبشر، بيْدَ أن الثُوَّار يرفضون القانون، فهناك فريقان منهم؛ الأول يريدُ التعامل بسرعةٍ مع الوزراء والمواطنين المخلصين للقيصر عن طريق التفجيرات وغيرها من الطرق السوداء، أما الفريق الثاني فمستعدٌ للإنتظار قليلًا؛ بحيث يحرضون الناس على الثورة ثمَّ يقتلون الجميع مرةً واحدة».

رفع سولوفيوف عينيه، توقَّف للحظة وتابع حديثه: «من الصعب علينا أن نفهم سياستهم، ربما يكون لديهم وجهة نظرٍ حقًا؛ لكن كلَّ ما يقترحونه مجردُ وهم وخُبثٍ بالنسبة لنا، نحن من نحقق إرادة القيصر الملك المبارك من الإله، وهو مسؤولٌ عنَّا أمامَ الإله؛ لذلك يجب علينا أن نفعل ما يأمرنا به، ولكي نكسب ثقة الثُوَّار يجب أن نتذمر مثلهم؛ يجب أن نقول أن الحياة صعبةٌ على الفقراء؛ وأن الشرطة تهينُ الشعب؛ وأن القانون غائب، إنَّهم ساذجون على الرغم من خبث نواياهم، يمكنك دائمًا إلقاء القبض عليهم باستخدام هذا الطُعم، تصرَّف بذكاء عند التعامل مع خدمهم لأنهم ليسوا أغبياء،

خفَض أسعار البضاعة لهم عند الضرورة وهذا سيجعلهم يعتادون عليك ويحترمونك، لكن حَذارِ من أن تثير الشكوك تجاهك؛ لأنهم حينها سيسألون أنفسهم «لماذا يبيع بهذا السعر الرخيص للغاية ويطرح هذه الأسئلة المثيرة للشك»، أفضلُ ما يمكنك فعله هو أن تُكوّن الصداقاتِ معهم؛ تعرّف على فتاةٍ لطيفةٍ مثيرةٍ وستحصلُ على المعلومات التي تريدها منها، ستخيط لك قمصانًا جديدة، وتدعوك لقضاء الوقت معها ليلًا؛ وحينها ستحصل على جميع المعلومات التي تريدها منها...هنَّ كالفئران الصغيرة الناعمة، يمكنك أن تمد ذراعيك أينما شِئت حين تصادق امرأة».

تميَّزَ سولوفيوف بوجهه المستدير، وشعره الكثيف، وشفاهه الغليظة، وجبهةٌ تسبحُ فيها البثور، يتحدثُ عن النساء أكثر من باقي الجواسيس، تسمعه يُرهِف صوته الناعم لدرجة الهمس، رقبته تتصبب عرقًا، يمشي متثاقلًا، ترى في عينيه وحواجبه ورموشه شيئًا أشبه بالزيت، تفوحُ منه رائحةُ اللحمِ الفاسدِ على الدوام.

حين كان يافسي يعملُ في مكتب المحفوظات سمِع أن الجواسيس يعرفون ما لا يعرفه غيرهم، وأنَّ كلَّ شيءٍ في متناول أيديهم، وأنَّ أصدقاءهم ومعاونيهم في كل مكان.

الجواسيسُ قادرون على الإمساكِ بجميع الأشخاص الخطرين في آنٍ واحد إلَّا أنهم لا يفعلون ذلك لأنهم سيفقدون هذه الوظيفة ولن يكون لديهم عملٌ يؤدونه. عند دخولِ قسم الأمن يؤدي هؤلاء الجواسيس القسم معاهدين ألاّ يشفقوا على أحد؛ حتَّى أباءهم وأمهاتهم وأخوتهم، وألَّا يتحدثوا أمامهم بكلمةٍ واحدةٍ عن أعمالهم المقدَّسة والمخيفة التي تعهدوا بأن يؤدوها طيلة حياتهم.

توقَّع يافسي أن يجد أشخاصًا مكفهري الوجوه دائمي التجهم، أخذ صورةً عنهم على أنهم يتحدثون بكلماتٍ قليلةٍ غير مفهومة، وشبههم بسحرةٍ يمتلكون قوةً قادرةً على قراءة أفكار الآخرين والتكهُّن بجميع أسرار حياتهم.

لكن بعد احتكاكه بهم والتعرف عليهم عن كثب اكتشف أنهم أشخاصٌ عاديون وليسوا أخطر من الآخرين؛ لكنهم يعيشون حياةً مرفهةً أكثر من الباقين، يتحدثون بصراحة عن أخطائهم وإخفاقاتهم ويضحكون عليها، بدا الجميع بلا استثناء متحمسًا عند أداء قسم اليمين أمام رؤسائهم، تراهم متفاوتين في مستوى الخبثِ والدهاء.

يعي الجواسيس أهمية توحدهم وتعاضدهم؛ فتراهم عونًا لبعضهم البعض، حين يتأخر أحدهم عن الإجتماع أو يتغيَّب يشعرون بالقلق عليه، ويرسلون يافسي أو زاروبين أو أي شخص من «المبتدئين» أو «المساعدين» لتقفي أثرِ الرجل المفقود. إذا ما نظر شخصٌ غريبٌ إليهم سيندهشُ من إيثارهم لبعضهم البعض حين يتعلَّقُ الأمرُ بالمال؛ فهم مستعدون لمشاركة نقودهم مع زملائهم الذين خسروا أموالهم بالمقامرة أو لسببٍ آخر، لديهم شغفٌ بالألعاب الخطرة، يحتالون على بعضهم البعض حين يلعبون الورق كالأطفال، يحسدون زملاءهم الذين يأتون بحيلٍ جديدةٍ في لعب الورق، يتحدثون عن احتفالات المسؤولين بنشوةٍ وحسدٍ شديدٍ، يصِفون أجساد النساء العاهرات ويناقشون علاقتهم معهن، معظمهم غير متزوجٍ، أغلبهم صغيرٌ في السن، كانت النساء بالنسبة لهم مثل النبيذ...تمنحهم الراحة والهدوء ليغطوا في نومٍ عميق، تجلب النساء لهم الراحة بعد أعمالهم الشاقة،

يحتفظ أغلبهم بصورٍ بذيئةٍ في جيوبهم لينظروا إليها وهم يتحدثون بكلماتٍ نابية. تثير مثل هذا النقاشات فضولًا حادًا في دواخل يافسي، تثير فيه الغثيان والغموض أحيانًا أخرى، اكتشف يافسي أن بعض الجواسيس يعانون من شذوذٍ جنسي وأكثرهم مصابٌ بأمراضٍ جنسية، يُفرطُ جميعهم في الشرب، يخلطون النبيذ مع الجعة والجعة مع الكونياك في محاولةٍ للوصول إلى مرحلة السكرِ في أسرع وقتٍ ممكن، قليلٌ منهم لديه حماسٌ وشغفٌ بالعمل، يتفاخر هؤلاء بمهارتهم ويمتلئون فَخرًا حين يصفون أنفسهم بأنهم أبطال، يؤدي الغالبية عملهم الشاق والملل يعتريهم، تتوشحُ محادثاتهم عمَّن اصطادوهم بالكراهية؛ كراهيةٌ لمسها يافسي في حديث ساشا مثل ماءٍ يغلي.

الجاسوسُ ملنيكوف مختلفٌ عن الباقين؛ رجلٌ عظيمُ البنية كثيفُ الشعر غليظُ الصوت، يسير مُنحنيَ الرقبة، قليلُ الكلام، عيناه الداكنتان دائمتا التوتر كما لو كانت في بحثٍ مستمر. بدا ليافسي أن الرجل يفكِّر في شيء فظيع.

كراسافين وسولوفيوف مختلفان عن الآخرين أيضًا؛ الأول بسبب خبثه الدفين، والآخر برضاه الذي كان يتحدث به حين يتطرق إلى الصراعات وسفك الدماء والنساء.

أمَّا ياكوف زاروبين فالأشهر بين الشباب، كثيرُ التململ، يطرح الأسئلة باستمرار على الآخرين، حين يستمع إلى الحديث عن الثوَّار يُقطِّب حواجبه غاضبًا ويشرع في تدوين الملاحظات في دفتره الصغير، حاول أن يعمل لدى جميع الجواسيس المهمين على الرغم من أن أحدًا لم يعجبه وكان دفتره موضع شكٍ بالنسبة لهم.

يتحدَّثُ الغالبية العظمى عن الثُوَّار دون مبالاة، وفي بعض الأحيان يصفونهم بالرجال الغامضين الذين سببوا لهم التعب والنصب، يأتون بذكرهم في أحيانٍ أخرى من أجل المرح والتسلية، يتحدثون عنهم بين الفينة والأخرى بغضب كطفلٍ يستحق العقاب بسبب وقاحته. انتاب يافسي شعورٌ أن جميع الثُوَّار فارغون، غير جادين، لا يعرفوا ما يريدون، ويتسببون في الاضطرابات والفوضى.

سأل يافسي بيوتر في إحدى المرات قائلًا: «قلت لي أن الألمان يُقدِّمون الرشاوي للثُوَّار، لكني أسمع الآن حديثًا مختلفًا».

سأل بيوتر غاضبًا: «ماذا تقصد بمختلف؟».

ردَّ يافسي: «سمعت أنهم فقراء وأغبياء، ولم يتحدث أحدٌ عن الألمان».

أجابه بيوتر: «اذهب إلى الجحيم يا أخي! أليس الأمر سيان بالنسبة لك؟ افعل ما يُطلب منك القيام به؛ لونك يناسب ورقة الديمن لذا اختر أن تلعب بالديمن».

يستمعُ يافسي إلى نقاشاتهم التي يتداولونها بملٍ فيما بينهم؛ ردُّهم الشائع على بعضهم: «أنت لا تفهم شيئًا يا أخي»، والرد المقابل: «ماذا عنك؟»، فيجيبه: «يستحسن بي أن أصمت».

حاول كليميكوف الإبتعاد قدر الإمكان عن ساشا؛ فوجهه المشؤوم مصدرُ قلقٍ له، أما رائحة مُطهِّر اليودوفورم التي تنبعث منه وصوته القبيح فيشعران يافسي بالاشمئزاز.

يصرخ ساشا متحدثًا عن المسؤولين قائلًا: «الأوغاد! يُغدِقون عليهم الملايين ويُلقون علينا القطع النقدية الصغيرة، يبدِدُون مئات الآلاف من النقود على النساء وعلى من يوهموننا بأنهم يعملون من أجل مصلحة المجتمع؛ الثورات لا تشتعلُ من الطبقة الراقية...أيها الأغبياء... وإنما يشتعلُ فتيلها من أسفل أقدامكم؛ من عامة الناس، أعطوني خمسة ملايين وفي شهر واحدٍ سترون الثورة في الشارع؛ سأنقلها من الزوايا المظلمة إلى وضح النهار، وبعدها يمكنكم ردعها!».

هذه هي خطط ساشا الرهيبة لإبادة من يسبب المشاكل، انتهى من شرح هذا المخطط فضرب الأرض بقدميه، مدَّ ذراعيه وهما ترتجفان، مزَّق الهواء بأصابعه الصفراء، بصق على الأرض، بات وجهه شاحبًا وعيناه محمرَّتين.

نظر يافسي إليه حينها بنظرة كرهٍ وخوفٍ في الوقتِ ذاته، يحرصُ على إخفاء اشمئزازه من مرضه، حتى أن مكلاكوف وحده يتجنَّبُ الاحتكاك بهذا الرجل المريض ولا يمُدُّ يده عند التحية. ساشا بدوره يتهكَّم من الكُلِّ ويشتمُ جميع رفاقه جاعلًا إياهم تحت قدميه، لكنه وضع مكلاكوف في مكانةٍ خاصة؛ يُعامله بِجِدِّيّة، يتحدثُ إليه أكثر من الآخرين، لم يعامله قط معاملةً سيئةً أو يخطأ في حقه حتى في غيابه.

في إحدى المرات خرج مكلاكوف دون الاستئذان منه كالعادة فراح يصرخ قائلًا: «هذا النبيلُ مفرطٌ في حساسيته، لا يريد أن يقترب مني، لديه الحق في ذلك، فليذهب إلى الجحيم! عاش أسلافه في بيوتٍ مترفة، يتنفسون هواءً نقيًا، يأكلون طعامًا صحيًا، يرتدون ملابسَ داخليةً نظيفة؛ وهو أيضًا مثلهم، لكنني فلاحٌ بسيط؛ ولدتُ وترعرعت مثل الحيوانات بين القاذورات والقمل، طعامنا الخبز الأسود الخشن، دمه أفضل من دمي، بل في الواقع دمه وعقله كذلك؛ العقل شقيقُ الروح».

توقّف عن الحديث هُنَيْهَةً وأضاف بصوتٍ منخفض وبنبرةٍ كئيبة: «يتحدث البلهاء والدجالون عن المساواة بين البشر، هذا الأرستقراطي ينتهكُ المساواة لأنه وغدٌ ووقحٌ ولا يستطيع فعل أي شيء بنفسه، يطلبُ منَّا أن نكدَّ ونكدح من أجل أن يعيشوا حياةً مُترفة؛ هذه هي المساواة في نظرهم».

لم يتلقَ حديث ساشا ردًا من الجواسيس الآخرين، لم يجذب انتباههم أو يثير حماسهم فاستمعوا إلى هديره في صمتٍ غير مبالين، لكن ملنيكوف أيَّده فيما يقول مُتحدثًا كالمحققين؛ فقال وهو يومئ برأسه القاتم الأشعث ويشدَّ قبضته القوية: «نعم! جميعهم مخادعون».

صرخ ساشا: «يجب أن يُقتلوا جميعًا كما يَقْتلُ الفلاحُ لصوص الخيول».

قاطعهم تشاشين لاعب البلياردو الشَهير ذو الشعر المجعد والجسد النحيف والأنف الحاد قائلًا: «رُبَّما يكونِ القتلُ أمرًا مبالغًا فيه، لكنَ لكمةً على الوجه قد تكون أكثر نفعًا؛ فمنذُ حوالي أسبوع كنتُ ألعب الورقَ في فندق كونونوف مع أحدهم، حدَّثتني نفسي أن وجهه مألوفٌ لكني لم أستطع تمييزه،

حدَّق في وجهي بدوره فقلتُ في نفسي «دعك كما أنت ولا تَغيِّر من تصرفاتك»، راهنته على ثلاثة روبلات وست زجاجات من الجعَّة، وبينما كنا نشرب الخمر قام فجأةً من مكانه وقال لي: «أنا أعرفك فقد كنتَ جاسوسًا عندما كنتُ في الجامعة، وبسببك دخلتُ السجن لأربعة أشهر، يا لك من وغد»، في البداية كنت خائفًا لكن أحسستُ بالإهانة فرددت عليه قائلًا: «لم تدخل السجن بسببي بل بسبب سياساتكم التي لا أخاف منها بتاتًا، لكن دعني أخبرك شيئًا؛ تَعين عليَّ أن أجري خلفك ليلًا ونهارًا وأطاردك في البردِ والحر تحت الشمس والمطر؛ الأمرُ الذي جعلني أرقدُ في المستشفى لثلاثة عشر يومًا»، أراد هذا الخنزير أن يهاجمني بكلامه، لم تره كيف يتناول تلك الأطعمة الدهنية! مرتدياً ساعةً ذهبية، وواضعًا دبوسًا ماسيًا على ربطة عنقه».

قاطعه زميله أكيم جروخوتوف ذو الوجه الذي يشبه الممثلين قائلًا: «أعرف رجالًا مثله أيضًا؛ عندما يكونون في شبابهم يمشون على رؤوسهم؛ وعندما تحين السنوات الحرجة في حياتهم يبقون في منازلهم، يعيشون في سلام مع زوجاتهم، ومن أجل كسب لقمة العيش يوافقون على دخول قسم الأمن معنا؛ إنه قانون الطبيعة».

أردف ملنيكوف قائلًا: «هناك أشخاصٌ بينهم لا يستطيعون فعل أي شيء سوى أن يكونوا ثوَّاراً؛ هؤلاء هم الأخطر».

قاطعه كراسافين وهو يدوِّر عينه الحولاء قائلًا: «نعم...نعم».

خسر بيوتر في إحدى المرات كثيرًا في لعبة الورق فقال بنبرةٍ متعبةٍ وغاضبة: «متى ستنتهي حياتنا هذه التي نعيشها كالكلاب؟».

نظِر إليه سولوفيوف وأخذ يلعق شفتيه قائلًا: «لا نحتاج إلى قولِ هذه الأشياء في عملنا؛ عملنا بسيط؛ كلُ ما علينا فعله هو أن نراقب شخصًا أخبرنا عنه المسؤولون، أو أن نختار هذا الشخص بأنفسنا، ومن ثمَّ نشرعُ في جمعِ المعلومات عنه وتدوين الملاحظات حوله، وبعدها نبلِّغ السلطات ليتصرفوا كما يحلو لهم، لا يهمناَ حتى لو سلخوا جلودهم أحياءً، السياسة لا تهمنا. عملَ في قسمنا في إحدى المرات رجلٌ يُدعى جريشا سوكوفنين، فكَر في مثل هذه الأشياء وانتهى به المطاف في مستشفى السجن ولقى حتفه جراء إصابته بمرض السل».

يسير حديثهم على النحو التالي في الغالب:

يبدأ فيكوف المتواضع والهادئ ذو الشعر المستعار والملابس الأنيقة الحديث ويقول: «قبضنا على ثلاثة رجال بالأمس».

فيجيبه شخصٌ ما بنبرةٍ غير مبالية: «أخبارٌ رائعة!».

لكن فيكوف يخبر رفاقه بِكُلِّ ما يعرفه سواءً أرادوا الاستماع إليه أم لا، تشتعل شرارة من العناد في عينيه الصغيرتين فيتابع حديثه: «يبدو أن هؤلاء الثُوَّار يحيكون المؤامرات مرةً أخرى في شارع

نيكيتسكايا... يا لها من أحداثٍ عظيمة، يا لهؤلاء الحمقى! جميع حرّاس المباني في ذلك الشارع يتمتعون بخبرةٍ كبيرة، هؤلاء الحرَّاس يساعدوننا كثيرًا!».

يتابع فيكوف حديثه بحذر: «نعم إنهم كذلك في الواقع؛ لكن من الممكن رشوة هؤلاء الحراس، وأنتم أيضًا؛ يُمكن رشوة الجميع... فالمال لا يستثني أحدًا. هل سمعتم يا رفاق عن سيكاشيف؛ ربح سبعمائة روبل من لعبة الورق بالأمس، يا له من مخادعٍ يغش في اللعبة، ليس مخادعًا بل ساحراً!».

ينظر فيكوف حوله ويبتسم محرجًا ثم يسكت هُنَيْهَةً ويمسح ملابسه.

يُعاود الحديث قائلًا: «هناك بيانٌ جديد، بل أن هناك الكثير من البيانات، الشيطان وحده يعرف الجديد من القديم منها، هناك شرٌ كبيرٌ فيها، لا أحدَ يقرأها منكم، يأتينا فيليب فيليبوفيتش ويخبرنا عن بيانٍ جديد، يا لجنون هذا الرجل».

يردُّ عليه جروخوتوف مبتسمًا: «الجنون صفةٌ ملازمةٌ لمسؤولينا؛ هذا هو قانون الطبيعة»، فيدور بينه وبين فيكوف الحوار التالي:

ـ «من يقرأ تلك البيانات؟».

ـ «يقرؤونها جيدًا...كثيرًا».

ـ «حسنًا، ما الجدوى منها؟ قرأتها أيضًا، لكنّها لم تنفجر بي وتصبغني بالسواد؛ بقيت على حالي رجلٌ محمرُّ الشعر، البيانات لا تخيفنا إنما القنابل تفعل ذلك».

ـ «بالطبع».

ـ «البيانات لا تنفجر».

من الواضح أن الجواسيس لا يحبون الحديث عن القنابل، ففي كلِّ مرةٍ يأتي ذكرها يبذلون جهدًا مضنيًا لتغيير الموضوع.

استأنف فيكوف حديثه وقال: «سُرقت مجوهراتٌ تساوي أربعين ألف دولاراً في كازان، أربعون ألف! يا للعجب!».

سأله أحدهم: «هل قبضوا على اللصوص؟».

ردَّ بنبرةٍ حزينة: «سوف يقبضون عليهم، سيقضون وقتًا ممتعًا قبل القبض عليهم!».

بدأ الحسدُ يشتعل في صدور الجواسيس الغارقين في أحلامهم بالحفلات المترفة والمقامرة والنساء الجميلات.

ملنيكوف يتحدَّثَ عن الحرب أكثر من الآخرين، فتراه يسأل مكلاكوف الذي يطالع الصحف بعناية قائلًا: «أما زالوا يُلحقون بنا الهزيمة؟»

مكلاكوف: «نعم».

صاح ملنيكوف في حيرةٍ وأدار عينيه قائلًا: «لكن ما السبب؟ أليس لدينا ما يكفي من المقاتلين أم ماذا؟».

ردَّ مكلاكوف بنبرةٍ جافة: «ليس لديهم روحٌ عالية، والجنود مستاؤون لأنهم سمعوا أن الجنرالات يستلمون الرشاوى».

قاطعهما كراسافين قائلًا: «كلامك صحيح، هؤلاء لا ينتمون إلى روسيا... ماذا يعني دمنا بالنسبة لهم؟».

قال سولوفيوف مبتسمًا ابتسامةً غريبة: «الدم رخيصٌ في أعينهم».

لا يُحبذُّ الجواسيس الحديث عن الحرب، يشعرون أنهم مقيدون عند الحديث عن هذا الأمر ويخشون أن ينطقوا بكلمةٍ خطيرة، حين وصل إليهم خبر الهزيمة شربوا النبيذ أكثر من المعتاد وأصبحوا سكارى مما جعلهم يتشاجرون على أسبابٍ تافهة.

يُحاول يافسي في مثل هذه الأيام تجنُّب الشجارات فيهرب دون أن يلاحظه أحد إلى غرفته الفارغة، يُفكِّرُ هناك في حياة الجواسيس؛ بدا هؤلاء الجواسيسُ تُعساء في حياتهم، يعيشون حياتهم في عزلة لدرجة أن يافسي بات يُشفقُ عليهم؛ ومع ذلك تعيَّن عليه مجالستهم والاستماع إلى أحاديثهم.

يستشيط ساشا غضبًا في الاجتماعات ويلقي شتائمه قائلًا: «أيها الوحوش! أنتم لا تفهمون شيئًا... لا يمكنكم فهم أهمية عملنا... أيها الوحوش الضارية!».

يبتسمُ بعضهم باستهجان ردًا عليه بينما يبقى الآخرون في صمتهم.

في بعض الأحيان يردُّ عليه أحدهم قائلًا: «لا نتوقع منك ثقافةً عالية بالنظر للأربعين روبل التي تتقاضاها شهريًا».

يردُّ عليه ساشا: «يجب أن تُمسح من على وجه الأرض».

أصبح كليمكوف يكره ساشا أكثر فأكثر، ويتعمَّق هذا الكره أكثر لكون هذا الرجل المريض منبوذًا من الآخرين.

كثيرٌ من الجواسيس كانوا مرضى بسبب خوفهم المستمر من الهجمات والموت، دفع الخوف بعضهم إلى دخول المصحات العقلية كما حدث مع يليزار تيتوف.

قال بيوتر منزعجًا: «كنت ألعب في النادي بالأمس وشعرتُ بشيءٍ يضغطُ على مؤخرة رقبتي وبرودةٌ تسكن عظامي، فنظرت حولي فإذا برجلٍ يقف في الزاوية ينظر إليَّ كما لو أنه يقيسني شبرًا شبرًا، لم أتمكن من مواصلة اللعب فنهضت من الطاولة ورأيته يتحرك، حينها عاودت أدراجي وهربت إلى الأسفل نحو الفناء ثم إلى الشارع وركبت سيارة أجرة وجلست فيها وحين نظرتُ إلى الخلف ظهرَ الرجل أمامنا وعبر الشارع بسرعة الحصان، ربما لم يكن هو ذات الرجل ولكن في مثل هذه الحالة لا يمكنك أن تفكر، صرخت صرخةً عالية فتوقف السائق وقفزت من السيارة فارًّا وسائق الأجرة يلاحقني، ركضتُ كما لم أركض من قبل، اللعنة عليه!».

قال جروخوتوف وهو يبتسم: «مثل هذه الأشياء تحدث، اختبأت ذات مرة لسببٍ مشابهٍ في الفناء، لكن الأمر بدا أشدَّ فظاعة هناك، فقد تسلقت إلى السقف وجلست هناك خلف المدخنة حتى بزوغ النهار، يجب أن نحمي أنفسنا من الآخرين، هذا هو قانون الطبيعة».

في يومٍ من الأيام دخل كراسافين شاحب الوجه شاخص العينين يتصبب عرقًا.

قال وهو يضغط على صدغه: «كانوا يلاحقونني».

قال له سولوفيوف وهو يهدئ من روعه: «من هم؟».

كراسافين: «هم».

سولوفيوف: «الكثير من الناس يسيرون في الشوارع يا صاح، ماذا دهاك؟».

كراسافين: «شعرت أنهم كانوا يلاحقونني من طريقة مشيهم».

لم يرَ يافسي كراسافين لأكثر من أسبوعين منذ ذلك الحين.

كان الجواسيس يعاملون كليمكوف معاملةً حسنة، لم يضايقه ضحكهم على تصرفاته، حين يشعر بالحزن على أخطائه يقولون له مهدئين: «سوف تعتاد على هذا العمل».

لم يكن يافسيي على علم بمواعيد عمل الجواسيس؛ حيُّره هذا اللغز وحاول فكَّ شفراته، بدا له أنهم يقضون جلَّ وقتهم في المقاهي، ويرسلون الجواسيس المبتدئين وغيرهم من الجواسيس عديمي الأهمية للقيام بعملهم.

علِم يافسي أن هناك جواسيسًا آخرين غير أولئك الذين يعرفهم؛ جواسيسٌ متهورون لا يهابون شيئًا اختلطوا مع الثُّوَّار وعُرفوا باسم المُحرّضين، لم يكن هناك سوى عددٍ قليل منهم؛ بيْدَ أن هؤلاء القلة كانوا ينجزون أغلب الأعمال ويديرونها بأنفسهم، لدرجة أن السلطات كانت تمنحهم الكثير من المكافآت، في حين يشتعلُ جواسيس الشوارع حسدًا من الجواسيس المحرّضين ويُجمعون على كرههم بسبب مكانتهم.

في إحدى المرات وبينما كان يافسي يمشي برفقة جروخوتوف في الشارع أشار إلى أحد هؤلاء المحرّضين قائلًا: «انظر يا كليمكوف إلى هذا الرجل بسرعة!».

رجلٌ قويُّ البنية طويلُ القامة يسير بمحاذاة الرصيف، ناعمُ الشعر تتسدل خصلاته من تحت قبعته إلى كتفيه، عريضُ الوجه بهيُّ الطلّة كبيرُ الشارب، شخصيته الرزَينة توحي بأهميته وانتمائه إلى طبقة النبلاء.

قال جروخوتوف بنبرةٍ يعلوها الفخر: «هل ترى هذا الرجل؟ منظره جميل أليس كذلك؟ هذا هو حارسنا، لقد سلّم 20 رجلًا أرادوا تفجير قنبلة، لقد ساعدهم في البداية على صنع القنبلة بنفسه وعلّمهم الطريقة ليفجروا بها أحد الوزراء؛ ثمَّ سلَّمهم للسلطات؛ أليس هذا عملًا ذكيًا؟».

ردَّ يافسي والدهشة تسكن ملامح وجهه: «نعم»، بدا مندهشًا من مظهر الرجل الرائع على عكس جواسيس الشوارع المزدحمة الصاخبة.

تابع جروخوتوف حديثه قائلًا: «هؤلاء هم الجواسيس الحقيقيون؛ لديهم وجوه الوزراء وشخصياتهم؛ لكن من نحن...من؟ لسنا إلّا فقراء، نحن عالةٌ على هؤلاء النبلاء».

تنهَّد يافسي وأحس بغيرةٍ تشتعل بداخله من هذا الجاسوس الرائع.

كان يافسي مستعدًا لخدمةِ أي شخصٍ بُغيةَ سماع كلمةٍ طيبة أو تلقي نظرةٍ جميلة، يجوب المدينة يبحث ويسأل ويبلغُ عمَّا يسمعه، حين ينجحُ في إرضاء من يخدمه يُحسُّ بالسرور في قلبه ويشعرُ بالتقديرٍ لذاته، يُجهد نفسه في العمل كثيرًا، لم يكن لديه وقت للتفكير.

بدا مكلاكوف ذو الشخصيةِ المتحفظةِ والجادةِ أفضل وأنقى بالنسبة ليافسي من أي شخصٍ قابله، أراد دائمًا أن يسأله عن شيءٍ ما وإخباره عن نفسه، بدا معجبًا بالوجه الجذاب لهذا الجاسوس الشاب.

طرح يافسي مرةً سؤالًا عليه قائلًا: «يا تيموفي فاسيليفيتش، كم يتلقى الثُوَّار شهريًا؟»، أحسَّ مكلاكوف بظلٍ يغطي عيونه المشرقة وأجابه غاضبًا: «ما هذا الهراء الذي تتحدث عنه؟».

مرت الأيام مرورًا سريعًا؛ كلُّ يوم يشبه الذي يسبقه، أحسَّ يافسي في بعض الأحيان أنَّ المستقبل لن يحمل له شيئًا جديدًا، بات كلُّ شيءٍ مألوفًا بالنسبة له؛ المحادثات والمطاردات؛ اعتاد عليها كلها، باتت روحه وجسده يشعران بالملل من كل هذا التفكير؛ فكلُّ شيءٍ أصبح فارغًا حوله، كليمكوف على وشكِ الإنزلاق إلى حفرةٍ لا قاع لها.

الفصلُ السادس عشر

دخل الشتاء نصفه الأول فارتعش كل شيءٍ في الكون وارتعد، فتح الناسُ عيونهم والقلق يعتريهم، أصبحت الإيماءات لغة حديثهم، دخلوا في خلافات شديدة وأخذوا يشتمون بعضهم البعض، اجتاحت العاصفة المكان فقضَّت مضاجعهم وأعمتهم وجعلتهم يَفرون نحو مكانٍ واحد.

ذات ليلة عند توجَّه كليمكوف إلى قسم الأمن لتسليم تقريرٍ عاجلٍ عن تحقيقاته، وجد شيئًا غريبًا ومبهمًا في المكان؛ تغيَّرت وجوهُ الموظفين والعملاء والكُتَّاب، بدا كلُّ شيءٍ غريبًا حولهم، كانوا مندهشين ومبتهجين في آنٍ واحد، فمرةً تراهم يتحدثون بنبرةٍ منخفضة وغامضةٍ، وفجأةً يتحدثون بصوتٍ عالٍ وغاضب، يركضون من غرفةٍ لأخرى، يستمعون إلى بعضهم البعض، عُيونهم تحمِلُ قلقًا وربكة، يهزّون رؤوسهم ويتنفسون الصعداء، يتوقفون فجأةً عن الحديث ثم يعاودون صَخَبَهم وجَدَلَهم، اجتاحت دوامةٌ من الخوف والحيرة أرجاء المكان، تراهم يتلاعبون بعجز الرجال والنساء أمامهم، يدفعونهم في مكانٍ واحدٍ كالغبار، يجمعونهم في كومةٍ واحدة وينثرونهم بعدها في كلِّ حدبٍ وصوب. بدا كليمكوف المنزوي في أحدِ أركان القسم في غاية القلق مستمعًا إلى حديثهم استماع المصغي.

رأى يافسي ملنيكوف مُنكسًا رقبته وهو يضع يديه المشعَّرتين على أكتاف أشخاص آخرين ويسألهم بصوتٍ منخفضٍ أجوف: «لماذا فعلوا ذلك؟».

صاح سولوفيوف: «ما الذي جنيناه من تلك الدماء التي سُفكت؟ سقط مئات القتلى والجرحى! يجب أن يعيش الشعب لا أن يُقتل!».

صاح ساشا بصوته البغيض الذي يصمُّ الآذان قائلًا: «يجب أن يلقوا القبض على الكاهن قبل كلِّ شيء، يا لهؤلاء الحمقى!».

كان كراسافين يمشي واضعًا يديه خلف ظهره وهو يقضم شفتيه ويحرِّك عينيه في كل اتجاه.

ظلّ فيكوف هادئًا وجلس بقرب يافسي وهو يدير أزرار سترته وقال: «ما هذه الحالة التي وصلنا إليها! يا إلهي! وصلنا إلى إراقة الدماء! ما رأيك فيما حدث يا يافسي؟».

ردَّ يافسي: «ماذا حدث؟».

نظر فيكوف حوله بحذر، أمسك بيد كليمكوف وهمس قائلًا: «توجَّه مجموعةٌ من الناس في سان بطرسبرج برفقة أحد الكهنة وهم يحملون لافتات مقدسة إلى الإمبراطور القيصر؛ لكن لم يُسمح لهم بالدخول، كان الجنود متمركزين هناك فسالت الدماء».

وبينما هما في حديثهما جاء رجلٌ وَسيمٌ يُدعى ليونتيف نظر إلى فيكوف من طرف نظارته قائلًا: «أين هو فيليب فيليبوفيتش؟».

اختفى ليونتيف دون انتظار الردِّ فركض فيكوف وراءه.

أغمض يافسي عينيه لدقيقة محاولًا معرفة معنى ما قيل له، يمكنه بسهولة تخيّل مجموعةٍ من الناس يمشون في الشارع في مسيرةٍ مقدسة، لكنه لم يستطع فهم سبب إطلاق النار عليهم؛ فظلّ يفكّر في الأمر، استولت مشاعر الإنزعاج والإعياء على يافسي بسبب الجو المشحون هناك، ودَّ لو أنه يستطيع أن يتحدث أكثر مع الجواسيس الذين يعرفهم لكنه لم يتمكن من اتخاذ قراره بتقليص المسافة والاقتراب؛ فاختلى في زاويةِ المكتبِ دون أن يقول شيئًا.

مرَّ بجانبه العديد من الأشخاص الذين اعتقد أنهم يبحثون عن زاويةٍ صغيرةٍ يمكنهم لملمة أفكارهم فيها.

ظهر مكلاكوف فجأةً، وقف بالقرب من الباب واضعًا يديه في جيوبه، نظر إلى الجميع، اقترب ملنيكوف منه قائلًا: «هل فعلوا ذلك بسبب الحرب؟».

ـ «لا علم لي».

ـ «ما هو السبب؟ كانوا مجرد أشخاصٍ عاديين، هل حدث الأمر بالخطأ؟ هل تعلمُ ما هي طلباتهم؟».

ـ «الدستور».

هزَّ الجاسوس الهزيل ملنيكوف رأسه قائلًا: «لا أصدق ذلك».

ـ «كما يحلو لك».

التفت ملنيكوف إليه مثل دبٍ ومشى وهو يقول متذمرًا: «لا أحد يعرف الحقيقة، يا لهذه الضجة التي أثاروها في البلاد!».

توجَّه يافسي نحو مكلاكوف الذي كان ينظر إليه فقال له: «ماذا تريد؟».

«لدي تقرير».

أخذه مكلاكوف على انفرادٍ وقال له: «من يكترث بالتقارير في هذا اليوم!».

اقترب يافسي منه وقال: «تيموفي فاسيليفيتش، ماذا يعني الدستور؟».

أجابه الجاسوس بصوتٍ منخفض: «نظامٌ مختلفٌ للحياة».

دخل سولوفيوف وهو يركضُ والعرق يتصبب منه ووجهه محمَّر وقال: «هل سيرسلوننا إلى سان بطرسبرج؟».

ردَّ عليه مكلاكوف: «لا علم لي».

سولوفيوف: «أعتقد أنهم سيفعلون ذلك، يا لفظاعة هذا الأمر! إنها ثورة! ثورةٌ حقيقية».

مكلاكوف: «سنعرف ذلك في الغد».

سولوفيوف: «كم من الدماء التي سُفكت؟ ماذا استفادوا من إراقة الدماء؟».

باتت عيون مكلاكوف مرتبكة، كتفاه منخفضتان على غير عادتهما، شاربه يكادُ يُلامس الأرض.

يبدو أن هناك شيئًا يثورُ في دماغ يافسي، ظلَّت كلمات مكلاكوف الغامضة تُكرّر نفسها: «نظامٌ مختلف للحياة... مختلف».

استحوذت هذه الكلمات على قلبه وأثارت رغبةً حادةً بداخله لمعرفة معناها، لكن الأشياء حوله تداخلت وتبعثرت هنا وهناك؛ صوتُ ملنيكوف الغاضب يرنُّ في أذنيه: «يجب علينا معرفة ما فعله هؤلاء، ويجب أن نُفرِّق بين العاملين والمقيمين هناك، فدورُ كل مجموعةٍ مختلفٌ تمامًا».

قاطعه كراسافين بنبرةٍ واضحة قائلًا: «إذا بدأ الناس في التمردِ على القيصر فلن يكون هناك شعبٌ بعد الآن؛ وإنما متمردون فحسب».

ردَّ عليه ملنيكوف: «لننتظر ونرى ما سيحصل، يبدو أن هناك تدليسًا وتضليلًا في الموضوع».

قال زاروبين ليافسي وهو يتجه نحوه ويهمس: «مرحبًا أيها الماكر، لقد واجهت عملًا صعبًا، هيا لأخبرك عنه».

تبعه كليمكوف صامتًا لمسافةٍ بسيطة ثم توقف وقال: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

«سنذهبُ إلى الحانة، هناك فتاة تُدعى مارجريتا، أحد معارفها يعمل في بيعِ القبعات ويُقيمُ جلساتِ قراءةٍ في مسكنه يوم السبت، يجتمعُ فيها الطلبةُ وأشخاصٌ آخرون معه، سأقطّعهم إربًا إربًا!».

قال يافسي له: «لن أذهب معك».

أجابه زاروبين: «آهٍ منك».

غيّب يافسي قلبه في بحرٍ عميقٍ من المشاعر الغريبة التي حالت بينه وبين فهم ما يحدث، خرج من المبنى دون أن يلاحظه أحد، حاملًا معه هاجس المحنة الوشيكة، محنةٌ تترصده وتمدُّ ذراعيها

لتَمسك به، اعترى قلبه خوفٌ وحزنٌ، أخذ يمشي بين المنازل منتظرًا هذه القارعة التي ستحل بهم، أخذ يسترجع تلك الوجوه المضطربة والأصوات المنْفعِلة، أخذ يسترجع أحاديثهم المتقطِّعة عن الموت الزُّؤَامُ والدماء المسفوكة والمقابر الضخمة التي ضمت عشرات الجثث مثل القمامة.

يجلسُ عند النافذةِ في المنزل لفترةٍ طويلةٍ وهو ينظرُ إلى الضوءِ الأصفر لمصابيح الشارع، يرى المارةَ يسيرون على عجلٍ تحت نور المصابيح ثمَّ يغرقون في ظلام دامسٍ مرةً أخرى؛ وكذا الأمرُ في رأسِ يافسي؛ ضوءٌ خافتٌ يلقي بنوره الباهت في مساحةٍ ضيقةٍ من رأسه لتسير فيها الأفكار الغبية والغامضة مُحاولةً الإمساك ببعضها البعض بلا جدوى ككفيفٍ يتحسس طريقه، تزحفُ في رأسه زحفًا بطيئًا؛ تُحاول لملمة نفسها في مكانٍ واحدٍ مثل أسراب البعوض، على حين غرةٍ ينفك الحبلُ الرفيعُ الذي ربطها ببعضها البعض فتختفي من رأسه دون أن تترك أثرًا، باتت روحه الخاوية كصحراءٍ لا نورَ يضيئُها إلاَّ نورٌ باهتٌ من قمرٍ حزين.

مرت الأيام بثقلها، مليئةٌ بالأخبار الفظيعة حول الدمار الشديد الذي لحق بالشعب. بدت هذه الأيام تسير ببطءٍ شديدٍ وكأنها وحوشٌ سوداء عمياء، أيامٌ غرقت بالدماء التي سالت فيها، تزحف هذه الأيامُ كوحوشٍ تفتح فكوكها الضخمة على مصراعيها وتنفُثُ سمومها في الهواء. أخذ الناسُ يركضون، بعضهم يسقط أرضًا؛ آخرون يصرخون ويولولون ويبكون، امتزجت دموعهم بدمائهم، شرع هذا الوحش الأعمى في تدميرهم وسحقهم شيبًا وشبانًا نساءً وأطفالًا، يسوقهم نحو الهلاك، الهلاك على يدِ من يملك زمام حياتهم، دفعهم نحو الخوف...خوفٌ قاتمٌ كغيومٍ وسطَ عاصفةٍ هوجاء، خوفٌ كتيارِ نهرٍ جارف.

على الرغم من أن هذه الأحداث وقعت بعيدًا في مدينةٍ غريبةٍ أحسَّ يافسي أن الخوف يكتنف كلَّ زاويةٍ من زوايا البلاد، أحسَّ به في كل مكانٍ حوله.

لم يجد أحدٌ تفسيرًا لهذه الأحداث، عجزت عقولهم عن استيعابها، وقف الناسُ عاجزين عن حلِّ هذا اللغز الذي قذف في قلوبهم الرعب، يجلسُ الجواسيس في أماكن اجتماعهم من الصباح حتى الليل؛ يقرأون الصحف ويشربون النبيذ، يجتمعون كل يوم في قسم الأمن، تنشبُ الخلافات بينهم، يجلسون بقرب بعضهم البعض، ينتظرون حدوث شيءٍ ما بفَارغ الصبر.

ظلَّ ملنيكوف يكرر سؤاله: «هل يستطيع أحدٌ أن يخبرنا بالحقيقة؟».

في إحدى الليالي بعد أسابيعٍ قليلةٍ من حدوث تلك الواقعة اجتمع الجواسيس في قسم الأمن، ألقى ساشا خطابًا قال فيه بنبرةٍ حادة: «دعونا نتوقف عن هذا الكلام التافه، هذه خطة رسمها اليابانيون؛ فقد منحوا الأبَ جابون 18 مليون روبل لتحريض الشعب على الثورة، فساروا إلى الشوارع وهم سكارى متجهين نحو القصر؛ أمر الأبُ الثوَّار باقتحام عددٍ من محلات النبيذ، هل تعون ما أقوله لكم؟».

أخذ يحرِّك عينيه المحمرتين وينظر إلى الحضور كما لو أنه يبحث عن الذين اختلفوا معه، ثمَّ تابع حديثه: «ظنّوا أن القيصر الذي يُحبُّ شعبه سيخرج إليهم لكي يقتلونه حال خروجه، هل اتضح الأمر

لكم؟».

صاح ياكوف زاروبين وهو يكتبُ شيئًا ما في دفتر ملاحظاته: «نعم كلامك واضح».

صرخ ساشا بصوتٍ غاضب: «أيها الحمار! أنا لا أسألك أنت بل أسأل ملنيكوف، هل كلامي واضح؟».

ملنيكوف منزوٍ عنهم، يُمسك رأسه بكلتا يديه ويتمايل يمنةً ويسرةً وكأن أسنانه تؤلمه، ردَّ عليه وهو في مكانه قائلًا: «تضليل وخِداع!»، تردد صوته على الأرض كما لو أن شيئًا ثقيلًا سقط أرضًا.

كرر ساشا ما قاله ملنيكوف: «نعم تضليلٌ وخداع». شرع مرةً أخرى في التحدث على عجل وهو يتحسسُ جبينه ثم ينظر إلى أصابعه ويمسح بها ركبتيه.

أحسَّ يافسي برائحةٍ عفنةٍ تخرجُ من كلماته، يستمع إليه وهو يقطِّب جبينه، فَهِمَ كل ما قاله الجاسوس؛ لكن حديثه لم يستطع محو تلك الصورة السوداء لذلك اليومِ الدامي.

انغمس الجميع في صمتهم، يهزُّون رؤوسهم بين الحين والآخر، تجنبوا النظر إلى بعضهم البعض، عمَّ الهدوءُ والغموضُ أرجاء المكان، بقت كلمات ساشا عائمةً على رؤوس المستمعين ولم تدخل قلوبهم.

انفجر ملنيكوف فجأةً قائلًا: «إذا كانوا يعرفون أنهم قد ضَللوا الشعب وخدعوهم، فلماذا قتلوهم؟».

صرخ ساشا قائلًا: «يا لك من أحمق! لنفترض أنّ أحدهم قال لك أنَّي عشيقُ زوجتك، ثمَّ شربتَ الخمرَ حتى أصبحتَ مخمورًا وجئتني وفي يدك سكين، فكيف سأتصرف معك؟ هل سأقول لك اطعني بالسكين على الرغم من أنك تعرضت للخداع ولم أكن مذنبًا في حقك؟».

وقف ملنيكوف على قدميه ومدَّ يديه وصاح قائلًا: «لا تنبح أيها الكلب!».

ارتعش يافسي من كلماته وبجانبه فيكوف الذي بدا خائر القوى، همس خائفًا: «يا إلهي! تمالك أعصابك».

كزَّ ساشا على أسنانه، وضعَ إحدى يديه في جيب معطفه وتراجع إلى الوراء، جلس جميع الجواسيس ـ كان هناك الكثير منهم في الغرفة ـ صامتين بلا حراك، منتظرين وهم يصوبون أنظارهم نحو يد ساشا، لوَّح ملنيكوف بقبعته ومشى ببطء نحو الباب وقال: «أنا لا أخاف من مسدسك».

أغلق الباب بقوةٍ ولحق به فيكوف لإقفاله، عاد إلى مكانه وقال: «يا له من رجلٍ خطير!».

تابع ساشا حديثه وهو يُخرجُ مسدسًا من جيبه وينظر إليه قائلًا: «حسنًا، سيذهب كل واحدٍ منكم إلى العمل صباح الغد؛ هل تسمعوني؟ ضعوا في الحسبان أنَّ مهمتكم أصبحت أهمَّ من ذي قبل؛ سيذهب عددٌ منَّا إلى سان بطرسبرج، يجب عليكم خلال هذه الفترة أن تفتحوا أعينكم وآذانكم على مصراعيها لأن الناس سيبدؤون بالثرثرة حول هذه القضية، ولن يكون الثُوَّار حذرين كما عهدناهم».

قاطعه الجاسوس الوسيم جروخوتوف فقال وهو يأخذ نفسًا عميقًا: «حسنًا، فهمنا الوضع؛ إذا صحَّ أن اليابانيين قد منحوه هذ المبالغ الكبيرة فهذا يفسِّر الأمر بالطبع».

ردَّ عليه أحدهم قائلًا: «لا نحتاج إلى أي تفسير، من الصعب جدًا أن نصدق الأمر، نعععم، الناس في الخارج يصرخون علينا ويسألون عن السبب بكلامهم السام ولا نعرف كيف نردُّ عليهم، لدى الناس رغبةٌ شديدة في إشعال هذه الثورة».

انطلقت هذه الكلمات من هذا الشخص بكلِّ برودة أعصاب.

قال ساشا غاضبًا: «حسنًا، أنت تعرف ما عليك فعله وكيف تردُّ على هؤلاء الحمقى، إذا سمعت هؤلاء الحمير ينهقون فأمسكهم من رقابهم واتصل بالشرطة وخذهم إلى أقرب مركز للشرطة، هذه هي التعليمات التي وصلتنا حول كيفية التعامل مع هؤلاء الأشخاص. فيكوف!!! اقرع الجرس واطلب لنا مياهً غازية».

هرع ياكوف زاروبين إلى الجرس.

نظر ساشا إليه وقال وهو يكشِّر عن أسنانه: «أيها الجرو، لا تغضب مني لأني سأعفيك من هذه المهمة».

«أنا غير غاضب أيها القائدُ أليكساندر نيكيتيتش[9]».

قاطعهما جروخوتوف وهو يقول متشدقًا: «نعععم، بدا هؤلاء المتظاهرون أقوياء قبل كلِّ شيء! لنفكر فيما أنجزوه... استطاعوا جمع مئة ألف شخص!».

ردَّ عليه ساشا: «يا لك من غبي! من السهل جمعُ هذا الحشدِ من الناس! فلديهم الوسيلة التي مكَّنتهم من جمع مئة ألف شخص؛ إنها النُقود، أعطني هذا المبلغ من المال وسأريك كيف نصنع التاريخ». بعدها بدأ يتلفَّظ ببعض الألفاظ القبيحة، قام من الأريكة قليلًا، مدَّ يديه الصفراء التي تحمل المسدس، حرَّك عينيه، نظر إلى السقف، وقال منتحبًا: «سأريكم ما سأفعله!».

كلمات ساشا وإشاراته ونظرات عينيه وابتسامته بدت مألوفةً لدى يافسي؛ لكنها باتت عاجزةً في تلك اللحظات، عديمةُ الفائدة مثل قطرات مطرٍ متناثرةٍ تحاول إخماد حريق، لم يستطع ساشا بعد كلِّ هذه الجهود أن يُخمد نار الخوف في قلوبهم، بدًا عاجزًا عن إيقاف هذه المصيبة التي ستحلُّ بهم.

كوَّن يافسي في تلك اللحظاتِ رؤيةً جديدةً حولِ حياة الشعب؛ قد يتجمَّعُ عشرات الآلاف من الناس في الشوارع من أجل الذهاب إلى القيصر بُغيةَ طلبِ المساعدة منه، بينما يشرعُ آخرون في قتلِ هؤلاء الناس لأنهم طلبوا المساعدة من القيصر. تذكَّر يافسي حينها ما قاله الرجلُ المدخنة عن فقر الناس وثروات القيصر، أصبح مقتنعًا بأن الجانبين تصرفا بتلك الطريقة بدافع الخوف؛ ومع ذلك فاجأته شجاعة هؤلاء الناس، شجاعةٌ خرجت من رحمِ معاناتهم، وأثارت فيه شعورًا غريبًا.

أضحى يافسي حذرًا حين يسير في الشارع وهو يحملُ صندوق البضائع على صدره، يتنحى عن المارة إما بالمشي في منتصف الشارع أو الالتصاق بجدران المنازل، أصبح ينظر إلى وجوه الناس باهتمام واحترام أكبر، يبدو أن خوفه منهم لم يعُد كما كان. أصبحت وجوه الرجال مختلفةً فجأةً، فبدأ يرى تنوعًا واختلافًا فيها، بات الجميع يتحدثون مع بعضهم البعض بأريحيةٍ أكبر ويمشون في الشوارع بحيويةٍ وبخطى حازمة.

الفصلُ السابع عشر

يُنجِزُ يافسي مهماته التجسسية في الغالب في منزل طبيب أو صحفي، لدى الطبيب مُرضعةٌ لأولاده تُدعى ماشا، امرأةٌ قصيرةُ القامة ممتلئةُ الجسم بعينين تصطبغان بزرقة السماء، بدت نظيفةً ومرتبةً على الدوام، ترتدي السارافان[10] الأبيض والأزرق وتضعُ سلسلة من الخرز حول عنقها، أُعجِب يافسي بهذه الفتاة الكاعبُ الحسناء، التي تفوح منها رائحةٌ زكيةٌ قويةٌ مثل خبز الجاودار الساخن، بدت فتاةً حنونة تجاه يافسي، أحبَّ سؤالها عن القرية، والإستماع إلى ردودها، والإستمتاع بصوتها الرخيم، سرعان ما تعرَّف على كلِّ أقاربها؛ مسكنُهم ووظائفهم ورواتبهم.

زارها يافسي بعد خمسة أيام من سماعِه لشرح ساشا حول أسباب الثورة، وجدها جالسةً على السرير في غرفة الطاهية المجاورةً للمطبخ، وجهها منتفخٌ وعيناها محمرَّتان، ممسكةً بشفتها السفلية.

قالت له بنبرةٍ خجولة: «صباح الخير، لا نريد أن نشتري أي شيء، اذهب من هنا، لا نريد أي شيء».

سألها يافسي قائلًا: «ماذا بك؟ هل آذاك سيِّدك؟»، سألها هذا السؤال على الرغم من علمه أن سيِّدها لم يلحق الأذى بها؛ هذه الأسئلة تدخلُ ضمن نطاق واجباته الوظيفية، الخطوة التالية هي التنهد ومتابعة الحديث؛ فقال: «هذا هو حالهم دومًا؛ يجبرونكم على العمل من أجلهم طيلة حياتكم رغم أنوفكم».

فجأةً ردَّت عليه الطاهية أنفيزا بتروفنا ذات الجسد النحيل والمزاج المتعكِّر قائلةً: «قُتِل صهرها وتهاوت السياطُ على ظهر أختها حتى نُقلت إلى المستشفى».

سأل يافسي بنبرةٍ هادئة: «في سانت بطرسبرج؟».

«نعم».

التقطت ماشا نفسًا عميقًا وتأوَّهت ممسكةً رأسها بيديها.

سأل يافسي: «لماذا فعلوا ذلك بهم؟».

صرختْ الطاهية وهي تهزُّ الأطباق والغضب يشتعل بداخلها: «لا نعرف لماذا فعلوا ذلك، اللعنة عليهم! لماذا قتلوا كل هؤلاء الناس؟ نريد معرفة السبب».

قالت ماشا والعبرةُ تخنقها: «لم يكن الخطأ خطأه، أنا أعرفه حقَّ المعرفة، يا إلهي! كان رجلًا مسالمًا يعمل في تجليد الكتب، يكسبُ من هذه المهنة أربعين روبل في الشهر، ولا يشرب الخمر. يا لقسوتهم! لقد ضربوا تانيا التي تنتظر مولودها الثاني، أذكر أنها قالت يومًا «إذا رُزقت بصبي

فسأسميه فوما تيمنًا بصديق زوجي». أرادت أن يرعى هذا الصديق معمودية[11] طفلها، لكنهم أطلقوا رصاصةً على ساقه، وكسروا رأسه، هؤلاء الوحوش الملاعين! أدعو الإله أن يحرمهم نعمة النوم والراحة! وأن يمزقهم بالحزن والهم! وأن يخنقهم بالدماء التي سالت، هؤلاء الشياطين!».

كلماتها ودموعها تتدفقُ في تياراتٍ عاصفة، حالها يندى له الجبين، تصرخُ والغضب يشتعلُ في صدرها، تخدش كتفيها وصدرها بأظافرها، استلقت على السرير ودفنت رأسها تحت الوسادة وهي تئن وترتجف.

قالت الطاهيةُ وهي تركضُ في المطبخ بين طاولة الطعام والموقد: «بعث عمها رسالةً لها من هناك، يجب أن ترى ما كتبه! جميعهم قرأوا الرسالة، لكن أحدًا لم يفهمها: سارَ الناس حاملين عددًا من اللافتات برفقة الكهنة، بدت مسيرةً دينية، ذهبوا إلى القيصر ليقولوا له «يا أبانا الإمبراطور، نريد منك تقليص عدد المسؤولين، لا يمكننا أن نعيش بوجود هذا العدد الكبير من الموظفين الذين جعلوا الضرائب تُرهق أكتافنا، ليس لدينا ما يكفي من المال لدفع رواتبهم، يعاملوننا بحريتهم...بأقصى درجات الحرية، يأخذون منَّا كلَّ ما يريدونه». كان كل شيء صادقًا وشفافًا، كانوا يستعدون لهذا اللقاء منذُ مدةٍ طويلة؛ لشهرٍ كامل، الشرطة تعرفُ بالأمر، ولكن لم يتدخلوا قبل بدء المسيرة، خرجوا وساروا في الشوارع وتفاجأوا بالجنود يطلقون عليهم النار فجأة. أحاط الجنود بهم من جميع الجوانب وأطلقوا النار عليهم! قطَّعوهم إربًا إربًا، سحقوهم تحت حوافر خيولهم... لم يستثنوا أحدًا حتى الأطفال! استمرت المذبحة ليومين. فكِّروا في الأمر! ماذا يعني ما حدث؟ يعني أنهم لا يريدون للشعب أن يبقى على قيد الحياة؟ فقرروا القضاء عليهم؟».

استحال صوت أنفيزا المتقطِّعُ والكئيبُ همسًا لدرجةِ أنه بات بإمكان يافسي سماع صوت الموقد وهو يشتعل وصوت الماء وهو يغلي وهدير النار وأزيز ماشا. أحسَّ يافسي بضرورة الإجابة على أسئلة الطاهية، وأراد أن يُهدِّئ من روع ماشا؛ فسعل وقال دون النظر إلى أي شخص: «يقولون إن اليابانيين هم من يقفون خلف هذه القضية».

صرخت الطاهية بسخرية وهي تقول: «وإذننن؟ اليابانيون...اليابانيون بالطبع! نحن نعرف اليابانيين، إنهم منغلقون على أنفسهم، قابعون في منازلهم، أخبرنا سيِّدنا من فعل هذا، أنت فقط تقول إنهم اليابانيون! سيِّدنا يعرفُ كلَّ شيءٍ عنهم، لم يكن اليابانيون بل أولئك الأوغاد!».

سمع يافسي ملنيكوف يتحدثُ مرةً عن شقيق الطاهية ماتفي زيمين الذي يعمل في مصنع للأثاث ويقرأ الكتب المحظورة، شعر برغبةٍ في إخبار الطاهية أن الشرطة كانت على علم بخيانة أخيها للقيصر، لكن في تلك اللحظة قفزت ماشا من السرير وصرخت وهي تمسح شعرها: «بالطبع، ليس لديهم حلٌ لتبريرِ ما فعلوه، فألصقوا الأمر باليابانيين وجعلوهم ذريعةً لفعلتهم».

قالت الطاهية: «يا لهم من أوغاد! ألقى أحدهم خطابًا عن اليابانيين بالأمس في السوق، يبدو أنه تلقَّى رشوةً لتبرير فعلةِ المسؤولين؛ لكن رجلًا عجوزًا يستمعُ لحديثه قاطعه وتحدَّث عن الجنرالات والوزراء، حتى أنه تحدث عن القيصر نفسه. كيف يمكن لذلك الرجل أن يلقي خطابه دون أن يتحقق من معلوماته...لا يمكن أن تخدعِ الناس، سيكتشفون الحقيقة مهما حاولت صرفهم عنها».

نظر كليمكوف إلى الأرض وظل صامتًا، تلاشت رغبته في اخبار الطاهية أن العيون على أخيها، علِم يافسي أن كل شخصٍ لديه قتيلٌ من أقاربه، باتوا في حيرةٍ من أمرهم حالهم كحال ماشا وأنفيزا يسألون بعضهم البعض «لماذا حدث كلُّ هذا؟».

أدرك أنهم غارقون في حزنهم وبكائهم وحيرتهم، يضمرون كراهيةً في قلوبهم، كراهيةُ القتلة ومن يسعى لتبرير جرائمهم. تنهَّد وقال في نفسه: «ارتكبوا جرمًا عظيمًا، لكنني مجبرٌ على حماية المسؤولين».

دفعت ماشا باب المطبخ بقدمها وخرجت، بقي يافسي وحيدًا مع الطاهية فقالت له متذمرةً: «هذه المرأة تقتلُ نفسها؛ حتى أنَّ حليبها أصبح فاسدًا، مضت ثلاثة أيام بلياليها لم تُرضع فيها الطفل. اسمعني، سيكون عيد ميلادها يوم الخميس في الأسبوع المقبل وسأحتفل بعيد ميلادي أيضًا في ذات اليوم. أريدُ منك حضور الحفلة معنا واحضار هديةٍ لها مثل سلسلةٍ من الخرز، يجب أن نخفف عنها بطريقة أو بأخرى».

ـ «حسنا سأحضر هذه الحفلة».

ـ «حسنًا».

خرج كليمكوف وهو يفكِّر فيما قالته الامرأتان؛ كان حديث الطاهية مزعجًا وجريئًا، أحسَّ يافسي بأن ذلك الحديث ليس حديثها وإنما حديثًا سَمِعته من شخصٍ وأخذت ترده. لم يتأثر بحديثِ ماشا فلا أقارب لديه وكان قليل الشفقة على الآخرين، أحسَّ أن هذه الثورة قد انعكست في صرخات تلك النسوة، فأظهرن شجاعةً غير عادية في حديثهن. فسَّر يافسي الأحداث على طريقته الخاصة فقال محدثًا نفسه: «الخوفُ دفع هؤلاء الناس لمعاداة بعضهم البعض؛ المسلحون فقدوا السيطرةَ على أعصابهم وشرعوا في إبادة الحمقى غير المسلحين»، لكن هذا التفسير لم يقنع يافسي ولم يستطع أن يبعث الهدوء في روحه. أدرك مما رآه وسمعه أن الناس في طريقهم للخلاصِ من عبودية الخوف، رآهم يبحثون بإصرارٍ وبدون خوف عن المذنبين الذين ارتكبوا تلك الأفعال الشنيعة بحقِ الشعب، غرقت الشوارع بالمنشَّورات التي تحدث فيها الثوَّار عن الأيام الدامية في سان بطرسبرج، شتموا فيها القيصر وحرضوا الشعب على عدم الوثوق بالحكومة.

قرأ يافسي بعضًا من هذه المنشورات، وعلى الرغم من أنِ لغتهم كانت غير مفهومةٍ بالنسبة له فقد شعر بشيءٍ من الخطورة فيها، اخترقت قلبه وجعلته متيقظًا حذِرًا حتَّى أنه قرر عدم قراءة أية منشورات أخرى.

صدرت أوامرٌ صارمةٌ بالبحثِ عن مكتب الطباعة الذي يطبع تلك المنشورات والقبض على الأشخاص الذين عملوا على توزيعها. أخذ ساشا يُطلق الشتائم لدرجة أنه صفع فيكوف بسبب خطأٍ ارتكبه، أما فيليب فيليبوفيتش فدعا العملاء للاجتماع عنده في المساء والحديث معهم، يجلسُ في منتصف الغرفة خلف مكتبه، واضعًا النصف السفلي من ذراعيه على الطاولة، يلعبُ بأصابعه الطويلة بأقلام الرصاص وأقلام الحبر والأوراق، يرتدي مجموعةً من الخواتم على يديه بألوان

مختلفة، من تحت لحيته السوداء تلمعُ قلادةٌ صفراء كبيرة، يحرِّك عنقه القصير ببطء، ينظر بنظراته الزرقاء على وجوه الحاضرين الذين جلسوا بصمت وخنوعٍ مقابل الحائط. نادرًا ما ينهض من كرسيّه، لا يفعل شيئًا سوى تحريك أصابعه ورقبته، بدا وجهه الأبيض الحاد المنتفخ وكأنه وجهٌ مرسومٌ في لوحة؛ شعرُ لحيته ملتصقًا ببعضه البعض. حين يكون صامتًا تراه هادئًا رزينًا؛ لكنه يصبح شخصًا آخر حين يتحدث بصوته الرقيق الصاخب مثل منشارٍ حديدي وهو يقطع شيئًا ما؛ وكأنك وضعت معطفه وخواتمه وقلادته ولحيته على شخصٍ آخر. يُخال إليَّ يافسي في بعض الأحيان أنه ينظر إلى دمية مزيفة يختبئُ بداخلها رجلٌ واهنٌ يشبه الشيطان الأحمر الصغير، تخيَّل يافسي لو أن شخصًا ما يصرخ على الدمية فسيخاف الشيطان الصغير ويقفِزُ خارجًا عبر النافذة.

يخاف يافسي من فيليب فيليبوفيتش؛ فيجلس بعيدًا عنه حتى لا تقع نظراته الحارة عليه وهو يحرِّك نظاراته الزرقاء، محاولًا عدم التحرك طوال الوقت.

بدأ حديثه قائلًا: «أيها السادة»، دخل هذا الصوت صدر يافسي مثل سهمٍ حديدي فأحسَّ بانزعاجٍ بداخله.

«أيها السادة، يجب أن تستمعوا لما أقوله بعناية، تذَكّروا كلماتي، يتوجَّب عليكم في هذه الأيام أن تُسخِّروا عقولكم وأرواحكم لمواجهة عدونا السري والماكر في هذه الحرب، ينبغي عليكم الإصغاء إلى الأوامر التي تتلقونها وتنفيذها بصرامة، ويمكنكم المبادرة بتأديةِ أعمالٍ أخرى خارج هذه الأوامر، نحن في حربٍ سريةٍ من أجل أمِّنا روسيا؛ لذا فكلُّ الوسائل متاحةٌ أمامنا، تذَكروا أن الثُوَّار مُتَجَردون من أخلاقهم ولن يستنكفوا عن قتلكم، تذكَّرُوا زملاءكم الذين لقوا حتفهم على أيديهم، لا أقولَ لكم أن تقتلوهم... لا... بالطبع لا، لن أنصحكم بمثل هذه الإجراءات، فالقتل لا يحتاج إلى ذكاءٍ مِنّا، بإمكان كلِّ أحمقٍ أن يقتل، القانون معكم، فأنتم تحاربون الخارجين على القانون، وسنغدو مجرمين إذا ما تعاطفنا معهم، يجب اجتثاثهم كما تُجتثُّ الأعشاب الضارة، يجب أن تختاروا الطريقة المثلى لخنق هذه الثورة، هذه ليست أوامري وإنما أوامرُ القيصر»، توقَّف هُنَيْهَةً وأخذ ينظرُ إلى خواتمه وتابع حديثه: «أيها السادة، أرى أنكم تفتقرون إلى الحماس، وليس لديكم إيمانٌ بهذا النداء الصادق لحماية بلدكم، لماذا تركتم العجوز الثائر سيِّداكوف ينسَلُّ هاربًا على الرغم من أنه عاش في مدينتنا لمدة ثلاثة أشهر ونصف؟ لماذا أخفقتم في العثور على مكتب الطباعة؟».

قاطعه أحدهم مستهينًا: «الأمر صعبٌ دون وجود الجواسيس المحرضين معنا».

«لا تقاطعني رجاءً، أنا أعرف الصعب من السهل، حتى الآن لم يستطِّعْ أيٌّ منكم جمع أدلةٍ حقيقيةٍ تدين الكثير من الناس المعروفين بإثارتهم للفتنة، ولم تعطوني أي سببٍ لاعتقالهم».

قال بيوتر ضاحكًا: «اعتقلهم بدون أسباب».

«هل هذا وقتُ المزاح يا ساشا؟ أنا أتحدث بجدية، إذا اعتقلناهم بدون أي مبرر فسنطلقُ سراحهم لعدم وجود المبرر، أريد أن أذكرك يا بيوتر بتروفيتش بوعدك الذي قطعته منذ زمنٍ طويل، هل

تتذكر؟ وأنت كذلك يا كراسافين؛ قلتَ أنك نجحت في التعرف على رجلٍ سيقودنا إلى الإرهابيين. ما هي نتيجة بحثك؟».

أجاب كراسافين بنبرةٍ هادئة: «ظهر لي أن ذلك الرجل مخادع، لا عليك انتظرني وسأنجزُ عملي كما وعدتك».

«ليس لدي أدنى شك في ذلك على الإطلاق، ولكني أرجوكم جميعًا، يجب علينا العمل بنشاطٍ أكبر والإسراع في هذا الأمر».

تحدَّثَ فيليب فيليبوفيتش لفترةٍ طويلةٍ بذات النبرة، حتى أنه يصل في بعض الأحيان لساعةٍ كاملةٍ دون أن يلتقط أنفاسه، تراه يغيِّرُ من نبرة صوته حين يقول «يجب عليكم»؛ وينطق كلمة «يجب» مثل ضربةِ مطرقة، وتخرجُ كلمة «عليكم» بهمسٍ خفيف، نظراته تعانق الجميع، كلماته تخنقُ يافسي.

ذات مرة في نهاية الإجتماع، غادر الجميعُ عدا ساشا ويافسي فاستمع يافسي إلى الحوار التالي بين فيليب فيليبوفيتش وساشا:

فيليب فيليبوفيتش (كئيبًا حزينًا): «يا لهؤلاء الأغبياء!».

ساشا (يتكلمُ بخنخنة): «آها!».

فيليب فيليبوفيتش: «نعم...نعم، ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟».

ساشا: «يبدو أنك عرفت قيمة العمل مع أشخاصٍ محترمين».

فيليب فيليبوفيتش: «حسنًا، هاتِهم...هاتِهم».

ساشا: «كُلْفَتُهم مرتفعة يا عزيزي!».

لم يتفاجأ كليمكوف من هذا الحديث ولم يشعر بالإساءة منه، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها شتم الرؤساء لمرؤوسيهم؛ بات معتادًا عليها.

يتحدث الجواسيس بعد الاجتماعات مع بعضهم البعض ويقولون:

ـ «هذا جاسوسٌ يهودي اعتنق اليهودية مؤخرًا...انظر إليه!».

ـ «سمعنا أنه حصل على مكافأةٍ قدرها 600 روبل في أول العام».

ـ «قيمةُ عملنا تتزايد يومًا بعد يوم».

في بعض الأحيان يأتي رجلَ وسيمٌ يبدو عليه الثراء يُدعى ليونيفيف ويلقي كلمةَ على الجواسيس بدلًا من فيليب فيليبوفيتش، لا يجلس عند إلقائه كلمته بل يسير في الغرفة ذهابًا وإيابًا واضعًا يديه في جيوبه، متنحيًا عن طريق الآخرين بكلِّ أدب، ترتسم على وجهه الناعم علامات الكآبة، غارقٌ في جموده، يُحرِّك شفاهه على مضضٍ ويغطي عينيه بين فينةٍ وأخرى.

كان هناك رجلٌ آخر يُدعى ياسنوجورسكي جاء من سان بطرسبرج لنفس الغرض؛ رجلٌ قصيرُ القامة، عريضُ الكتفين، أصلعُ الرأس، كبيرُ الفم، ذابلُ الوجه، طويلُ اليدين، واسعُ العينين مثل حجرين صغيرين، يضع وسامًا على صدره. حين يتحدثُ يرفعُ صوته عاليًا ويضربُ شفتيه ويلقي سيلًا من الشتائم. قال مرةً جملةً علقتْ في ذاكرة يافسي: «يقولون أنه بإمكانهم وضعُ نظام جديدٍ يسهِّل حياة الشعب، إنهم يكذبون يا أولادي، الإمبراطور القيصر وكنيستنا المقدسة هما منَ يضعان نظام حياتنا؛ بينما لا يستطيع الشعبُ تغيير أي شيء، لا شيء بتاتًا».

أجمع المتحدثون على نفس الفكرة دائمًا: يجب أن يؤدي العملاء السياسيون عملهم بحماسٍ أكبر، وأن يعملوا بجدٍ أكبر، وأن يكونوا أذكى لأن الثُوَّار ما فتئوا يزدادون قوةً يومًا بعد يوم. يتحدثُون في بعض الأحيان عن القياصرة وعن حكمتهم وصلاحهم، وكيف أن الأجانب يخافونهم ويحسدونهم لأنهم حرَروا مختلف الأمم من نَيْرِ هؤلاء الأجانب، فقد حرروا البلغاريين والصرب من اضطهاد السلطان التركي، وحرروا خانية خيوة[12] وبخارى والتركمان من الشاه الفارسي، وحرروا منشوريا[13] من الإمبراطور الصيني، لذا نرى أن الألمان والإنجليز واليابانيين الذين تلقَّوا الرشاوي منهم غير راضين عمَّا حدث، ويريدون ضمَّ تلك الدول التي حررتها روسيا إلى سلطتهم؛ بَيْدَ أنهم يعلمون أن القيصر لن يسمح بهذا الأمر فاحترقت قلوبهم غيظًا عليه وتمنّوا أن تحلَّ به قارعة وسعوا لإشعال فتيل الثورة في روسيا.

استمع يافسي إلى هذا الحديث مُرهفًا سمعه منتظرًا اللحظة التي سيتحدثون فيها عن الشعب الروسي وعن سبب تعاستهم وقسوتهم، انتظر منهم إخباره عن سبب تعذيبهم لبعضهم البعض، انتظر منهم الحديث عن سبب هذا القلقِ الذي يعيشونه، أراد أن يعرف سبب الفقر الذي يعيشونه وسبب خوفهم وغضبهم الذي ينسلُّ من كلِّ حدبٍ وصوب؛ لكن أحدًا لم يتحدث عن هذه الأشياء.

بعد انتهاء الإجتماع وبينما كانا يسيران في الشارع قال فيكوف ليافسي: «هذا الأمرُ يعني أنهم في طريقهم لتولي زمام السلطة؛ لا ندري ما تعنيه هذه الخطوة، لكن ما نعلمه أن هناك أشخاصًا سِريّون يعيشون مختبئين وفجأةً سيتسببون في نفيرٍ عام في البلاد، وسيُحدثون الفوضى في كلِّ مكان، صعبٌ علينا أن نفهم حقيقة هذا الأمر، كيف لي أنَ أعرَف مصدر قوتهم؟».

بدأت علامات الضعفِ على جسد ملنيكوف، أصبح كالِحَ الوجه قليلَ الكلام أشعثًا أغبرًا. في إحدى المرات وضع قبضته على ركبته وصرخ قائلًا: «أريد أن أعرف الحقيقة!».

سأله مكلاكوف غاضبًا: «ماذا حدث؟».

«تسألني ماذا حدث؟ هذا ما حدث وفقًا لفهمي: أصاب الوهنُ فئةً من الموظفين؛ وهم نحن، والآن ظهرت فئةٌ أخرى فرضت سلطتها على الشعب، هذا كلُّ ما في الأمر».

ردَّ عليه مكلاكوف ضاحكًا: «والنتيجة هي... كلُّ هذا الهراء حولنا!».

نظر ملنيكوف إليه وتنهدّ قائلًا: «لا تكذب يا تيموفي فاسيليفيتش، يا لكَ من كاذب! رجلٌ في مثل حكمتك ويكذب!».

أفكارٌ بدأت تتشكل لا إراديًا في أعماق روح يافسي المظلمة، لم يدرك كيف تشكَّلت بداخله، لم يشعر بنموِّها سرًا في صدره؛ ظهرت فجأةً فبات خائفًا وجلًا منها، حاول إخفاءها واجتثاثها لكن دون جدوى، فظهرت مرةً أخرى، تجلَّت أمامه لكنها ازدادت غموضًا. عشعش ذلك الحديث المتكرر حول الثُوَّار في رأسه مما شكَّل ترسباتٍ غامضةٍ في ذهنه وكأن رأسه بات تربةً خصبةً لنمو هذه الأفكار التافهة، أفكارٌ أثارت قلقه ودفعته إلى شيءٍ مجهول.

الفصلُ الثامن عشر

بينما كان يافسي في طريقه إلى ماشا للمشاركة في الإحتفال بعيد ميلادها خطرت في باله فكرةٌ فقال لنفسه: «سأتعرف على النجَّار اليوم كونه أحد الثُوَّار».

كان يافسي أول الواصلين من الضيوف، أعطى ماشا سلسلةً من الخرز الأزرق وأعطى أنفيزا مشطًا، بدت الفتاتان سعيدتين بتلك الهدايا وفي مقابل ذلك قدمتا له الشاي وشراب النانيفكا[14]. نظرت ماشا إلى وجه يافسي وهي تُدير عنقها الأبيض نحوه وابتسامةٌ تعلو محياها، داعبت هذه النظرة الرقيقة شغاف قلبه وجعلته مفعمًا بالحياة ودفعته ليكون أجرأ على الحديث معها، صبَّت أنفيزا الشاي وقالت له وهي تغمز بعينيها: «حسنا أيها التاجر الكريم، متى سنحتفل بزفافك؟».

ردَّ يافسي محاولًا إخفاء خجله قائلًا بنبرةٍ هادئة: «لا أدري متى سأتزوج، إنه أمر صعب للغاية».

«أمرٌ صعب؟ يا لك من رجلٍ متواضع! هل تسمعين ما يقوله يا ماشا؟ يقول إن الزواج أمرٌ صعب!».

ابتسمت ماشا ردًا على ضحكةِ الطاهية العالية وهي تنظر إلى كليمكوف من طرف عينيها وقالت: «ربما يقصدُ شيئًا آخر بقوله إنه صعب».

قال يافسي وهو يرفعُ رأسه: «صحيحٌ يا ماشا؛ الصعوبةُ تكمنُ في العثور على شخص يمكنك العيش معه كروحين في جسدٍ واحد، بحيث لا يخاف طرفٌ من الآخر، من الصعب العثور على شخصٍ صادق».

جلست ماشا بجانبه، ألقى نظرةً على رقبتها وتنهَّد قائلًا: «ماذا سأقول حين يسألانني عن عملي؟».

وقف مكانه وبدا خائفًا لكنه سرعان ما تغلَّب على خوفه وتابع قائلًا: «من الأفضل أن يبقى المرءُ وحيدًا إن كان غير قادرٍ على فهمِ الحياة».

قالت ماشا وهي تسكبُ كأسًا آخر من شراب النانيفكا وتقدمه ليافسي: «من الصعبِ أن يعيش المرء بمفرده».

اشتاق يافسي لمثلِ هذه الأحاديث الصريحة، أحسَّ أن المرأتين تستمعان له عن طيب خاطر، شرع في شرب كأس النبيذ الثاني، دخلت في تلك اللحظة ليزا خادمة الصحفي، كانت متحمسة ولفتت انتباه أنفيزا وماشا، فتاةٌ هزيلةُ القوام تبدو عظامُها من جلدها، تضعُ ضمادةً على إحدى عينيها، شعرها مصففٌ بأناقة، ترتدي ملابسَ أنيقة، حيويتها ونشاطها تعكسان طيب الحياة التي تعيشها فتاةٌ بمثلِ عمرها.

قالت ليزا: «كان لدينا ضيوفٌ اليوم، ولم يسمحوا لي بمغادرة المنزل، فقلت لهم افعلوا ما يحلوا لكم، وغادرتُ المكان وتركتهم يهتمون بأنفسهم».

سأل كليمكوف متذكرًا الواجب المنوط به: «هل كان عدد الضيوف كبيرًا؟».

ـ «عددٌ لا بأس به، ولكن أيَّ نوعٍ من الضيوف هم! لا يضعُ أحدٌ منهم حتَّى عشرة سنتات في يدك، في حفلة السنة الجديدة حصلت على روبل وثلاثين كوبيك فقط».

ـ «لم يكونوا أغنياء إذن؟».

ـ «أغنياء! لا! حتى أنهم لا يملكون جرموقًا يضعونه على أرجلهم».

ـ «من هم؟ ما هو عملهم؟».

ـ «لديهم أعمالٌ مختلفة، البعض منهم يكتب للصحف، وكان بينهم طالبٌ رائعٌ أسودُ الحاجبين مجعَّدُ الشعر صغيرُ الشارب أبيضُ البشرةِ والأسنانِ مفعمٌ بالحيوية، جاء من سيبيريا منذ وقت ليس ببعيد، وكان يتحدث عن الصيد».

نظر يافسي إلى ليزا وانحنى برأسه، أراد أن يقول لها «توقفي!»، وعوضًا عن ذلك سألها بنبرةٍ باهتة: «أعتقد أنه جاء من المنفى؟».

«من يدري؟ ربما، فقد أخبرني الرقيبُ أن سيِّدي وسيِّدتي عاشا حياتهما في المنفى أيضًا».

صاحت الطاهيةُ قائلةً: «من لم يجرِّب حياة المنفى يومًا؟ لقد عشت في منزل بوبوفس وهو مهندسٌ ثري، لديه منزلٌ جميلٌ وخيولٌ كثيرة، كان آنذاك يستعدُّ للزواج وفجأةً اقتحمت الشرطةُ المنزل وألقوا القبض عليه وحطَّموا كلَّ شيء، ثم نفوه إلى سيبيريا».

قاطعتها ليزا قائلةً: «لا أشكو من الأشخاص الذين أعملُ معهم، فهم أناس طيبون وغير جشعين، لا يوبخونني، وليسوا مثل الآخرين، إنهم رائعون، يعرفون كل شيءٍ ويتحدثون عن كل شيء».

نظر يافسي إلى وجه ماشا المتورِّد وقال لنفسه: «من الأفضل أن أذهب؛ سأسألها عن سيِّدها في المرة القادمة، لكن لا يمكنني أن أذهب، في هذه اللحظة، لو أنَّ هذه السخيفة تصمت لكي...!».

قالت ماشا بنبرةٍ تعبِّر عن فخرها: «الأشخاص الذين أعملُ معهم يعرفون كل شيء».

عاودت ليزا التحدث قائلةً: «عندما اشتعلت الثورة في سان بطرسبرج ظلوا يتحدثون طيلة الليل».

قالت ماشا: «هل كان سيِّدي في منزلكم في ذلك الوقت؟».

«نعم كان هناك الكثير من الناس في المنزل، يتحدثون ويكتبون الشكاوى؛ أقسمُ لكم أن أحدهم أجهش في البكاء!».

تنهدت الطاهيةُ قائلةً: «هناك أسبابٌ كثيرةٌ للبكاء».

واصلت ليزا حديثها: «أمسك ذلك الرجلُ برأسه وبدأ ينتحب ويقول «يا لتعاسةِ روسيا! يا لتعاستنا»، هرعوا إليه وأعطوه بعض الماء، شعرت بالأسف على حال الجميع وأجهشت بالبكاء».

نظرتْ ماشا حولها والخوف يعتريها وقالت: «يا إلهي كيف حال أختي الآن!»، قامت من مكانها وذهبت إلى غرفة الطاهية، نظرت إليها المرأتان نظرة تعاطف، تنهَّد كليمكوف وسأل ليزا على مضضٍ دون أن يشعر: «لمن وجهوا تلك الشكاوى؟».

أجابت ليزا: «لا علم لي».

قالت الطاهية: «انظروا لقد خرجت ماشا لتبكي في الخارج».

دخل أخو الطاهية من الباب وهو يسعل، لفَّ الوشاح حول رقبته وقال: «الجو باردٌ هنا».

ـ «هاك تناول هذا المشروب!».

ـ «هاته! نخبُ صحتك!».

كان أخوها نحيلَ الجسدِ سريعَ الحركة صغيرَ الوجهِ كبيرَ العينين بلونهما العسلي.

تبادر إلى ذهن يافسي وهو يصافحه كلمة «ثائر».

قال يافسي على حين غرة: «حان وقت الذهاب».

قالت له أنفيزا وهي تمسك بيديه: «إلى أين؟ ما بك أيها التاجر، لا تُفسد جمعتنا هذه، انظر يا ماتفي إلى الهدية التي قدمها لي».

نظر ماتفي زمين إلى يافسي وقال: «لقد قدَّموا بالأمس طلبًا آخر في مصنعنا بقيمة خمسة عشر ألف روبل، تضمن الطلبُ أثاثًا لقاعة الاستقبال وخزانةً وغرفة نوم وأثاثًا للصالون...وأربع غرف. هذه الطلبات تأتينا من الجيش، سرقوا أموالًا طائلةً ويريدون الآن أن يعيشوا حياةً رغيدةً بهذه الأموال».

صرخ يافسي بداخله قائلًا: «ها قد بدأنا! هذه اللحظة التي كنتُ أنتظرها!».

شعر بألم شديدٍ في صدره، كما لو أنَّ شيئًا يتمزَّقُ بداخله، وبدون تفكير في عواقب سؤاله قال للنجار: «هل هناك ثوارٌ في المصنع؟».

التفت إليه زمين بسرعةٍ ونظر إلى عينيه، قطبت الطاهية جبينها وقالت ممتعضةً: «يقولون أن الثُوَّار في كل مكان هذه الأيام».

قاطعتهما ليزا قائلةً: «يثورون بذكاء أم بغباء؟».

لم يقْوَ يافسي على النظر في وجه النجار الحاد فنكَّس رأسه ببطءٍ وأخذ يسترق النظر إليه.

سأله زمين بأدبٍ ونبرةٍ صارمة: «لماذا يهمك هذا الأمر؟».

أجاب يافسي متكاسلًا: «لا يهمني الامر بتاتًا».

ـ «ولماذا تسأل إذن؟».

ـ «هكذا فقط، من باب الفضول».

ابتسم النجار حين سمع رده.

بدا ليافسي أنهم ينظرون إليه بنظرةٍ مُريبة، شعر بالإحراج وكأن شيئًا مرًا في حلقه، خرجت ماشا من غرفة الطاهية مبتسمةً كأنها تشعرُ بالذنب، نظرت إلى وجوههم واختفت الابتسامة من وجهها وقالت لهم: «ماذا حدث؟».

وقف على قدميه وقال: «لا تعتقد أني سألتك ذلك السؤال دون سبب، سألتك لأنني أردت أن أخبرها...أختك... منذ فترة طويلة...عنك».

قام زمين من مكانه، اصفرَّ وجهه، بدت تجاعيده وقال بهدوء: «ماذا ستقول لها عني؟».

وصل همسُ ماشا الهادئ إلى أذن يافسي وهي تقول: «ماذا حدث بينهما؟».

قالت أنفيزا: «انتظري».

قال له يافسي: «أعرف أنك...»، أحس يافسي في تلك اللحظات وكأنه ريشةٌ خفيفة تتأرجح في الهواء، بدا له أن باستطاعته رؤية كل شيء.

واصل حديثه: «أعرِفُ أنك ملاحقٌ من عملاء قسم الأمن، وأعرِف أنك من الثُوَّار».

قامت الطاهية من على كرسيها وهي تصرخ في دهشةٍ وهلع: «ماتفي! ماذا يعني ذلك؟»، قال زمين وهو يمرر يده أمام وجهها ليطمئنها: «عذرًا، هذا الأمر بغاية الحساسية»، ثم قال ليافسي بنبرةٍ صارمة: «ارتدِ معطفك أيها الشاب، عليك العودة إلى المنزل، وأنا أيضًا يجب أن أذهب، هيَّا ارتدِ معطفك».

ابتسم يافسي، لا يزال يشعر بفراغٍ وخفةٍ في صدره، أحسَّ بالطعم المرِّ في فمه مرةً أخرى، لم يلتقط أنفاسه حتى خرج عنهم، حين خرج كان الجميع صامتًا، حتَّى أنهم لم يقولوا له وداعًا.

دفع زمين كتف يافسي في الشارع وقال له بصوتٍ صارمٍ منخفِض: «أتوسل إليك ألا تزور أختي بعد الآن».

ـ «لماذا؟ هل أسأتُ إليك؟».

ـ «لم تسئ إليَّ أبدًا».

ـ «لماذا إذن؟».

ـ «من أنت؟».

ـ «بائعٌ متجول».

ـ «كيف تعرف هذه المعلومات عني وأنني مُلاحق؟».

ـ «أخبرني أحد معارفي».

ـ «جاسوس؟».

ـ «نعم».

ـ «إذن؟ هل أنت جاسوسٌ أيضًا؟».

ـ ردَّ يافسي: «لا».

نظر إلى وجه زمين الهزيل الشاحب وتذكر صوته الهادئ والممل وصحّح إجابته قائلًا: «نعم أنا جاسوسٌ أيضًا».

تحركا لبضع خطواتٍ في صمت، وفجأةً قال زمين: «حسنا...اذهب من هنا». بدا صوته هادئًا حزينًا، هزَّ رأسه بغرابة وعاود كلامه: «ابتعد من هنا!».

اتكأ يافسي على السياج وأخذ يُحدِّقُ في الرجل وهو يرمش بعينيه، نظر إليه زمين وهو يحركُّ يده اليمنى.

قال له يافسي متعجبًا: «لماذا غضبت مني؟ ألم أقل لك الحقيقة؟ ألم أخبرك أنك مُلاحق؟».

انحنى زمين نحو يافسي وبدأ يصبُّ سيلًا من الكلمات هامسًا: «نعم، اذهب إلى الجحيم! أعرف أنهم يتعقبونني دون أن تقول لي! ماذا حلَّ بكم؟ هل تسير أعمالكم بشكلٍ سيء؟ هل تعتقد أنك ستشتريني؟ وأني سأخون من وثقوا بي؟ أم هل تريد أن ترضي ضميرك؟ اذهب إلى الجحيم! اذهب من هنا وإلا سترى مني ما لا يُرضيك!».

همَّ يافسي بالرحيل وما أن بدأ يمشي حتى سمع صوتًا خلفه يقول: «يا لك من حشرة!».

توقف كليمكوف، استدار نحوه، ألقى عليه سيلًا من الشتائم لأول مرةٍ في حياته وهو يصرخُ قائلًا: «بل أنت الحشرة! أيها...اللئيم».

لم يجب زمين على شتائمه، كانت خطواته غير مسموعة وهو يهمُّ بالرحيل، حجبها صوتٌ يصدر من مكانٍ ما، سمع يافسي صوتَ الثلجِّ وهو يُسحق تحت إطاراتِ سيارة الأجرة، وصوتَ طحنِ الحديد على الحجر.

بينما كان كليمكوف يمشي متمهلًا على الرصيف قال لنفسه: «أظن أن زمين عاد إلى هناك، سيخبر ماشا، وستلقي عليَّ اللعنات». بصق على الأرض وقال مهمهمًا: «الحديقة حديقتي»، توقَّف عند عمود المصباح وشعر أنه في حاجةٍ لتهدئة نفسه فقال: «أستطيع أن أغني كما يحلو لي هنا، إن سمعني شرطيٌ وسألني عمَّا أقول فسأخرج له بطاقة قسم الأمن وسيعتذر مني. لكن إن غنَّى النجار فسيأخذونه إلى المركز وستتهاوى السياط على ظهره وسيزجرونه على فعلته». ابتسم يافسي واختفى في جنح الظلام وهو يقول لنفسه: «هيَّا يا أخي فلتغني أغنية!».

لم يفلح هذا الأمر في تهدئته كما توقَّع، ظلَّ قلبه حزينًا، وتلك المرارة لا زالت تراوح مكانها في فمه، سالت الدموع على وجنتيه.

ظلَّ يردد قائلًا: «الحديييييقة حدييييقتي، الحديقة الخضراء حديقتي».

أخذ يغني وهو يُدْخِلُ الهواء إلى رئتيه بكلِّ قوةٍ ويُغمضُ عينيه بإحكام؛ لم يفلح هذا الأمرُ أيضًا، سالت الدموع الجافة من عينيه مجددًا واستقرت على وجنتيه.

نادى كليمكوف بصوتٍ منخفضٍ على سائقِ سيارة الأجرة محاولًا لملمة نفسه، جلس على مقعد السيارة، أضحى جسده واهنًا كما لو أن هناك دويَّ انفجارٍ بداخله، أخذ رأسه يتحرك نحو الأمام والخلف، يتمايل يمنةً ويسرةً، تمتم قائلًا: «يا لها من إهانةٍ تعرضتُ لها... كانت قوية جدًا... شكرًا! يا لكم من أناسٍ طيبين وحكماء...».

أحسَّ يافسي براحةٍ في قلبه بعد هذه الشكوى التي باح بها لنفسه، ملأته حلاوةً وعذوبة؛ شعر بمثلِ هذه الحلاوة في طفولته كثيرًا حين كان يهرب من مشاكله بتمثيل دورِ الضحية.

الفصلُ التاسع عشر

استلقى يافسي في الصباح على سريره متأملًا السقف فقال مناجيًا ذاته: «أحرجتُ نفسي حين تفوهَّتُ بذلك الكلام!». ازدحمت الأفكار المُخيفةُ في عقله وهو يسترجع أحداث اليوم السابق، تابع حديثه مع نفسه قائلًا: «لا ينبغي عليَّ أن أتتبع هفواتِ الناسِ هكذا؛ بل عليَّ تتبعُ هفواتي». بدت هذه الفكرة غريبةً عليه فقال: «كيف يمكنني تتبعُ هفواتي؟ فأنا متعصب تجاه نفسي!».

استذْكرَ عيونَ النجَّارِ العسلية التي توشَّحَت بالحزن، استذْكرَ تعبيرات وجهه النحيل التي تعكس كرامته، استذْكرَ صوته وهو يقول «الجو باردٌ هنا». أحسَّ يافسي بالحيرة من هذا الشعور الغريب بداخله، أحسَّ بشيءٍ بداخله يُشاركه هذه المعاناة التي يعيشها، قام من مكانه، أخذ نفسًا عميقًا ووقف لفترة طويلة دون أن يُخرج الهواء الذي استنشقه كما لو أنه يُحاولُ خنق هذا الشيء الغريب بداخله.

قال لنفسه مشجعًا إياها: «يجب أن أتوقف عن كلِّ هذا التفكير، بماذا سينفعني؟»، ومع ذلك لم يشعر بالراحة بعد، شرع في ارتداء ملابسه متكاسلًا، مجبرًا نفسه على التفكير في المهمة التي سينجزها لهذا اليوم.

باتَ تجواله مع البضائع نادرًا بسبب الأعمال الكثيرة الأخرى التي تولَّى مسؤوليتها؛ فمثلًا توجَّب عليه في ذلك اليوم الذهاب إلى إحدى المصانع لمراقبة العمال ومعرفة الأشخاص الذين عملوا على توزيع تلك المنشورات.

لطَّخ يافسي يديه بالسخام والزيت، ثم غسلها بالصابون تاركًا طبقةً زيتيةً في يديه تشبه أيدي عمال المعادن؛ لم تكُنْ هذه الخطوةُ ضروريةً بيْدَ أنَّ كليمكوف أحبَّ صبغ شعره الكثيف وتلوين حواجبه وشاربه، تُضفي هذه الأمور نوعًا من الإثارة على عمله وتزيد من جديته.

حرص جروخوتوف الوسيم على تعليم يافسي فن تمويه وجهه وشخصيته، أحبَّ جروخوتوف عمله أيمَّا حب، لديه مجموعةٌ كبيرةٌ من اللحى والشوارب والشعر المستعار بجميع الألوان، يستطيع وضع الندوب والبثور على الوجه لتمويهه، يُقدِّمُ في بعض الأحيان عروضًا يُقلد فيها الآخرين، قد يأتي فجأةً أمام الجميع ويُقلِّدُ شخصيةَ أحدِ المسؤولين بشكله وصوته وصورته، بمقدوره تقليد أصوات الحيوانات مثل قوقأة الإوز أو زئير الأسد أو نباح الكلاب أو مواء القطط، أحبَّه متابعوه كثيرًا، تتعالى ضحكاتهم فيبتسم لهم متواضعًا ويقول: «انتظروني حتى أصعد على خشبة المسرح، سأتغلب على جميع المشاهير، وسأقلِّدُ جميع الحيوانات على وجه الأرض».

كان ملنيكوف ينظرُ إليه بإزدراء ويبصُق على الأرض حين يخاطُبه، حتى أنه في إحدى المراتِ صرخ عليه قائلًا: «أيها المهرج قلِّد لنا صوت القملة».

علَّق الجاسوس قائلًا: «القملةُ حشرة صامتة».

فردَّ عليه: «إذن تعلم منها، وتناول طعامك والزم الصمت».

بينما كان كليمكوف يردتي ملابسه تذكر هذا الحوار الذي أعاد إليه ذكرى أناتول.

قال مناجيًا نفسه: «أناتول سيكون جاسوسًا جيدًا، لكن زمين لن يكون كذلك على الإطلاق؛ فعيناه ستفضحانه وسيعرفُ الناظر إليه أنه جاسوسٌ منهما، أعتقدُ أنه يودُّ إيقاع ماشا في حُبِّه». توقَّف يافسي عند الباب، اجتاح قلبهُ حزنٌ من حديثه لنفسه عن حبِّ زمين لماشا، لكنه سرعان ما لوَّح بيده غير مبالٍ بهذا الأمر وقال: «فليذهبوا إلى الجحيم! لماذا أهتمُّ بهما؟»، يشعرُ يافسي بالراحةِ عند التفكير بماشا فيما مضى، لكن هذا التفكير بات يثير غضبًا بداخله.

تُرسل الشمسُ أشعتها فيشرق المكان بها، تتدفق المياه من أسطح المنازل فتغسُل الثلج المُحْمَر المُتَّسخ، يمشي الناس بسرعةٍ والبهجة تعلو محياهم، ينتشرُ رنينُ الأجراسِ إيذانًا بدخولِ موعدِ الصوم الكبير[15] ويبعث جمالًا في تلك الأجواء الدافئة الرطبة، تختلطُ مع أصوات المدينة الصاخبة وتُغادرها نحو الأفق الأزرق.

يدخل يافسي الشوارع الضيقة في ضاحية المصانع ويقول بداخله: «ينبغي عليَّ أن أذهب إلى مكان ما غير هذا، كأن أتنزه في الحقول أو الصحاري».

ترتفع من حوله الجدران القذرة الحمراء وهي تتكئ على بعضها البعض، تتلبَّدُ السماء من فوقهم بالدخان، رائحة الزيت الخانقة تنتشر في الهواء، تلمعُ الأسنان البيضاء للعاملين وسط وجوههم الغاضبة القذرة، لم تكن الأشياء حولهم تبعث على الراحة، تسأمُ العيون من النظر إلى الأقفاص الحجرية المليئة بالدخان التي يعمل فيها الرجال.

توجَّه كليمكوف عند الظهر بعد أن أعياه التعب وأصابته الإهانة من كل ما رآه إلى المطعم، طلب الغداء وجلس بجوار النافذة، استمع على مضضٍ إلى حديث العاملين، لم يكن هناك الكثير من الناس ولكن جميعهم كانوا عمالًا، يلقون كلماتٍ بسيطةً على بعضهم البعض وهم يأكلون ويشربون، الصوت الوحيد الذي شدَّ انتباهه هو صوت شاب جالسٍ في إحدى زوايا المطعم وهو يقول: «لا تقل هذا! فكِّر من أين تأتي الثروة؟».

كان هذا الشخصُ عريض المنكبين مجعَّد الشعر، نظر إليه يافسي نظرةً غاضبةً وابتعد عنه، كثيرًا ما يسمع أحاديثًا حول الثراء حتَّى أحسَّ بالملل منها، شعر أنهم يتحدثون عن الثراء بدافع الحسد والجشع، علمٍ أن مثل هذه الأحاديث قد تكون هدَّامة لذا تراه يُرغِمُ نفسه على الإستماع إليها رغم أنه كان يودُّ التسكُّع في شوارع المدينة في ذلك اليوم.

صاح ذو الشعر المجعدِ قائلًا مخاطبًا أحدهم: «أنت تعمل مقابل ثمنٍ بخسٍ وفي المقابل ترتفع أسعارُ البضائع التي تشتريها، أليس كذلك؟ ثرواتهم تتزايد بسبب الأجور الضئيلة التي نتقاضاها من عملنا».

قال يافسي لنفسه: «الجميع غارقون في الجشع، أنظر كيف خطفت ماشا سلسلة الخرز من يدي البارحة! كلهم أوغاد، زمين لم يضربني لأنه كان يخشى أن أتصل بالشرطة، أخرجوني من منزلهم، لكنهم احتفظوا بهديتي، إذا كانوا يحسبون أني رجلٌ قذرٌ فليعيدوا إليَّ هداياي التي استلموها، يا لحقارتهم!».

تمتلئُ روحُ يافسي بمشاعرٍ مختلطةٍ منِ المرارةِ والحلاوة حين يبدأ في إلقاء اللوم على الآخرين، تحمله هذه المشاعر بعيدًا لَدرجة أنه يفقد إحساسه بما حوله. التقطت آذانه فجأةً صَوتًا لطيفًا وهو يقول له: «ما الذي أراه أمامي؟ يافسي كليمكوف؟».

رفع يافسي رأسه على عجلٍ ورأى أمامه الرجل ذا الشعر المجعد الذي كان يتحدث عن الثروات، لكنه لم يتعرف عليه.

قال له الشاب: «هل نسيتني؟ أنا ياكوف ابن عمك».

ضحك ياكوف، مدَّ يده إلى يافسي وجلس على الطاولة بجانبه، أثارت ضِحكاته سحابةً دافئةً من الذكريات...ذكرياتُ الكنيسة والوادي الوادع والنار وأحاديث الحداد. ظلَّ يافسي صامتًا، ابتسم محرجًا من ابن عمه ومن ثم ضغط على يديه وقال له: «لم أعرفك!».

ردَّ ياكوف: «بالطبع! بكل تأكيد! تصبح ذاكرتك ضعيفة في المدينة، أشياءٌ مختلفةٌ تزحف عليك من جميع الجهات، لدرجة تنسيك ذكريات الماضي، أخبرني كيف تسير الأمور معك؟».

ـ «لا بأس».

ـ «هل أنت عاطلٌ عن العمل؟».

ـ «نعم.»

أجابه كليمكوف على مضض، أراد تقييم مدى خطورة هذا الإجتماع، لكن ياكوف باشر في الحديث عن القرية بسرعةٍ كبيرة كما لو أنه يريد أن ينتهي من هذا الحديث في أسرع وقتٍ ممكن؛ أخبره في دقيقتين أن والده أصيب بالعمى، وأن والدته عانت من مرضها كثيرًا، وأنه يعيش في المدينة منذ ثلاث سنوات للعمل في المصنع.

أنهى حديثه بقوله: «وهذه هي حكايتي منذُ أن غادرتنا».

ياكوف متسخٌ بالسخام والزيتِ أكثر من باقي العمال، وعلى الرغم من ملابسه الرثَّة بدا ليافسي أنه يعيشُ حياةً مرفَّهة، أحَسّ بأريحيةٍ في الحديث مع يافسي الذي أخذ ينظر إليه بسرور ويستذكر ضرباته التي تلقاها حين كانا في القرية.

قال يافسي مناجيًا نفسه بخجل: «هل ابن عمي من الثُوَّار أيضًا؟».

قال له ياكوف: «أخبرني عن حالك؟»، أخذ يافسي ينظرُ إلى وجهه العريض المستدير الذي ترتسم عليه ابتسامةٌ جميلة، فأحسَّ بضرورة أن يصارحه عن وضعه الحالي، لكن شيئًا بداخله يمنعه من ذلك. أحسّ بتعاظم ذلك الشعورِ الغريب الذي سكن روحه في الصباح، أحس برغبةٍ في التهرب من أسئلة ياكوف؛ لذا ردَّ عليه قائلًا: «كيف حالك أنت؟».

ردَّ عليه ياكوف: «العمل شاقٌ والحياة تسيرُ على ما يرام، لقد أحببت الحياة في المدينة، فالأشياء فيها بسيطةٌ وواضحةٌ جدًا، لكننا مهانون في هذا العمل؛ فأشغالنا كثيرة ولا وقت لدينا لنعيش حياتنا، يومنا كله بل حياتنا كلها في يدِ رؤسائنا في العمل، وليس لدينا إلا دقائقٌ معدودةٌ لأنفسنا، ليس لدينا وقتٌ لقراءة الكتب. أودُّ الذهاب إلى المسرح ولكن متى سأنام إذا ذهبت؟ بالمناسبة هل تقرأ الكتب؟».

ـ «لا».

ـ «حسنًا، أعلم أنه لا وقت لديك للقراءة، أليس كذلك؟ بالنسبة لي فقد استطعت تنظيم وقتي للقراءة، يا لروعةِ الكتب الموجودة هنا! ما إن تشرع في قراءة كتابٍ واحدٍ حتى تغوص في أعماقه كما لو أنك تحتضن فتاةً عزيزة على قلبك. بالمناسبة كيف حالك مع الفتيات؟ هل أنت محظوظٌ معهن؟».

ـ «ليس كثيرًا».

ـ «أما أنا فينجذبن إلي! الفتيات هنا يا لجمالهن و... يا لها من حياة! هل سبق وأن ذهبت إلى المسرح؟».

ـ «نعم».

ـ «أنا أحبُ المسرح، اقتنصتُ كلَّ فرصةٍ هنا كما لو أنني سأغادرِ هذه المدينة في الغد أو سأموت بعد لحظات، أحبُّ سماع الموسيقى أيضًا، أحبُّ كلَّ شيء... حديقةَ الحيوان جميلةٌ أيضًا».

طغى احمرارُ خدي ياكوف من شدة حماسه على اسودادهما، ضرب شفتيه كما لو أنه يلعق شيئًا لذيذًا.

بدأ الحسدُ يدبُّ في أوصال يافسي؛ حسدٌ من جسد ياكوف الصحي وشهيته الشديدة، أخذ يسترجع ذكريات الماضي حين كان ياكوف يضربه بقبضته القوية؛ أحس يافسي بشعورٍ يمنعه من إيذائه، تحدَّث ياكوف بسرعةٍ ودون توقف، تُرفرف كلماته المسرورة حول رأس يافسيٍ مثل طائر السنونو، تَلقَّى حديثه المفعم بالحيوية وابتسم دون أن يشعر. أحسَّ يافسي بشعورين مزدوجين؛ أولهما رغبته في الإستماع إليه، وثانيهما شعوره بالإحراج والخزي من حاله، وعلى الرغم من أنه أراد التحدث عن نفسه فقد خشي من أن يخطئ في قولِ شيءٍ ما. طوقُ قميصه يضغط على رقبته، التفت فجأة ورأى جروخوتوف في الشارع عند النافذة، رآه يحمل على كتفه الأيسر بناطيل ممزقة وقمصانًا قذرة ومعاطف. أحسَّ يافسي بالغموض حين سمعه وهو يصرخ قائلًا: «أبيع ملابسَ قديمةً وأشتريها».

قال يافسي وهو يقف على قدميه: «لقد حان وقت الذهاب».

ـ «هل أنت مُتفرِّغٌ يوم الأحد؟ صحيحٌ نسيت أنك عاطل عن العمل. حسنًا، إذن دعنا نذهب إلى حديقة الحيوان. تعال إلى مسكني، أو من الأفضل أن آتي إليك بنفسي، أين تسكن؟».

ظلَّ يافسي صامتًا كونه لا يرغب في إخباره بمكان إقامته.

ـ «ما الأمر؟ هل تعيشُ مع فتاة؟ هذا لا يهم، ستعرّفني عليها، ما الذي تخجل منه؟ هل هذا هو ما يُخجلك؟».

ـ «أنا لا أعيش وحدي».

ـ «نعم أعلم».

ـ «لكنني لا أعيش مع فتاة؛ بل مع رجلٍ عجوز».

قهقه ياكوف قائلًا: «كم أنت مضحك! ما الذي تقوله يحقِّ الجحيم، لا نريد أن نصحب معنا رجلًا مسنًا بالطبع. أعيش مع اثنين من الرفاق لكني لا أحتكُّ بهما كثيرًا، لذا دعنا نتفق على مكان نلتقي فيه».

اختارا مكانًا للقاء وغادرا المطعم، صافح ياكوف ابن عمه مصافحةَ المُحِب، غادر يافسي من المكان على عجلٍ خشية أن يعود للحديث معه مجددًا، قال لنفسه وهو في طريقه للمنزل: «لا أستطيع الذهاب إلى ضاحيةِ محطةِ السكك الحديدية لأنني سأقابل زمين هناك وسيضربني، المحطة خطيرةٌ عليَّ فهي معقلُ الثُوَّار، سيكون ياكوف حينها بجانبي ولن أستطيع فعل شيءٍ أو الهرب من المكان».

أحسَّ يافسي بغضبٍ وحقدٍ يعتصران روحه ويخيِّمان عليها كظلٍ قاتم.

أخذ جروخوتوف يُغني خلف يافسي ويقول: «من يريد أن يشتري ملابسَ قديمة!»، ثم همس قائلًا: «كليمكوف! اشترِ قميصًا مني».

استدار يافسي وأخذ بعضًا من الملابس يتفحصها في يده بصمتٍ بينما كان الجاسوس يمتدح بضاعته بصوت عالٍ فاستغل الفرصة وهمس له قائلًا: «انظر إلى ذلك الشخص ذي الشعر المجعد، لقد كشفتُ أمره، كنت أراقبه منذ فترة وعلمتُ أنه ينتمي إلى الإشتراكيين، أريد منك أن تتوخى مراقبته، بإمكانك القبضُ على العديد من الرجال عن طريقه، إنه شاب بسيط، هل تسمعني؟»، أخذ قطعة الملابس من يد يافسي وصاح بنبرةٍ مهينة: «خمسة كوبيك لمثل هذا الثوب؟ أتسخر مني يا صديقي؟ لماذا تهينني هكذا؟ اغرب عن وجهي هيّا!»، أدبر جروخوتوف عنه وهو ينادي بملابسه ويسير في الشارع.

قال يافسي في داخله وهو ينظر إلى ظهر جروخوتوف: «سأخضع شخصيًا للمراقبة من هذه اللحظة!».

حين يتعرفُ أحدُ الجواسيسِ من ذوي الخبرة القليلة على أحد العمال فيتوجب عليه إبلاغ مسؤوله عن الأمر فورًا؛ فإما أن يُكلّفوا جاسوسًا آخر لديه خبرة أفضل ليعمل معه أو أن يذهبوا بأنفسهم للإشراف على المهمة، وحينها سيقول الجواسيس الآخرون والحسد يكتويهم «لقد أصبح واحدًا من الجواسيس المحرضين».

دورُ الجواسيسِ المحرضين محفوفٌ بالمخاطر، لذا تراهم يحصلون على مكافآتٍ مالية مجزية عند تسليم المشتبه بهم، يبذلُ جميعُ الجواسيس جهدًا جهيدًا ليصبحوا ضمن مجموعة المحرضين حتى أن بعضهم يحيك الدسائس لزملائه للحصول على هذه الفرصة، لكن مهمتهم ليست بتلك السهولة؛ ففي بعض الأحيان يُصبحُ هؤلاء الجواسيس جزءًا من العمال الذين يكتشفون سرهم لاحقًا ويعرفون مهنتهم الحقيقية؛ فيبادرون بضربهم إن لم يلوذوا بالفرار؛ يُسمي الجواسيسُ هذه الخطوة بـ«الهروب من حبل المشنقة».

شعر يافسي بصعوبةٍ في تصديق حقيقة أن ياكوف ينتمي إلى الإشتراكيين؛ لكنه في الوقت نفسه أراد تصديق الأمر، فقد تحوَّل الحسد الذي أثاره ابن عمه في صدره إلى غضبٍ عليه، تذكَّر في تلك الأثناء اللكمات التي تهاوت عليه من ابن عمه حين كان يعيش معهم في طفولته.

أبلغ يافسي بيوتر في المساء عن علاقته الجديدة مع أحدِ العمال وهو ينظرُ بعينيه جانبًا.

سأله بيوتر غاضبًا: «حسنا، وبماذا ستستفيد من معرفتنا بهذا الشخص؟».

ـ «لا شيء».

ـ «لا تعرف ما الذي يجب عليك فعله؟ إذن ما الفائدة من تعليمكم بحقِّ الجحيم؟».

توقّف بيوتر عن الحديث، انهار فجأةً؛ فبات شارد الذهن، خائر القوى، تبرُزُ من تحت عينيه بقعٌ داكنة.

قال يافسي مناجيًا نفسه والحزن يعتريه: «أعتقد أنه غارقٌ في التفكير في ورقِ اللعب مجددًا».

الفصلُ العشرون

في اليوم التالي علِمِ ساشا بنجاح يافسي في التعرف على أحدِ العمّال فأخذ يسأله عن تفاصيل الموضوع؛ فكّر هُنَيْهَةً ثم ابتسم ليافسي ابتسامةً ماكرة وبدأ في إعطائه التعليمات قائلًا: «انتظِر لبعض الوقت ثم أخبره أنك حصلتَ على وظيفة مكتبيةٍ في مكتب طباعة، اطرح أقل عددٍ ممكنٍ من الأسئلة، ودعه يتحدث عن نفسه، من المحتمل أن يطلب منك أن تطبع له، أخبره أنك ستفعل ذلك، ولكن حاول الإجابة بنبرةٍ غير مبالية ليحسبوا أن الأمر سيانٌ بالنسبة لك سواء أطبعت لهم أم لم تطبع، لا تسألهم عن سبب رغبتهم في الطباعة، تصرَّف معهم بحماقة مثلما أنت، ضع في حسبانك أن فشلك سيجلب لك الكثير من المتاعب، أبلغني بما تسمعه بعد كل اجتماع».

أحسَّ يافسي وهو يستمعُ إلى تعليمات ساشا وكأنه كلبٌ صغير مربوطٌ بحزام، بينما كان ينظر إلى وجهِ الجاسوسِ الأصفرِ البائسِ لم يفكر في شيءٍ سوى لحظةِ خروجه من ذلك المكان الذي تفوح منه روائحُ كريهةٌ التهمت جِلد وجهه ويديه.

ذهب يافسي للقاء ياكوف وقلبه فارغٌ كأنبوب، رأى ابن عمه واضعًا سيجارةً بين أسنانه ومميلًا قبعته فابتسم في وجهه وهو يضمرُ له الشرَّ بداخله.

صاح ياكوف مازحًا: «كيف العمل معك؟».

ـ «لا بأس به».

ـ «هل حصلت على وظيفة؟».

ـ «نعم».

قال يافسي لنفسه في هذه اللحظة: «لقد قلتها مبكرًا جدًا».

ـ «ما هي الوظيفة؟».

ـ «كاتبٌ في مكتب طباعة».

صفَّر ياكوف وسأله: «كم هو راتبك؟».

ـ «خمسة وعشرون».

ـ «في مكتب طباعة؟ يا له من راتبٍ جميل!»، تحمَّس ياكوف فجأةً ثم قال له: «سنتجول هذا المساء بصحبةِ فتاتين تعمل إحداهما في صناعة القبعات والأخرى في المخزن. سيكون هناك شخصٌ آخر

برفقتنا مغنٍ وعازفَ جيتار، ورجلين طيبين آخرين، في الواقع جميع الناس طيبون لكن ليس لديهم وقت للاهتمام بأنفسهم».

يتحدَّثُ ياكوف بسرعة، تبتسمُ عيناه بفرح وهو ينظرُ حوله، توقَّف أمام نوافذ المتجر وأخذ يطالع محتوياته بنظرةِ سرور، بدا كلُّ شيءٍ رائعًا ومثيرًا أمام ناظريه.

«انظر إلى هذا اللباس! إذا ما لبِست أوليا هذا الفستان فستتشابك فيه! انظر إلى هذه الكتب... الكتاب الأصفر الصغير هناك، هل تراه؟ لقد قرأته، عنوانه ‹الإنسان البدائي› يا له من كتابٍ رائع! أنصحك بقراءته وستتعلم عن نشأة الخلق، الكتب رائعةٌ للغاية فهي تفتح لك الآفاق لسبر أغوارِ هذه الحياة. أترى هذهِ الكتبَ السميكة؟ ما أصعب قراءتها فما أن تصل إلى منتصفها حتى تنسى ما حدث في البداية، وحين تصل إلى النهاية تنسى البداية أيضًا، فليذهبوا إلى الجحيم! لماذا لا يكتبون كتبًا أقصر؟».

بعدها أشار إلى الأسلحة المعروضة في المتجر وصرخ بنشوةٍ قائلًا: «انظر إلى هذه المسدسات، إنها مثل ألعاب الأطفال تمامًا».

أخذ يافسي ينظر إلى البضائع المتنوعة بكلِّ برودٍ تماشيًا مع مزاج ياكوف المتحمس، يبتسمُ مذهولًا كما لو أنه يشاهد للمرة الأولى هذه البضائعَ المُغرية والكتب الرائعةَ والألوانَ المتلألئةَ، أحسَّ بسرورٍ في قلبه وهو يستمعُ إلى صوت الشاب الغارقِ في فرحه بالحياة. اخترق صوتُ الشابِ الفراغَ الساكنَ في روح كليمكوف ونسى نفسه للحظات ثم قال مبديًا إعجابه: «يا لك من شخصٍ مرح».

فأجابه: «أحبُّ المرح جدًا، وقد تعلمت الرقص من القوزاق، هناك عدد من القوزاق في مصنعنا، هل سمعت أن الرجال في مصنعنا أرادوا أن يثوروا؟ لم تسمع بذلك؟ كيف لم تسمع به؟ كتبت الصحف عنه، لذلك تعلمت من الرقص من القوزاق، انتظر حت تراني أرقص، لا أحد يستطيع أن يتغلب علي».

سأله يافسي بعد سماعه يتحدث عن الثورة قائلًا: «لماذا أرادوا أن يثوروا؟».

ـ «لماذا نثور؟ لقد ظلمونا، ماذا سنفعل حيال ذلك؟».

ـ «أكنتَ معهم أيضًا؟».

ـ «من؟ المتمردون؟ بالطبع كنتُ معهم، ماذا سأفعل غير ذلك؟ شعبنا صالحٌ وقوي».

ـ «وما رأيك في القوزاق؟».

«القوزاق؟ لا بأس بهم؛ فهم جزءٌ من الشعب، في البداية ظنوا أنهم سَيُملون علينا أوامرهم، لكن بعد ذلك قالوا لنا "أيها الرفاق أعطونا المنشوراتٍ"».

توقّف ياكوف فجأةً عن الحديث، نظر إلى وجه يافسي، أخذ يمشي في صمتٍ مقطبًا حاجبيه.

حين جاءت سيرة المنشورات تذكّر يافسي واجبه، فقطَّب جبينه وبداخله رغبةٌ في أن يُبعِدّ شيئًا ما عن نفسه وعن ابن عمه، فقال بهدوء: «قرأتُ تلك المنشورات».

ـ «ما رأيك فيها؟».

ـ «لا أفهم مغزى تلك المنشورات، ما هدفها؟».

ـ «اقرأ منشوراتٍ أكثر وستفهمها».

ـ «لا أريد ذلك».

ـ «لم لا؟».

ـ «هكذا فقط».

ـ «ألا تحبُ تلك المنشورات؟».

ـ «لا أحبها».

أخذوا يمشون لبعض الوقتِ والصمتُ حديثهم، أخذ ياكوف نفسًا عميقًا وألقى نظرةً سريعةً على وجه ابن عمه، شعر يافسي أنه غير قادرٍ على التحرر من تلك الأفكار الخطيرة والسيئة.

عاود ياكوف حديثه بنبرةٍ متحمسة ولكن بصوت هادئ: «هذه المنشورات ثمينةٌ بالنسبة لنا، من الضروري أن نقرأها، في الواقع يجب أن يقرأها كل من يرزح تحت عبودية العمل، نحن يا ابن عمي عبيدٌ مقيدون بهذه الأعمال التي لا تنتهي، جعلونا أسرى للرأسمالية، تركونا نعيش فقراء في أجسادنا وأرواحنا، هل توافقني الرأي؟ هذه المنشورات ساعدت في تآكل سلاسل العبودية كما يأكل الصدأ الحديد وحررت عقولنا البشرية».

مشى كليمكوف مشيًا سريعًا فلم يكن يرغب أن يستمع لمثل هذا الحديث، حتى أن هذه الرغبة خرجت على لسانه فقال له: «لا تتحدث معي عن مثل هذه الأشياء من فضلك».

لكن ياكوف قاطع حديثه وقال: «هذه هي حديقة الحيوان، انظر!».

توجها إلى الحانة لشربِ زجاجة بيرة والإستماع إلى عزف فرقةٍ عسكرية.

دفع ياكوف كتف يافسي بكوعه وسأله: «هل أنت مرتاحٌ الآن؟»، حين توقف صوت الموسيقى تنهَّد ياكوف وقال: «يا لهذه المقطوعةِ الموسيقيةِ الرائعة! هذه مقطوعة أوبرالية اسمها فاوست، شاهدتها ثلاث مرات، ما أجملها! القصة غبية لكن الموسيقى جيدة، والأغاني أيضًا جيدة، تعال، دعنا نذهبُ ونشاهد القرود».

بينما كانا متجهين إلى قفص القرود أخذ ياكوف يحكي قصة موسيقى فاوست والشيطان مفستوفيليس، حتى أنه حاول أن يغني شيئًا ما لكنه لم يفلح وانفجر ضاحكًا وهو يقول: «لا أستطيع، الأمر صعبٌ علي وقد نسيت الأغنية، هل تعلم أن العازف الذي يعزف موسيقى الشيطان يحصل على ألف روبل في كل مرة، فليذهبوا إلى الجحيم! دعهم يحصلون على عشرة آلاف روبل، لا أحمل الحقد في قلبي على أي شخص، فأنا مستعدٌ لأن أهب حياتي لمن يريدها، هيا خذها والتهمها إن كنت تريدها!».

أجاب يافسي وهو ينظر حوله: «حسنًا».

حديثُ ياكوف عن الأوبرا، وجوهُ النسوة الجميلة، ضحكاتُ الناس من حوله، أحاديثهم في يوم العطلة، سماءُ الربيع الصافية؛ كلُ هذا جعل قلب يافسي ينتشي فرحًا.

قال في خاطره وهو ينظر إلى ياكوف: «يا له من شابٍ رائع وشجاع! يعرف كل شيءٍ رغم أنه في نفس عمري».

بدا ليافسي في تلك اللحظة أن ابن عمه يقوده إلى مكان بعيد، يفتح أمامه صفًا طويلًا من الأبواب الصغيرة، خلف كل بابٍ منها صوتٌ ونورٌ يُثير بداخله شعورًا بالمتعة، أخذ ينظر إلى الأشياء حوله، استوعب الأشياء الجديدة التي دخلت حياته، يشْخُصُ بصره في بعض الأحيان من القلق، تبدو وجوه الجواسيس وسط الحشود مألوفةً بالنسبة له.

وقف الشابان أمام قفص القرود، قال ياكوف وابتسامة عريضةٌ في عينيه: «أحبُ هذه الحيوانات الحكيمة، في الحقيقة أحب جميع الكائنات الحية، انظر إليها فقط! هل هي أقلُ منزلةً من البشر؟ لها أعينٌ وذقنٌ وملامحٌ مشرقة وأيدي!»، توقَّف عن حديثه فجأةً للاستماع إلى شيء ما ثم قال: «انتظر لحظة، ها هم رفاقنا». اختفى للحظاتٍ وعاد ومعه فتاة وشاب، يرتدي الشاب سترةً بلا أكمام، صرخ ياكوف بفرح قائلًا: «قلت إنك لن تأتي معنا أيها المخادع! حسنًا...حسنًا، هذا ابن عمي يافسي كليمكوف الذي أخبرتك عنه...هذه أوليا...أولجا كونستانتينوفا، وهذا هو أليكسي ستيبانوفيتش ماكاروف».

انحنى كليمكوف وصافح معارفه الجدد، ثمَّ قال مناجيًا نفسه: «أظنُ أنه سيوقعني في فخ مع هؤلاء، يُستحسنُ بي أن أذهب بعيدا»، لكنه لم يستطع الإبتعاد، نظر من حوله خوفًا من أن يراهُ أحد الجواسيس معهم، لكنه لم يرَ أحدًا.

قال ياكوف للفتاة: «يافسي غير منفتحٍ كثيرًا، ولا يشبهني؛ أنا أعيشَ حياةً منفتحةَ بينما هو شابٌ هادئ».

قالت: «لا تتكلف في الحديثِ معنا، نحن أناسٌ بسيطون».

أولجا أطولُ من يافسي، وقد زاد من طولها طولُ شعرها اللامع بتسريحته العالية، اصطبغت عيناها باللونين الرمادي والأزرق، لها وجهٌ بيضاويٍ شاحب.

بدت تعابير وجه الرجل ذكيةً ولطيفة، مشدودُ العينين كبيرُ الأذنين بطيءُ الحركةِ، يبدو على جسده القوي قلقٌ غريب.

سأل يافسي بنبرةٍ حزينةٍ قائلًا: «هل سنتجوّل هنا لفترةٍ طويلةٍ وكأننا مذنبون أضاعوا طريق التوبة؟».

ـ «هل هناك شيءٌ آخر نفعله؟».

ـ «دعنا نجلس في مكانٍ ما».

نكَّست أولجا رأسها للنظر في وجه كليمكوف وقالت له: «هل جئت إلى هنا من قبل؟».

ـ «كلا، هذه أول مرةٍ لي».

ـ «هل أعجبك المكان؟».

ـ «نعم أعجبني».

مشى إلى جانبها محاولًا رفع قدميه للأعلى مما جعل مشيته غريبة، جلسوا على طاولةِ الحانة وطلبوا الجعة، شرع ياكوف في إلقاء النكات، بينما كان ماكاروف يُصفِّر وهو يراقب من حوله بعينيه اللامعتين.

سألت أولجا يافسي: «هل لديك أي رفاق؟».

أجابها: «لا رفيق لي».

قالت وهي تبتسم: «هذا ما دار في بالي على الفور، علمتُ أنك تعيش وحيدًا، علمتُ ذلك من مشيتك الغريبة التي تعكسُ حال الأشخاص الوحيدين فهناك شيءٌ يجمعهم دائمًا، بالمناسبة كم عمرك؟».

«سأدخل عامي التاسع عشر قريبًا».

قال ماكاروف بنبرةٍ هادئة: «انظروا! هناك جاسوس!».

قفز يافسي على قدميه، لكن سرعان ما عاد إلى مقعده، نظر إلى أولجا ليرى ما إذا كانت قد لاحظت حركته اللاإرادية؛ لكنه لم يستطع معرفة ذلك، رآها تنظر بصمتٍ واهتمام إلى وجه الجاسوس ملنيكوف وهو يتحرك ببطءٍ بين الطاولات، مشى ملنيكوف منكِّسًا رأسه وَهو يتحسس طريقه بعينيه، كانت ذراعه معلَّقة كما لو أن خلعًا أصابها.

قال ياكوف بصوتٍ ضعيف: «ما باله يمشي وكأنه يهوذا ذاهبٌ إلى شجرة الحور[16]».

ردَّ ماكاروف: «يبدو وكأنه قد أفرط في الشرب».

ودَّ يافسي أن يقول: «لا، إنه دائمًا هكذا»، لكن تلك الكلمات لم تتجاوز لسانه، فتململ على كرسيّه وسكت.

دفع ملنيكوف نفسه وسط الحشد وكأنه حجر أسود وسرعان ما اختفى بينهم.

قالت أولجا لكليمكوف: «هل رأيت كيف يمشي؟».

أومأ يافسي برأسه.

تابعت أولجا حديثها: «صحيح أنه رجلٌ حقير، لكنه غير سعيد ووحيد».

رفع يافسي رأسه ونظر إليها باهتمام متوقعًا إكمالها لحديثها.

استأنفت حديثها: «أعتقد أن الوحدة هي أفظع ما يمر به الضعاف؛ يمكن أن تدفعهم لفعل أي شيء».

قال كليمكوف هامسًا: «نعم!»، نظر إلى وجه الفتاة بامتنان وكرر بنبرةٍ أعلى: «نعم!».

قال ماكاروف: «أنا أعرفه منذ أربع سنوات»، بدا وجه ماكاروف وكأنه أطول من ذي قبل وارتسمت عليه ملامحُ جافة، بدت عظامه من تحت جلده، فتح عينيه ووجَّه نظرةً حادة لما حوله قائلًا: «لقد بلَّغ عن أحدِ الطلبة الذين وزَّعوا علينا كتبًا للقراءة إضافةً إلى عاملٍ آخر اسمه تيخونوف؛ نُفي الطالب بعدها، ودخل تيخونوف السجن لسنةٍ تقريبًا ثم لقى حتفه بسبب مرض الحمى النمشية».

سألت أولجا كليمكوف فجأةً: «هل تخاف من الجواسيس؟».

ردَّ يافسي بنبرةٍ هادئة: «لماذا أخاف؟».

«رأيتك تقوم مكانك حين رأيت الجاسوس».

مسح يافسي رقبته وأجاب بنبرةٍ قوية دون النظر إليها: «لأنني... أعرفه أيضًا».

ردَّ ماكاروف وهو يبتسم: «آها! يا لك من شابٍ هادئ!».

تحرَّك جميعهم نحو يافسي وكأنهم يريدون إخفاءه من شخصٍ ما، لم يفهم سبب حركتهم هذه ولا سبب نظراتهم الحانية، حاول أن يبقى هادئًا خوفًا من أن ينطق بكلماتٍ خارج إرادته فيُفسد في لحظةٍ واحدة هذه الدقائق اللطيفة رغم القلق الذي جلبته له.

هبَّ نسيم مساء الربيع المنعش لتهدأ معه الأصوات والألوان، حُمرةٌ تتوهجُ في وجه السماء، الآلات النحاسية تصدرُ صوتًا يشي بإعيائها.

قال ماكاروف: «حسنًا، هل سنبقى هنا أم سنذهب إلى المنزل؟».

قالت أولجا: «ما هو برنامجهم هنا؟».

ردَّ عليها: «الغناء والرقص وما شابهه من الهراء».

قرروا العودة إلى المنزل.

في الطريق سألت أولجا كليمكوف: «هل سبق لك وأن دخلت السجن؟».

أجاب: «نعم»، ثم أردف قائلًا: «ليس لفترة طويلة».

سلكوا طريق العربات للوصول إلى مقصدهم، وجد يافسي نفسه في غرفة صغيرة على جدرانها ورقٌ أزرق، غرفةٌ مُغلقةٌ يصعبُ التنفسُ فيها؛ فتارةً تبعث على المرحِ وتارةً تبعث على الكآبة. عزف ماكاروف على الجيتار وغنى أغاني لم يسمعها يافسي من قبل، تحدث ياكوف بجرأةٍ عن كلِّ شيءٍ في العالم، يضحك على الأغنياء ويشتمُ المسؤولين، أخذ يرقص ويملأ الغرفة بخطوات قدميه وصراخه وصفيره، يتابعُ الجيتار رقصات ياكوف، يشجعه ماكاروف بالكلمات والصيحات الشعبية.

تنظر أولجا إليهم بهدوء ورضا، تسألُ كليمكوف من حين لآخر مبتسمةً: «هل أعجبك هذا العرض؟».

كان كليمكوف ثملًا ويشعر بسعادةٍ لم يعهدها من قبل، يبتسم ردًا على سؤالها، نسى نفسه ونسى ذلك الوغد المتعنت بداخله، اختفت تلك الأفكار التي تذكره بحياته قبل أن يستعيد وعيه.

لم يتذكر عمله حتى وصل إلى منزله، تذكَّر واجبه الذي يفرض عليه أن يُسلِّم هؤلاء الناس لرجال الشرطة، حين تذكَّر هذا الواجب شعر بقلقٍ شديد. توقَّف في منتصف الغرفة وعقله عاجزٌ عن التفكير، تنَّفس بمشقةٍ ومرَّر لسانه الجاف على شفتيه، خلع ملابسه بسرعةٍ ولم يرتدِ سوى ملابسه الداخلية، ظلَّ جالسًا عند النافذة. بعد عدة دقائق قال لنفسه: «سأقول لهم... لها...أولجا».

في تلك اللحظة استذكر صيحات النّجار الغاضبة ونعته له بالحشرة، هزّ كليمكوف رأسه ليزيل هذه الأفكار من رأسه وقال: «سأكتب لها أن تعتني بنفسها، سأقول لها... سأخبرها عن نفسي».

أعجبته هذه الفكرة لكنه تدارك حديثه وقال: «سيعثرون على رسالتي، سيفتشون المنزل، سيتعرفون على خط يدي وسأجلب الدمار لحياتي».

صوتٌ بداخله يقول له: «لا تفعل أي شيءٍ من تلقاء نفسك، أنجز الأعمال الموكلة إليك فقط».

جلس عند النافذة حتى الفجر، أحسَّ بانهيارٍ بداخله مثل كرةٍ مطاطية يُفرُّغ الهواء منها، اعترى الحزن شغاف قلبه، تخيَّل تلك الوجوه التي تنتظره في الظلام الدامس يتوسطهم وجه ساشا الشرير مثل كرةٍ حمراء، جلس كليمكوف القرفصاء على كرسيه غير قادرٍ على التفكير، وأخيرًا قام من مكانه واختبأ تحت غطاء السرير.

الفصلُ الحادي والعشرون

الحياةُ أشبه بحصانٍ عاش هادئًا لفترةٍ طويلةٍ من الزمن، وفجأةً بدأ يقفز بغرابةٍ رافضًا الإنصياع لرغبة أولئك الذين أرادوا السيطرة عليه...الذين أرادوا السيطرة عليه عبثًا بقسوتهم المعهودة.

يتحدثُ العاملون في قسم الأمن كلَّ مساءٍ وهم في ضياعٍ تام عن الإهتمام الدولي لما يحدثُ في روسيا، وعن الرابطة السرية للفلاحين الذين قرّروا الإستيلاء على الأراضي عنوةً من مالكيها، وعن تجمعات العمال الذين بدأوا في لوم الحكومة في وضحِ النهار، وعن قوةِ الثُوَّار التي أخذت تتنامى نموًا كبيرًا. واصل فيليب فيليبوفيتش دون أن يهدأ لهُ بالٌ في خرق آذان عملاء قسم الأمن بصوته الحاد المزعج، ألقى بأصابع اللوم على الجميع بسبب تكاسلهم وخمولهم، أما ياسنوجورسكي فكان يضرب شفتيه بأصبعه ويوجِّه نداءات محزنةٍ للعملاء وهو يضغط صدره بيديه، يقول لهم: «يا أبنائي، ابذلوا قصارى جهدكم في عملكم، تذكروا أن خدمة القيصر لا تضيع هباءً منثورًا».

سأله كراسافين والكآبة تعلو محياه: «ماذا علينا أن نفعل؟».

أخذ يلوِّح بيده ووقف لفترة طويلة مغلقًا فمه الأسود عاجزًا عن العثور على رد، وفجأةً صرخ قائلًا: «ألقِ القبض عليهم!».

استمع يافسي إلى أحاديثهم جميعًا، سمع صوت الجاسوس الأنيق ليونتيف وهو يقول لساشا: «من الواضح أن أساليب الحرب القديمة ضد المتمردين ليست جيدة في هذه الأيام التي تشهد جنونًا عالميًا».

قال ساشا مبتسمًا: «نعععم... لا يمكنك إخماد النار باللعاب!».

ارتبك الجميع، أخذو يشتكون ويصرخون، مدّ ساشا ساقيه الطويلتين وصاح ساخرًا: «آها! بات السادة الثُوَّار متفوقين علينا؟».

ضحك ساشا وأضحك الجميع معه، شعر يافسي أن هذا الرجل لم يكن خائفًا من أي شيء وحاول تجنُّب سماعِ كلامه.

يتخبُّط الجواسيس في الشوارع ليلًا ونهارًا، يأتون كلَّ مساءٍ حاملين معهم تقاريرَ طويلةً حول ما شاهدوا، يتحدثون مع بعضهم البعض بحزنٍ قائلين: «هل من المجدي أن نعمل بهذه الطريقة في الوقت الراهن؟ يا إلهي!».

بدا أن جميعهم لا يعرفون كيفيةَ وأدِّ الثورةِ الشعبيةِ في مهدها.

قال بيوتر: «سيمسحون بنا الشوارع».

صرخ سولوفيوف في خيبة أملٍ: «سيطردوننا إن بقينا على قيد الحياة إلى ذلك الحين، نريدُ منهم أن يعطونا معاشًا تقاعديًا على الأقل! لكنهم لن يفعلوا ذلك!».

تدّخل ملنيكوف قائلًا: «سيلُفون حبل المشنقة على رقابنا وأنت تتحدث عن المعاش التقاعدي!».

دبَّ التعبُ والقلقُ أجساد الجواسيس وأرواحهم، ارتعدت أوصالهم جميعًا من غدٍ مجهول، بدا لهم أنَّ نهايتهم باتت قريبة، هؤلاء الأشخاص الذين كان يافسي يرتعدُ خوفًا منهم منذ فترةٍ وجيزةٍ ويحسبهم ربابنة الحياة وقوةً لا تُقهر أضحوا يهرعون من زاوية إلى أخرى في مبنى قسم الأمن، أصبحوا كأوراقٍ تذروها الرياح في شوارع المدينة.

تعجَّب يافسي من وجودِ جواسيسٍ مبتهجين وواثقين ومرتاحي البال، يراهم يسيرون بخطى ثابتةٍ نحو المستقبل، متجاوزين كلَّ العقبات التي تعترض طريقهم، عبّر كلُّ واحدٍ منهم عن ارتياحه بطريقته الخاصة، لمَّح كلُّ واحدٍ منهم بأن ما يأتي سيكون أفضل مما مضى، قارن يافسي بين هؤلاء الجواسيس وبين أولئك الذين يتسللون سرًا إلى الشوارع ويقتحمون منازل الناس ويقبضون عليهم ليلًا بُغية الزجِّ بهم في السجون، أدرك أن بعض الجواسيس لم يفهموا الهدف من عملهم، ولم يؤمنوا بضرورة عملهم لاستمرار الحياة، ولم يفكروا بالأسباب التي تدفعهم لأن يكونوا هكذا وكأنهم مرضى منتشين من فرطِ شربهم للخمر وقلقين من المخاوف التي تحيط بهم.

أحبَّ أحاديث أولجا الهادئة، عينيها الزرقاوين، شفقتها على الآخرين وهي تتحدث إليهم، أحبَّ ياكوف بأحاديثه الصاخبة ومزاحه وتباهيه بنفسه، أحبَّ أليكسي بطيشه ولطافته وكرمه الذي يجعله مستعدًا للتخلي عن آخر قطعةٍ نقديةٍ في يده إن طلبها أحدهم. التقى يافسي بأشخاصٍ جدد رأى في كلِّ واحدٍ منهم إيمانًا بانتصار حلمه، انصاع يافسي لهذا الإيمان دون أن يشعر.

بعد أن رأى يافسي الإنهيار السريع لتلك القوة التي خضع لها لسنوات، بدأ يبحثُ عن طريقةٍ يمكنه من خلالها التحايل وتجنَّب الخيانة، فقال لنفسه: «إذا ذهبت معهم فيجب أن أبلِّغ عنهم، وحين أفعل ذلك سيستلمهم عميلٌ آخر وستزداد الأمورُ سوءًا، يتعين عليَّ أن أخبر ياكوف ورفاقه بالأمر، وطالما أنهم أصبحوا أقوى من ذي قبل فمن الأفضل بالنسبة لي أن أكون إلى جانبهم».

حينها انجذب يافسي لهؤلاء الأشخاص الجدد وبات يزور ياكوف على نحوٍ متكرر ساعيًا للقاء أولجا، بعد كل زيارة يبلِّغُ ساشا بصوتٍ هادئٍ عن تفاصيل علاقته معهم... ما قالوه وما قرأوه وما أرادوا فعله، استمتع في الواقع بسرد أحاديثهم لساشا وتكرارها بارتياح.

ردَّ عليه ساشا غاضبًا وساخرًا وهو ينظر إليه: «لا تلومنَّ إلَّا نفسك! يجب أن تدفعهم للحديث بنفسك إذا لم يفعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم، يجب أن تلمِّح لهم أنك قادرٌ على الطباعةِ لهم، ولفعل ذلك افتتح مكتبًا للطباعة، أتستطيع فعل ذلك؟».

لم ينبس يافسي بكلمة.

ـ «أنا أسألك أيها الأحمق، هل يمكنك أن تفعل ذلك؟».

ـ «نعم أستطيع».

ـ «لم لا ترفع صوتك؟ أخبرهم بهذا الإقتراح في الغد، حسنًا؟».

ـ «سأفعل ذلك».

كان سهلًا على كليمكوف تلبيةِ طلب ساشا، لكنه لم يجرؤ على إخباره بأن أولجا وياكوف طلبوا منه الطباعة مرتين، وتمكَّن في كلِّ مرةٍ من تجنُّبِ الإجابة على طلبهما.

ذهب في الليلة التالية إلى أولجا وفي صدره شعور الفراغ الذي يعتريه في كلِّ مرةٍ يتوتر فيها، قرر انجاز المهمة الموكلة إليه؛ لم يكن عليه أن يفكر فيها كونها أُمليت عليه من شخصٍ آخر، سيطر هذا القرار على صدره فزاحم كل الخوف وكل التعاطف الذي سكنه.

وقف كليمكوف أمام أولجا بقامتها الطويلة في الغرفة الصغيرة ذات الإضاءة الخافتة وخلفها ظلها الكبير المنعكسُ على الحائط، فقدَ شجاعته، شعرَ بالإرتباك، وقف عند الباب دون أن ينطقَ بكلمة.

قالت أولجا وهي تصافحه: «لقد عدتُ للتو من المصنع، عقدنا اجتماعًا آخر اليوم. ماذا بك؟ هل أنت متعب؟ هل أنت مريض؟ تعال واجلس لنتناول الشاي؟».

رفعت من نور المصباح ونظرت إلى كليمكوف بابتسامةٍ تعلو محياها، استمرت في حديثها وهي تُحضِر الشاي: «أحبُّ أن أشرب الشاي معك لوحدك، أنا ورفاقي نتحدث كثيرًا، في الواقع يتعينُ علينا أن نتحدث كثيرًا ونادرًا ما يكون لدينا وقتٌ للتفكير؛ هذا أمر سخيفٌ وسيئٌ لكنه الواقع، لذلك من الجيد رؤيةُ رجلٍ قليلِ الكلام مثلك. هل تريدُ كوبًا من الحليب؟ سيكون ذلك جيدًا فجسدك نحيل».

أخذ كليمكوف الكوب الذي قدمته له وارتشف ببطء الحليب اللذيذ، وبينما هو يشربُ الحليب فكَّر في الدخولِ في الموضوع فقال: «قلتم أنكم تحتاجون إلى الطباعة؟».

«نعم لقد طلبنا ذلك وأعلمُ أنك لن ترفض طلبنا».

قالت هذه الكلمات بكلِّ بساطةٍ وبثقةٍ لا تهتز؛ كانت هذه الكلمات ضربةً في قلب يافسي فجلس على الكرسي مندهشًا.

سأل بصوتٍ باهتٍ بعد أن سكت هُنَيْهَةً: «لماذا أنتِ واثقة؟».

«عندما طلبتُ منك هذه الخدمةَ لم تجبني؛ فجاء في نفسي أنك ستقول نعم بالتأكيد».

لم يفهم يافسي ما تعنيه، حاول ألّا تلتقي عيناه بعينيها وسأل مجددًا: «لماذا كنتِ واثقة؟».

ـ «لأنني أعتبرك رجلًا صالحًا فأثق بك».

ـ «يجب أن لا تثقي بي».

ـ «كفَّ عن الهراء، يجب أن أثق بك».

«لنفترض أنك كنتِ مخطئةً في الوثوق بي؟».

رفعت كتفيها، سكتت هُنَيْهَةً وقالت: «حسنًا لنفترض ذلك، ماذا سيحدث؟»، ثم تابعت: «حين لا نثقُ في المرءِ يعني أننا لا نحترمه، ونفترضُ فيه الكذب؛ فهل هذا الأمر ينطبقُ عليك؟».

أخذ يافسي يتمتمُ قائلًا: «نعم هذا الأمر ضروري».

ـ «ماذا تقول؟».

ـ «يمكنني الطباعة لكم».

تنهَّد يافسي بعد انجاز المهمة، صمت لعدة دقائق، جلس منكسًا رأسه وهو يضغطُ يديه بقوة بين ركبتيه ويستمعُ إلى دقات قلبه المتسارعة.

وضعت أولجا مرفقيها على الطاولة وأخبرته بصوتٍ منخفضٍ عن تفاصيل الطباعة المطلوبة، حاول تخزين التفاصيل في عقله وكرّرها على نفسه محاولًا التغلب على الشعور المؤلم في صدره الفارغ. بعد إن أنهى واجبه أحسَّ بغثيانٍ خانقٍ في أعماق روحه؛ شعورٌ أشبه بشعور الغربةِ في أعماقه، وصدعٌ يتسعُ شيئًا فشيئًا بداخله فيغرقُ في بحرٍ عميقٍ من العذابات.

قالت الفتاة بنبرةٍ هادئة: «هل لاحظت مدى سرعة تغيُّرِ الناس، كيف يزداد الإيمان في قلوبهم، مدى سرعة تعرُّفهم على بعضهم البعض، كيف يبحث الجميعِ عن أصدقاء، باتت البساطةُ والثقةُ سمتان غالبتان على الناس، تراهم على استعدادٍ لفتح قلوبهم للآخرين، يا لروعة هذا الأمر!».

أخذت كلماتها تهتزُّ أمام ناظريه كالفراشات، كلُّ فراشةٍ تحمل صفةً معيَّنة؛ فبعضها بسيطةٌ والأخرى لطيفةٌ والبعض الآخر سعيدة، بدت جميعها مبتسمة. لم يستطع كليمكوف النظر في وجه أولجا فظلّ يراقبُ ظلها على الحائط، رسم عليه عينيها الزرقاوين وفمها بشفاهه الشاحبة ووجهها الذي يبدو منهكًا وجديًا وناعمًا وطيبًا في الوقت ذاته.

قال مناجيًا نفسه: «هل عليَّ أن أخبرها الآن أن كل هذا مجردُ خزعبلات؟ وأن حياتها على المحك؟».

أجاب نفسه قائلًا: «سوف يطردونني! سيلقون عليَّ الشتائم ويطردونني».

سألته فجأةً: «هل تعرف زمين النجَّار؟».

ـ «لا، لماذا؟».

ـ «فقط اسأل، إنه رجل صالح أيضًا وهو اشتراكي، نحن كُثر».

قال كليمكوف في خاطره: «إذا كانت تعرفُ النجَّارَ فسأطلب منها أن تسأله عني وبعدها...».

أحسَّ يافسي بأن الكرسي لن يقوى على حمله أكثر وسينهار معه، أحسَّ بذلك الطعم المرِّ يسري في حنجرته، سعلَ وأخذ ينظر إلى أرجاء الغرفة الصغيرة النظيفة، أحبَّ يافسي هذه الغَرفة على الرغمِ من صغر حجمها وبساطتها، يُطلُّ القمر المستديرُ كوجهِ ياكوف بنظراته من النافذة ليَلْتَهِمَ ضوء المصباح في الغرفة.

قالت أولجا ببساطةٍ: «يزداد عدد الأشخاص الذين يدركون أنَّ القدر يناديهم ليساهموا في تنظيم الحياة بطريقةٍ مختلفة...بطريقةٍ تعتمد على الصدقِ والفكر».

أخذ يافسي يقول في نفسه وهو يخضع أكثر فأكثر لقوة مشاعر الفتاة المبتهجة بالنصر وقوة الإلهام الذي تتركه في قلبه: «هيَّا أطفئ النور وأجثو على ركبتيك أمامها، أمسك قدميها، أخبرها بكل شيء... وستركلك برجلها».

لم يردعه خوفه من ردِّها؛ فنهض من كرسيه بقوةٍ ومدَّ يده إلى المصباح، لكنه لم يكمل مشواره، ارتعشت قدماه وتوقف.

سألته أولجا: «ما الذي تفعله؟!».

حاول الإجابة لكن الكلمات أبت أن تخرج من فمه فأخذ يغرغر كأن في فمه ماء، جثا على ركبتيه، أمسك بثيابها ويداه ترتعشان، وضعتْ إحدى يديها على جبهته والأخرى على كتفه، أبعدتْ قدميها من أمامه بقوةٍ وصرخت صرخةً قوية قائلةً: «لا... لا تفعل هذا، انهض!».

ثمَّ تابعتْ: «يا إلهي! يا لفظاعة فعلتك يا عزيزي! أعلمُ أنك مُنهك وحالتك يُرثى لها، لكنك رجلٌ شريف... لا أفهم لماذا... لا تفعل ذلك وكأنك تطلب إحسانًا مني...هيَّا انهض!».

أثار دفء جسدها القوي رغبةً شديدةً بداخله، وشجعته يدها على المضي فيما يودُّ قوله لها.

قال لنفسه وهو يضعُ يده على ركبتيها: «إنها ليست قديسة».

صاحتْ عليه بنبرةٍ جديةٍ وكأنها تأمُره: «أقول لك انهض من مكانك!».

قام دون أن يقول لها شيئًا، شوّشت الفتاة رغباته وكلماته ومشاعره، رمت صدره بسهامٍ لسعت قلبه وأهانته.

بدأ يتمتم قائلًا وهو يفردُ يديه: «أريد منك أن تفهمي أن...».

فقاطعته قائلةً: «نعم... نعم، أفهمُ ما تودُّ قوله!... يا إلهي لماذا هذا الأمرُ في طريقي دائمًا، لقد سئمت من ذلك، سئمتُ من الإهانة، لا يمكنني أن أكون فتاةً للجميع، أوه! كم أنت تافه!».

أدارت ظهرها متجهةً نحو النافذة فحالت الطاولةُ بينها وبين يافسي، أحسَّ بارتباكٍ يشتعلُ في قلبه وبإهانةٍ مزَّقت أوصاله.

قالت له مجددًا: «أتوسل إليك ألّا تزورني مرةً أخرى، وجودك معي محرجٌ بالنسبة لي...ولك أيضًا».

ارتدى يافسي قبعته، وضع معطفه على كتفيه ومشى بعيدًا منكِّسًا رأسه، بعد عدة دقائق جلس أمام عتبة منزل أحدهم وهو يتمتمُ كما لو أنه سكرانٌ قائلًا: «تلك العاهرة!»، كرّرها محاولًا إخراجها بنبرةٍ تعكس حجم غضبه، نادى أولجا الطويلة بشتَّى الأسماء المهينة، وشتمها بأقبح الشتائم المخزية، ودَّ لو أنه يغمرها بالطين من أعلى رأسها إلى أخمصِ قدميها لكيلا يرى وجهها وعينيها؛ لكن تلك الشتائم أبتْ أن تصل إلى أولجا، وقفت صورتُها أمام عينيه تمدُّ يديها وتدفعه بعيدًا، غمرتْ صورتُها شتائمَه من فرطِ قوتِها، ورغم الغضب الذي يشتعلُ في قلبه لم يكن بيده إلّا أن يشعر بالعار من ذلك الموقف.

ظلَّ ينظرُ للقمر الوحيدِ لمدةٍ طويلة، يراه يسبحُ في فلكه في الكونِ الشاسع وكأنه كرةٌ مطاطيةٌ كبيرةٌ مضيئة؛ يسمع صوت حركته الهادئ وكأنه قلبٌ ينبض.

لم يُحبَّ يافسي هذا القرص الحزين الشاحب يومًا، اعتقد أنه يتعنَّتُ في مراقبته وحياته البائسة. جنَّ الظلامُ لكن عيون المدينة أبتْ أن تستسلم للنوم، تتعالى الأصواتُ فيها من كلِّ حدبٍ وصوب.

قال كليمكوف لنفسه: «كانت الليالي أكثر سكونًا في الماضي».

قام من مكانه ومشى دون أن يضع ذراعيه في أكمام معطفه، دفع قبعته ووضعها على رقبته ومضى وهو يقول: «حسنًا... حسنًا... انتظر يا يافسي...سأسلِّمها لهم وسأطلب الإنتقال إلى مدينة أخرى مكافأةً لي، هذا ما سأفعله».

استسلم على مضض لشعور الإنتقام من أولجا، جاهد نفسه لغرس هذا الشعور بداخله، لكن قلبه أبى إلاَّ أن يرِقَّ لها، زرع مشاعر الإنتقام في قلبه مجددًا، رغبةٌ تلو رغبةٍ تنخر قلب يافسي رغمًا عنه، أراد أن يرى الفتاة مرةً أخرى، يستمع إلى حديثها بكلِّ جوارحه، يجلس معها في غرفتها، لكنه أطفأ تلك الرغبة بأفكارٍ تُقلل من شأنها في عينيه.

«آهٍ لو أن لدي الكثير من المال لجعلتها تتمايل راقصةً أمام عيني، أعلمُ مدى خبث العاهرات»، تدارك حديثه وقال: «لن تستطيع تلطيخ صورتها يا يافسي ولن تصل إلى مرادك».

أراد أن يحقق أحد الهدفين؛ إما الوصول إليها أو تلطيخ صورتها لكنه لم يُفلح، اختلى بنفسه وأدرك هذه الحقيقة التي مزَّقته وجعلته يغطُّ في نومٍ عميقٍ ويغرق في الكوابيس.

الفصلُ الثاني والعشرون

تابع يافسي عمله كما خُطِط له؛ أعطى ماكاروف حزمًا ثقيلةً من ورق الطباعة على ثلاث دفعات، واكتشف بذكاء الموقع الذي ستُنشأ المطبعة فيه مما جعل ساشا يثني عليه أمام زملائه الجواسيس قائلًا: «يا لك من فتى رائع! الآن لدينا ستة أشخاص في أيدينا... عملٌ رائع يا كليمكوف، ستحصل على مكافأة».

لم يبالِ يافسي بما قاله من مديح، وما إن رحل ساشا حتى صوَّب مكلاكوف وجهه الصارم النحيل نحو يافسي، نظر الجاسوس الذي كان جالسًا على أريكة في زاوية مظلمة من الغرفة إلى وجه يافسي وهو يمسح شاربه ويقطِّبُ جبينه. استفزَّ يافسي بنظراته تلك فأشاح بصره عنه.

قال له الجاسوس: «كليمكوف... تعال إلى هنا».

عاد كليمكوف وجلس بجوار مكلاكوف.

سأله بصوتٍ منخفض: «هل صحيحٌ أنك بلّغت عن أخيك؟».

ـ «لا، ابن عمي».

ـ «ألست نادمًا على فعلتك؟».

ـ «لا»، بعدها أخذ يكرر العبارة التي ما انفكَّ المسؤولون عن قولها: «حالنا كحال الجنود، نخلع صلتنا بآبائنا وأمهاتنا وإخواننا حين يتعلق الأمر بخصومِ القيصر وأعداء بلادنا».

قال مكلاكوف مبتسمًا: «بالطبع، أنت رجلٌ صالحٌ حقًا».

من خلال صوته وابتسامته أحسَّ كليمكوف أن الجاسوس يسخرُ منه فأحسَّ بالإهانة وقال: «أعتقد أنني نادمٌ على فعلتي».

ـ «أأنت نادم؟».

ـ «ولكن تعيَّن عليّ أن أخلص في عملي...».

ـ «كلامك صحيح بالطبع ولا أختلف معك أيها الفتى الغريب».

أشعل مكلاكوف سيجارةً وسأل يافسي: «لماذا تجلس هنا؟».

ـ «ليس لدي أي شيءٍ أقوم به».

ضربه مكلاكوف على ركبته وقال فجأة: «يا لك من رجلٍ سيئ الحظ!».

قام يافسي من مكانه وقال له بصوتٍ يرتجف: «تيموفي فاسيليفيتش!».

ـ «ما الأمر؟».

ـ «أخبرني...».

ـ «اخبرك بماذا؟».

ـ «لا أدري».

ـ «وأنا كذلك لا أدري».

تمتم كليمكوف مرةً أخرى: «أشعر بالندمِ تجاه ما فعلته لابن عمي...لديهم فتاةٌ أيضًا، كلهم أفضل منّا، بحقِّ الإله هم أفضل منَّا!».

قام مكلاكوف من مكانه ومدّد أطرافه وتوجَّه تلقاء الباب وهو يقول له: «اذهب إلى الجحيم!».

ظلَّ يافسي وحيدًا في المكان فقال لنفسه: «كلهم بنفس الطباع، أولًا يجبرونني على فعل الشيء ثمَّ يبعدونني عنهم».

استيقظت في روحه رغبةُ الانتقام من أولجا، امتزج إحساسه بالحقدِّ تجاه الجميع، وجدتْ هذه المشاعر أرضًا خصبةً في روح يافسي التي أعيتها كثرة الإهانات، عاود الإنهماك في عمله ليتغلب على هذه المشاعر الكئيبة بحماسٍ لم يعهده من قبل.

حان موعد الليلة التي تقرر خلالها اعتقال أولجا وياكوف ومن تورَّط معهم في قضية المطبعة التي نجح يافسي في اكتشافها، علِمَ يافسي أن مكتب الطباعة موجودٌ في منزل يقع في حديقة يسكنه رجلٌ طاعنٌ في السن، رجلٌ ذو لحيةٍ حمراء وشعرٍ قصير يدعى كوستيا مع زوجته الشجاعة ذات الوجه الشاحب الذي تملؤه البثور وذات الأعينِ التيً يسكنها القلق، كوَّن يافسي انطباعًا عنهما بأنهما معتوهين وظنَّ أنهما قد قضيا وقتًا طويلًا في المستشفى.

حين رآهما يافسي في إحدى الليالي خلال حفل أقامه ماكاروف قال لياكوف: «أرى خوفًا في أعين هذين الشخصين!».

أحب ياكوف التباهي بمعارفه، فهزَّ رأسه المجعد وقال: «إنهما يعيشان حياةً صعبة، يعملان في السراديب ليلًا حيث الجو رطبٌ والهواء قليلٌ، ولا يرتاحان إلّا حين يدخلان السجن، كلاهما هاربان ويحملان جوازات سفر أشخاص آخرين، مثلُ هذه الحياة تجعلك تعيش رأسًا على عقِب، تتسم

حياتهما بالمرحِ رغم هذا؛ فحين يبدأ كوستيا بالحديث عن حياته تحسبُ أنه سيجعلك تذرفَ الدموع لكن ما أن يواصل حديثه حتى ننفجر من الضحك، لا يمكن لأحدهم أن يوقِّع بهم بسهولة».

قرر كليمكوف إلقاء نظرةٍ أخيرةٍ على أولجا، فقد عرف الطريق الذي سيسلكونه وهم يقتادونهم إلى السجن، ذهب لمقابلتهم محاولًا إقناع نفسه بأن كلَّ هذا لا يؤثر عليه، لكنه ما انفكَّ يفكر في الفتاة طوال الوقت.

قال لنفسه: «ستكون خائفةً بالتأكيد وستبكي».

مشى كعادته في الظلام بعيدًا عن الأنظار، حاول أن يصفِّر غير مبالٍ بما يحدث لهم لكن ذكريات أولجا ما انفكت تصارع تفكيره، تخيَّل وجهها الهادئ وعينيها الواثقتين، تذكَّر صوتها المكسور، تذكر كلماتها حين قالت له ناصحةً: «لا فائدة تُرتجى من التحدث عن الناس بهذه الصورةِ السيئة، ابدأ بتوبيخ نفسك أولا يا كليمكوف قبل الحديث عن الآخرين، لنفترض أن الجميع يوافقونك الرأي بأن الحياة صعبةٌ بسبب دناءة الناس، هل سيجدي ذلك نفعًا؟ سيكون الأمر سخيفًا إذا فكرنا بهذه الطريقة، ارفع من قيمة نفسك كما تشاء لكن لا تقلل من شأن الآخرين، من أعطاك الحقَّ لتقلل من شأنهم؟».

حين كان يافسي يستمعُ إلى أولجا يشعرُ دائمًا بأنها صادقةٌ في حديثها؛ ازداد يقينه في تلك اللحظات بصدقها لكنه كان خائفًا من رؤيتها في تلك الحالة من الهلعِ والبؤسِ والبكاء.

سمع من بعيدٍ صوت عجلات العربة وقرعِ حوافر الخيول التي تجرها، استرق كليمكوف النظر من بوابة المنزل منتظرًا مرور العربة، حين مرَّت من أمام عينيه نظر إليها بقلق، رأى وجهين كئيبين، سائقٌ له لحيةٌ رمادية وبجانبه ضابطٌ له شارب كبير.

قال في نفسه: «هذا كل شيء، اعتقد أني لن أراها».

لكن عربةً أخرى أقبلت من نهاية الشارع ومرَّت عليه بسرعة، استمع يافسي إلى السياط وهي تتهاوى على الحصان بصهيله المنهك، ظنَّ بأنهم سيقضون حياتهم في السجن إلى الأبد.

تجلسُ أولجا ورأسُها ملفوفٌ بوشاح بجانب الشرطي الشاب، عند سائقِ العربة يجلس شرطيٌّ أبيضُ الوجه حسنُ المظهر بدا مألوفًا ليافسي، بدت أولجا هادئةً غير خائفةٍ تمامًا، دخلت السعادةُ قلب يافسي فجأةً وقال لنفسه وكأنه يردُّ على شخصٍ لا يرغب بمحاورته: «لن تبكي، لن تبكي!».

أغلق عينيه وأخذ يبتسم واقفًا عند الباب، ثم سمع وقع الأرجلِ وصوت الخيول، فعلِم أنهم يقتادون المساجين عبر الشارع، غادر موقعه محاولًا المشي دون ضجيجٍ، هرع نحو الشارع وسار عبر سكك المنازل حذرًا إلى أن وصل إلى منزله منهكًا يتصبب العرقُ منه.

في مساء اليوم التالي قال فيليب فيليبوفيتش بصوتٍ أرقَ من المعتاد: «أهنئك يا كليمكوف على إنجازك الرائع! آمل أن تكون الحلقة الأولى لسلسلة النجاحات القادمة».

أخذ كليمكوف يحرِّكُ قدميه ويمدُّ ذراعيه بهدوء كما لو أنّه يرغبُ في تحرير نفسه من هذه السلسلة.

كان هناك عددٌ قليل من الجواسيس في الغرفة، استمعوا في صمتٍ إلى ما يقوله فيليب فيليبوفيتش وهم يلقون نظراتهم نحو يافسي الذي أحسَّ انهم ينظرون إلى جسده النحيل، فشعر بالحرج والانزعاج من نظراتهم.

عندما انتهى فيليب فيليبوفيتش من حديثه طلب منه يافسي أن ينتقل إلى مدينة أخرى.

ردَّ عليه فيليب فيليبوفيتش بنبرةٍ جافة: «هذا هراء يا أخي! عارٌ عليك أن تكون جبانًا خاصةً في هذا الوقت، ماذا حلَّ بك؟ هذا نجاحك الأول وتريد أن تفرَّ منه؟ أعرفُ بنفسي متى يتعين عليَّ نقلك، اذهب من هنا!».

قال كليمكوف لنفسه كئيبًا مجروحًا: «هذه هي مكافأتهم لي!».

لكنه كان على خطأ لأن المكافأة جاءت من ساشا الذي قاطعهما فقال: «تعال إلى هنا وخذ هذا الظرف».

صافح يافسي وفي يده الصفراء الرطبة ظرفٌ سلمّه إياه ومضى.

قفز ياكوف زاروبين متجهًا نحو يافسي وقال له: «كم المبلغ الذي حصلت عليه؟».

قال كليمكوف الذي فتح الورقة مترددًا: «خمسة وعشرون روبل».

ـ «كم كان عددهم؟».

ـ «سبعة».

ـ «سبعة!».

رفع زاروبين عينيه إلى السقف وتمتم قائلًا: «يجب أن يكون المبلغُ ضعفين...لا ثلاثة أضعاف، إذا كانٍ عددهم سبعة فيعني أن المبلغ واحدٌ وعشرون روبل فقط..بمعنى أنهم أعطوك أربعة روبل عن كلِّ شخص...لا بل ثلاثة ونصف عن كلِّ واحدٍ منهم».

صفَّر زاروبين ونظر حوله ثم قال بنبرةٍ منخفضة: «حصل ساشا على مئة وخمسين روبل، بلغت فاتورة مصاريفه في هذه القضية ثلاثة وستون روبل، إنهم يخدعوننا! ماذا ستفعل الآن يا يافسي؟ هيَّا لنمرح قليلًا بهذا المال!».

قال كليمكوف: «هيا بنا»، لكنه إلى تلك اللحظة لم يستطع أن يقرر ما إذا كان سيضع المال في محفظته وهو ينظرُ إليه بارتياب.

الفصلُ الثالث والعشرون

في الطريق قال زاروبين ليافسي بنبرةٍ جدية: «على كلِّ حال، هؤلاء الذين نعمل معهم مجردُ حثالة!».

ردَّ كليمكوف هو يحسُّ بالإهانة: «لماذا تقول هذا؟»، تنهَّد وقال بصوتٍ منخفض: «ليسوا حثالةً لتلك الدرجة».

قال زاروبين: «يعطوننا القليل من المال لقاء عملنا! أعرفُ كيف تسير الأمور! لا يمكنهم خداعي، في إحدى المرات احتجز كراسافين أحدَ الثُوَّار وحصل على مئة روبل، هل تصدق هذا؟ وأرسلوا إليه مئة روبلٍ أخرى من سان بطرسبرج، أما سولوفيوف فحصل على خمسة وسبعين مقابل تسليمه امرأةً مخالفةً للقانون، ومكلاكوف معهم أيضًا فهو يلقي القبض على المحامين والأساتذة والكتَّاب الذين لهم سعرهم الخاص على الرغم من قلةِ خطورتهم، أعتقد أنَّ السبب وراء سعرهم المرتفع صعوبة القبض عليهم».

أخذ زاروبين يتكلَّمُ دون توقف، كان كليمكوف راضيًا عن ثرثرته كونها تجنِّبه التفكير في تلك المشاعر الثقيلة الجاثمة على صدره مثل صخرةٍ حامية.

دخل الشابان إلى إحدى الحانات، توجَّه زاروبين نحو صاحبة الحانة ذات القامة الطويلة والعين العوراء وسألها بنبرةٍ من اعتاد ارتياد المكان: «هل ليديا وكابا هنا؟ حسنًا يا يافسي سأعرفك على كابا، إنَّها فتاةٌ أشبه بالوحش! سوف تُعلِّمُك ما لن تتعلمه في مئةِ عام، حسنًا، هاتِ عصير الليمون وشراب الكونياك، يجب أولًا يا يافسي أن نتناول القليل من الكونياك مع عصير الليمون، سيعجبك هذا النوع من الشمبانيا وسيجعلك تحلِّقُ في الهواء، هل يناسبك هذا؟».

«الأمر سيانٌ بالنسبةِ لي».

بدت الحانة باهظةَ الثمن، جميلةً بستائرها الفخمة المنسدلة على نوافذها وأثاثِها الغريب على يافسي، كانت الفتيات اللاتي يرتدين ملابسَ أنيقة يمشين بفخرٍ ولا يجرؤ أحدٌ على الإقتراب منهن إلّا بشقِّ الأنفس، شدَّت كلُّ هذه الأشياء انتباهه، جلس في زاويَّة الحانة، تنحَّى جانبًا للسماح للفتيات بالمرور، مررن عليه وكأنه غيرُ موجود، لامست ملابسهن الخفيفةُ ساقيه، يمشين بأجسادهن المُتعرِّقة اللاتي لم يسترها إلّا ملابسُ خفيفة، تدورُ أعينهن تحت جفونهن المكتحلة، بدت أعينهن الكبيرة متشابهةً بلا روحٍ رغم اختلاف ألوانها.

سألت فتاةٌ يميل شعرها إلى الحُمرة زميلتها السمراء ذات الشريط الأزرق الملتف حول عنقها «أهؤلاء طلبة؟»، أدخلت الفتاة التي تهمسُ لزميلتها الكآبة في قلبِ يافسي فسأل زاروبين منزعجًا: «هل يعرفون من نحن؟».

«نعم بالطبع يعرفون ذلك، ألا تراهم يأخذون منا نصف السعر لرسوم الدخول ويخصمون خمسة وعشرين في المئة من الفاتورة!».

تناول يافسي كوبين من مشروبٍ غازي، لم يُدخل هذا المشروبُ البهجةً في قلبه لأنَّ الأشياء حوله لم تعُد تُثيره وبدت تشبه بعضها، رأى يافسي فتاتين؛ ليديا طويلةُ القامةِ قويةُ البنيةِ لها رأسٌ صغيرٌ غيرُ متسقٍ مع جسدها وجبهةٌ صغيرة وذقنٌ بارزٌ وفمٌ مستدير وأسنانٌ صغيرةٌ كأسنان الأسماك وعيونٌ قاتمةٌ وماكرة، أما كابيتولينا فعريضةُ المنكبينِ ممتلئةُ الجسم ولها جسدٌ كأنه كراتٌ مختلفةُ الأحجام جمعها أحدهم في مكانٍ واحد ولها عينين كالكرات قاتمتين كعيني أعمى.

بات زاروبين الأسود الصغير مضطربًا كذبابةٍ تبحث عن طعام، يشمُّ كلَّ شيءٍ حوله، يدير رأسه هنا وهناك، يحرِّك ساقيه إلى الأعلى والأسفل ذهابًا وإيابًا، يتلمسُّ بيديه النحيفتين الطاولة ليمسك كلَّ ما فيها ويستشعره بيديه. بدأ يافسي يشعر فجأةً بغثيانٍ شديدٍ من زاروبين وهو يقول في نفسه: «الحقير! أنا من دفعت المال وهو من أخذ الفتاة الجميلة لنفسه وترك لي هذه القبيحة!».

شعر يافسي أن سبب انزعاجه من زاروبين أكبرُ من ذلك، فملأ كوبًا كبيرًا من الكونياك وشربه بجرعةٍ واحدة، فتح فمه وحمْلقَ بعينيه.

صاح ياكوف قائلًا: «يا لك من ماكر!».

ضحكت الفتيات من قوله لكن يافسي ظلَّ كالأعمى والأصم لا يدري بأي أرضٍ هو وكأنه غطَّ في نومٍ عميق.

سحب ياكوف يافسي من كُمِّه ليرفعه وقال له: «هذه ليديا يا يافسي، صديقتي الصدوقة، يا لها من فتاةٍ حكيمة بل في غاية الحكمة! حين أنال ثقة المسؤولين سآخذها بعيدًا من هنا وأتزوجها واجعلها تعملُ معي، أتشاطريني الرأي يا عزيزتي؟».

أجابت الفتاة بنبرةٍ واثقةٍ وهي تلوِّح بعينيها اللامعتين: «سنرى».

قالت كابيتولينا وهي تضرب كتف يافسي بيدها الثقيلة: «لماذا أنت صامتٌ يا صديقي يافسي؟».

قال له ياكوف: «هذه الفتاة تخاطب الجميع باسمهم الأول دائمًا».

قال يافسي دون أن ينظر إلى الفتاة مبتعدًا عنها: «الأمرُ سيانٌ بالنسبةِ لي، لكن قل لها أنني لا أحبها، وعليها أن تذهب بعيدًا عني».

سكتَ الجميع لبضع ثوانٍ حتى كسرت كابيتولينا صمتهم بنبرةٍ هادئةٍ فقالت: «فلتذهبوا إلى الجحيم!»، وضعت يديها على الطاولة ورفعت جسدها الثقيل ببطءٍ من الكرسي، انزعج يافسي لأنها لم تشعر بالإهانة من كلامه فنظر إليها وقال: «أيُّ نوعٍ من الفيلةِ أنتِ؟».

صاحت ليديا متعاطفةً مع زميلتها: «يا لك من فتى فظ!».

ردّ زاروبين: «كلامها صحيحٌ يا يافسي، يا لفظاظتك! إنها فتاةٌ رائعة لا يُقدِّر قيمتها سوى أصحاب الذوق الرفيع».

ردَّ يافسي: «الأمرُ سيانٌ بالنسبةِ لي، أرغبُ في شرب الجعة».

صاح زاروبين: «الجعة هناك! عزيزتي كابا احضري لنا الجعة من فضلك».

أدارت الفتاة ظهرها وأخذت تسير وهي تسحبُ رجليها على الأرض، انحنى زاروبين نحو يافسي وقال هامسًا: «صحيحٌ يا يافسي أن هذا المكان يقدِّمُ مثل هذه الفتيات، لكنهن بشرٌ مثلك ومثلي، لماذا تهينهن هكذا؟ لم يأتين إلى هذا المكان بمحضِ إرادتهن».

صرخ كليمكوف قائلًا: «توقَّف!».

أراد يافسي في تلك اللحظات أن يعُمَّ الهدوء أرجاء المكان، أراد أن تتوقف الفتيات عن الحركةِ في المكان كغيوم ربيع حزينة بعثرتها الرياح، أراد أن يتوقف عازف البيانو بوجهه الداكن الذي يشبه وجه الغريق؛ أراده أن يتوقف عن وضع أصابعه على مفاتيح البيانو الصفراء التي تبدو كأسنان وحشٍ ضخم يضحك عاليًا، أراد أن تتوقَف ستائر النوافذ عن الرفرفة بهذه الغرابة كما لو أن يدًا خفيةً تجرهاً من الخارج. تخيَّل أن أولجا بثيابها البيضاء تقفُ عند الباب، نهض من مكانه وأخذ يمشي حول الغرفة ويضرب الجميع على وجوههم بكلِّ قوته، أراد أن يُري أولجا أن الجميع مغتاظٌ منه وأنها لم تكن على حق ولم تفهم شيئًا.

صاح زاروبين فتهاوت كلماته المتذمرة على آذان يافسي وهو يقول: «لقد جئنا إلى هنا لنمرحَ لا لنتسبب لأنفسنا بفضيحة!».

ألقى يافسي نظرةً باهةً على وجه ياكوف وقال لنفسه: «سقطتُ بسبب وشايتي تلك في هذه الحفرة من الحياة الجهنمية! كلُ ما يحدث لي بسببها!».

تناول بيده زجاجة جعة وصبَّ كوبًا لنفسه وشربه، قام من مكانه ممسكًا الزجاجة وقال: «المال مالي وليس مالك أيها الحقير!».

قال زاروبين: «لماذا تقول هذا؟ نحن رفاق!».

نكَّس زاروبين رأسه بشعره القصير، رأى يافسي عيونه الصغيرة اللامعة البارزة على وجهه الداكن وأسنانه البارزة وقال له: «انتظر واجلس مكانك».

لوَّح كليمكوف بالزجاجة وضربه في وجهه فأصابت عينيه وبدأ الدمُ الداكن ينهمرُ منهما، أحسَّ كليمكوف بفرحةٍ بداخله، لوَّح بالزجاجة مرةً أخرى وسكب الجعة على نفسه، هرع الجميع إليه

وبدأوا يصرخون ويولولون، هاجم أحدهم وجه كليمكوف بأظافره، قيّدوه من ذراعيه وساقيه ورفعوه من الأرض وحملوه من هناك، بصق أحدهم على وجه يافسي وأمسكه من رقبته وشعره.

استعاد حواسه في مركز الشرطة وهو في حالةٍ يرثى لها؛ خدوشٌ على وجهه، جسده مبللٌ بالكامل، حينها تذكّر كل شيءٍ فكانت أولُّ فكرةٍ في رأسه تقول: «ماذا سيحدث لي الان؟».

نصحه شرطيٌ تربطه به معرفةٌ بأن يغسل وجهه ويذهب إلى المنزل.

قال له: «هل سيحاكمونني على فعلتي؟».

قال ضابط الشرطة متنهدًا: «لا علم لي، لكن القسم الذي تعملُ فيه لديه سلطةٌ قوية ومخولٌ لفعلِ أيّ شيءٍ وسيعتنون بك».

ابتسم يافسي بعد أن سمع جواب الشرطي.

بعد عدة أيام من الغموض والحيرة استدعى فيليب فيليبوفيتش يافسي ليمثُل أمامه فأخذ يصرخُ في وجهه قائلًا: «أيها الأحمق يجب أن تكون قدوةً للآخرين لا أن تجلب الفضائح لنا، إذا ترامى إلى سمعي أنك رجعت لمثلِ هذه الأفعال المشينة فسأضعك في السجن لشهرٍ كامل، هل تسمعني؟».

اشتعل الخوفُ في قلبِ كليمكوف، انطوى عن الناس يعيش حياته بهدوءٍ وصمتٍ بعيدًا عن كلِّ شيءٍ، أخذ يُرهق نفسه بُغية الهروب من تلك الأفكار المزعجة. عندما التقى ياكوف زاروبين رأى ندبةً حمراءً صغيرةً على عينه اليمنى، شعر يافسي بالسعادة لرؤية هذه الندبة عليه، شعر بالفخر من نفسه لأنه تحلّى بالشجاعة لضرب شخص ما.

سأله ياكوف: «لماذا فعلت هذا بي؟».

ـ «كنت ثملًا حينها».

ـ «أيها الشيطان! ألا تعرف قيمة وجوهنا في عملنا؟ لا يمكننا تحملُّ إلحاق الأذى بها».

طلب زاروبين من يافسي أن يدعوه للعشاء تكفيرًا عمّا حدث.

الفصلُ الرابع والعشرون

لم ينجح كليمكوف في النأي بنفسه عن تلك الأفكار العدائية؛ فظهرت مجددًا في رأسه.

انتشر خبرٌ بين الجواسيس بأن بعض الوزراء تلّقوا رَشَاوَى من أعداء القيصر وروسيا، وشكَّلوا عصابةً لأسقاطه واستبدال النظام الروسي الحالي بنظام مستعار من حكومات أجنبية، الأمرُ الذي سيُلحق الضرر لا محالة بالشعب الروسي. أصدر هؤلاء الوزراء بيانًا ادَّعوا فيه أن القيصر سيمنح الشعب حرية التجمع أينما يريدون والتحدث عن كل ما يهمهم ونشر كل ما يشاءون في الصحف، حتى أنهم سيغدون أحراراً في اختيارهم الإيمان بالإله أو الكفر به.

أصاب القلقُ مجددًا أجهزة السلطة الكئيبة والمحبطة، باتوا يخاطبون الجواسيس بلطف، لم تُفصِح أيٌ من تلك الأجهزة عن ماهية العمل القادم لكن الاستعدادات الجارية كشفت عن مدى أهمية المهمة المقبلة. يتشاورُ فيليب فيليبوفيتش سرًا على مدار ساعات متواصلة مع كراسافين وساشا وسولوفيوف وغيرهم من العملاء ذوي الخبرة، يخرجون من تلك الإجتماعات مكفهري الوجوه مشغولي البال، يُجيبون رفاقهم بإجابات قصيرةٍ غير مفهومة حين يطرحون عليهم الأسئلة.

سمع يافسي في إحدى المرات صوت ساشا الخبيث يتسربُ عبر الباب الواقع بين المكتب الخارجي ومكتب فيليب فيليبوفيتش: «لا ينبغي لنا التحدث معهم لا عن الدستور ولا عن السياسة؛ بل يجب أن نقول لهم إن النظام الجديد سيِّدمرهم... سنقول لهم أن الغالبية منهم سيموتون من الجوع، ومن تبقَّى منهم سيتعفن في السجن، لكن المشكلة فيمن يعملون معنا؛ إنهم أنذالٌ منحطون وحيواناتٌ غبيةٌ مريضةٌ نفسيا».

ردَّ عليه فيليب فيليبوفيتش بصوت عالٍ: «وحده الإله يعلمُ ما تتحدثُ عنه!».

سمع يافسي أيضًا صوت ياسنوجورسكي الحزين وهو يردُّ عليه: «يا لغرابةِ خطتك يا رجل! لا أستطيع أن أفهم ما تودُّ قوله».

كان بيوتر وجروخوتوف ويافسي واثنين من الجواسيس الجدد جالسين في المكتب الخارجي، أحدهما محمُّر الشعر معقوفُ الأنفِ وجهه مليءٌ بالنمش يرتدي نظاراتٍ ذهبية، أما الآخر فَحَليقُ الوجهِ أصلعُ الرأسِ أحمرُ الخدِ واسعُ الأنفِ له وحمةٌ أرجوانية على رقبته بالقرب من أذنه اليسرى. انصَتوا جميعهم لحديث ساشا وهم ينظرون إلى بعضهم البعض والصمتُ يكسوهم. قام بيوتر من مكانه لعدة مرات متجهًا نحو الباب ليدخل عليهم لكنه لم يدخل، أخيرًا سعل بصوتٍ عالٍ بالقرب من الباب فإذا بأحدهم يُغلقه، تحسس الجاسوس الأصلع أنفه بأصابعه الغليظة وسأل بنبرةٍ هادئة: «من يقصدُ بالأنذال؟».

لم يردَّ عليه أحدٌ في البداية، ثم تنهَّد جروخوتوف قائلًا: «يقصدنا جميعًا».

صاح بيوتر مبتسمًا: «يا له من وحش ذكي! فاسدٌ حتى النخاع لكن قوته آخذةٌ في التعاظم! هنا نرى أهمية التعليم للإنسان».

نظر الجاسوس ذو الرأس الأصلع إلى الجميع بعيون الجواسيس وسأل مرة أخرى: «ما الذي يعنيه بقوله ذاك...هل يعنينا نحن؟».

قال جروخوتوف: «السياسة! السياسة ليست عملًا قذرًا وإنما عملٌ يتطلبُ القليل من الحكمة».

قال بيوتر: «لو أنني تلقيت تعليمًا جيدًا لتفوقتُ أيضًا».

يتأرجح الجاسوس ذو الشعرِ المحمَّر على مقعده بلا مبالاة متثاوبًا بين فينةٍ وأخرى.

خرج ساشا من مكتب فيليب فيليبوفيتش غاضبًا أشعث المظهر، توقف عند الباب، نظر إلى الجميع وسأل بنبرةٍ ساخرة: «أتتنصتون علينا؟».

خرج بقيةُ الجواسيس من مكتب فيليب فيليبوفيتش واحدًا تلو الآخر تعلوهم علامات التعبِ والخزي وكلٌ واحدٍ منهم يعلّقُ على الآخر، أما مكلاكوف فخرج بمزاجٍ متعكِّر تعلو عينيه الإهانة، خرج بسرعة من المكتب وضرب الباب بقوةٍ خلفه.

قال ساشا لبيوتر: «سنقلب الموازين ضدهم، سننشئ تنظيمًا سريًا، وسيظلّون حمقى كما كانوا! هذا ما سيحدث في الواقع! لا أحد يغادر المكتب، سنعقدُ اجتماعًا».

ظلَّ الجميع ساكنًا في مكانه، خرج ياسنوجورسكي من مكتب فيليب فيليبوفيتش بابتسامةٍ عريضة تعلو محياه لدرجةِ أنّ آذانه وصلت إلى الجزء الخلفي من رقبته، أخذ ينزلقُ من بينهم وكأنه قطعةُ صابونٍ كبيرة، مرَّ من بين الجواسيس يصافحهم واحدًا واحدًا وهو يومئ برأسه بكل لطفٍ وتواضع، توجَّه فجأةً نحو إحدى زوايا المكتبِ وبدأ في مخاطبة العملاء بنبرةٍ حزينةٍ قائلًا: «أيها الخدمُ الصالحون للقيصر، أخاطبكم... بقلبٍ يعتريه الحزنُ والأسى، يا من لا يعرفُ الخوف طريقًا إلى قلوبكم، يا من تُلقون باللوم وراء ظهوركم، الأبناءُ المخلصون لأبيكم القيصر، الأبناءُ المخلصون لأمكم الكنيسة الأرثوذكسيَة، أخاطبكم اليوم...».

همسَ شخصٌ ما بالقرب من يافسي قائلًا: «انظر إلى هذا الرجل كيف يصرخ!»، ظانًا أنه سمع شتيمةً قبيحة من ياسنوجورسكي.

تابع ياسنوجورسكي حديثه قائلًا: «تعرفون أن عدوّنا يسلكُ طرقًا ماكرةً في الوقت الراهن، ويحيك الدسائس والمؤامرات، قرأتم بيان الوزير بوليجين الذي قال أن قيصرنا يرغب في التخلي عن السلطة التي منحها إياها ربنا وربُ روسيا والشعب الروسي، كل هذا أيها الرفاق والأخوة الأعزاء مجردُ لعبةٍ جهنميةٍ بدأها هؤلاء الذين سلّموا أرواحهم للرأسماليين الأجانب، في محاولةٍ جديدة

لإلحاق الخراب بروسيا المقدسة، ما هي أهدافهم من تأسيس الدوما[17] التي وعدوا بها؟ ما الذي يريدون تحقيقه بهذا الدستور وهذه الحرية التي يطالبون بها؟».

اقترب الجواسيس من بعضهم البعض.

واصل ياسنوجورسكي خطابه: «باسم الأب والابن وروح القدس، دعونا نضع هؤلاء الشياطين تحت ضوء الحقيقة، دعونا ننظر إليهم بعقلنا الروسي البسيط، وسنرى كيف ينتشرون مثل الغبار أمام عيوننا، يريدون حرمان القيصر من قوته الإلهية وحريته في حكم البلاد وفقًا لما تمليه عليه إرادةُ السماء، يريدون إجراء انتخاباتٍ شعبية حتى يستطيع الشعب انتخاب ممثليهم أمام القيصر الذين سيصدرون بدورهم تشريعاتٍ ستحدُّ من سلطة القيصر، يأملون لو أنهم يستطيعون شراء شعبنا الجاهل بالنبيذ والمال، يودون أن يجلبوا الخونة والليبراليين والثوَّار إلى قصر القيصر، من سينتخبُ هؤلاء لنا؟ سينتخبون اليهود والبولنديين والأرمن والألمان وغيرهم من الغرباء؛ كلهم أعداء روسيا».

لاحظ كليمكوف أن ساشا يقفُ خلف ياسنوجورسكي ويبتسمُ بسخريةٍ مثل الشيطان، أمال رأسه لكيلا يلاحظه الجاسوس المريض ساشا.

أردف ياسنوجورسكي قائلًا: «هذه الفرقة الفاسدة والضالة ستستولي على عرش قيصرنا وستغلق عينيه الحكيمة عن مصير بلدنا، سيسلّمون روسيا إلى أيدي الغرباء والأجانب، سيؤسس اليهود حكومتهم في روسيا، وكذا الأمرُ مع البولنديين والأرمن والجورجيين واللاتفيين وغيرهم من الفقراء الذين أطعمتهم روسيا من جوعٍ، سيسعون جميعهم لتأسيس حكوماتهم، وسنبقى نحن الروس وحدنا... ثم...ثم... سيعني ذلك أن...».

وقف ساشا إلى جانب ياسنوجورسكي وبدأ يهمس في أذنه، أبعده الرجل العجوز بعد أن ضايقه وقال بصوتٍ عالٍ: «ثم سيشرعُ الألمان والإنجليز في القبض علينا وسيضعوننا تحت أقدامهم الجشعة، دمار روسيا تهديدُ لنا أيها الرفاق الأعزاء فلنأخذ حذرنا!».

قال كلماته الأخيرة تلك بصوتٍ عالٍ، سكت لحوالي دقيقة، وبعد ذلك وضع يده على رأسه واستأنف حديثه قائلًا: «لكن القيصر لديه أصدقاء؛ يحرسون سُلطته ومجده مثل كلابٍ وفيِّة لا يُمكنِ لأحدٍ أن يشتريهم بالمال، شرعوا في تأسيس تنظيم لمحاربة المؤامرات الغادرة للثوار، ومحاربة الدستور وكل الأعمال البغيضة التي تُدمِّرنا نحن الشعب الروسي، قرر عددٌ من الأشراف والنبلاء والأمراء المعروفين بولائهم للقيصر الالتحاق بهذا التنظيم، خاضعين لإرادة القيصر ومؤمنين بماضينا المقدس، حتى أن أكبر....».

قاطعه ساشا مرةً أخرى، استمع إليه الرجل العجوز فاحمرَّ وجهه ولوَّح بيديه وصرخ فجأةً: «تحدَّث عن نفسك يا هذا! ماذا تعني بقولك؟ من أعطاك الحقَّ لقولِ هذا؟ لا أريد أن....».

قفز من مكانه ودفع الجواسيس بعيدًا عنه، ولى مدبرًا عنهم، حل ساشا مكانه فوقف هناك ورأسه إلى الأمام، نظر حوله بعيونه المحمرَّة، فرك يديه، ومن ثمَّ سأل بنبرةٍ حادة: «هل فهمتم ما قاله؟».

جاءت الردود من كلِّ حدبٍ وصوب: «نعم...نعم فهمنا...فهمنا».

صرخ ساشا ساخرًا: «نعم بكل تأكيد!».

شرع في إلقاء خطابه بنبرةٍ حادةٍ خبيثة، من يسمع كلماته يحسبُ أنها مطرقةٌ تتهاوى على سندان: «استمعوا إلى من يتمتعُ بالحكمة، أريد لكلماتي هذه أن تصل إلى هؤلاء الحمقى؛ كما تعلمون فقد حقق الثُوَّار والليبراليون وطبقة النبلاء النصر علينا إذ قررت الحكومة تنفيذ مطالبهم ومنحهم دستورًا، ماذا يعني الدستور لكم؟ سيعني أنكم ستتضورون جوعًا وستلقون حتفكم، ستصبحون عاطلين عن العمل غير مفيدين لأي وظيفة، هذا يعني أن معظمكم سيُدخل السجن لأنكم تستحقون ذلك؛ أمَّا القلة القليلة الباقية فسيكون مصيرها المستشفيات أو الجنون لأن أغلبكم يعاني من الأمراض النفسية، سيُدمرون قسم الشرطة ويغلقون قسم الأمن وسيرمونكم في الشوارع! هل تفهمون ما أقوله؟».

ظلّوا صامتين في مكانهم وكأن على رؤوسهم الطير.

قال يافسي لنفسه: «حينها سأتمكن من الذهاب بعيدًا عن هذا المكان».

استأنف ساشا حديثه بعد صمتٍ مطبِقٍ قائلًا: «هذا هو الأمرُ بكلِ بساطة».

أخذ يلقي نظراته على الحضور مجددًا دون أن يقول شيئًا، وفي تلك الأثناء توسَّعت الندبة الحمراء على جبينه لتغطي وجهه وتجعله قاتم اللون، تابع حديثه قائلًا: «يجب أن تدركوا أن هذا التغيير لا يصبُّ في مصلحتكم، وأنكم لا تحتاجون إليه؛ لذا يتعينُ عليكم مقاومته منذ هذه اللحظة. لمصلحة من ستحاربون حينها؟ ستحاربون من أجل أنفسكم ومن أجل مصالحكم، من أجل حقكم في حياةٍ عشتم فيها لسنوات، ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟ دعونا نفكِّر جميعًا في هذا السؤال».

ظهرت ضجةٌ شديدةٌ في الغرفة المغلقة فجأةً كما لو أنَّ أحدهم به ألمٌ في صدره وله أزيزٌ كأزيز المرجل، غادر بعضُ الجواسيس بصمتٍ منكِّسين رؤوسهم. قال أحدهم وهو يتذمرُ غاضبًا: «يقولون لنا افلعوا كذا وكذا لكنهم لا يرفعون رواتبنا! يبُثون الرعب في قلوبنا دائمًا!».

تجمَّع نحو عشرة رجال بالقرب من ساشا، فلحِق بهم يافسي وسمع صوت بيوتر الغاضب مستذكرًا لعبة الورق: «لديَّ ورقتين رقمهما أربعة وكلها من الهاس!».

قال سولوفيوف بنبرةٍ لطيفةٍ: «بالفعل، أنا لست راضيًا عمَّا يحدث، لكنك تطلبُ منّا أن نفكِّر! ماذا يعني هذا الطلب؟ كلٌّ منّا له طريقته في التفكير، عليك أن تخبرنا ما يتوجبُ فعله لا أن تطلب منَّا التفكير».

قاطعه كراسافين بنبرةٍ حادة: «أخبروكم سابقًا ما يتوجبُ عليكم فعله!».

ردَّا عليه مكلاكوف بنبرةٍ هادئة: «لا أفهم ما تقوله».

صاح ساشا: «تقولُ أنك لا تفهم حديثنا؟ يا لك من كاذب! نعلمُ أنك تفهم ما نقوله!».

ردَّ مكلاكوف: «لا أفهم ما تقصدونه».

قال ساشا: «بل تفهم! لكنك جبان، أنت رجلٌ نبيل... و... و... وأنا أعرفك حقَّ المعرفة».

أجابه مكلاكوف بنبرةٍ باردة وغليظة: «ربما، لكني اسألك أنت، هل تعرف ماذا تريد؟». ارتجف يافسي من كلامه وقال لنفسه: «هل سيضربه ساشا الآن؟».

لكن ساشا كرر السؤال وهو يصرخ: «أنا؟ هل أعرف ماذا أريد؟».

ردَّ مكلاكوف: «نعم أنت».

رفعَ ساشا صوته مهددًا: «سأخبرك بما أريد، سأموت قريبًا ولا أخشى أيَّ أحد، عِشت غريبًا في الحياة، عِشت والناسُ الطيبون من حولي يضمِرون لي الكراهية وأنت تعرف هذا الأمر حقَّ المعرفة، أعلمُ أنك تكذبُ وأنك في داخلك مجردُ عبد، مجردُ خادمٍ متزلِّف رغم أنك تنتمي إلى النبلاء، وأنا مجردُ فلاح ولكني ثاقبُ التفكير درستُ في الجامعةً ولم تُفسدني قطْ».

اخترقتْ كلماتُ ساشا قلب يافسي وزحفتْ فيه مثل عناكبٍ تحيكُ خيوطها بداخله، تربطه بها وتسحبه نحو ساشا، تخطَّى يافسي الجمع الغفير من الجواسيس ليكون في المقدمة ويرى وجه ساشا ووجه مكلاكوف معًا.

استأنف ساشا حديثه قائلًا: «أنا أعرفُ أعدائي، إنهم أنتم أيها النبلاء، تريدون أن تكونوا نبلاءً حتى وأنتم جواسيس؛ الكلُّ يبغضكم ويمقتكم أينما حللتم نساءً ورجالًا جواسيسَ وكُتَّابًا، لكنني أعرف كيفية التعامل معكم يا من تنتمون إلى الطبقةِ الراقية، أعرف طريقة ما، أعرفُ كيف أدمركم!».

قال مكلاكوف وهو يضعُ يديه في جيوبه: «هذه هي النقطة المثيرةُ للاهتمام، لا كلماتك الهستيرية».

«إذن هذا ما يثير اهتمامك، حسنًا أنا سأخبرك!».

بدا أنَّ ساشا أراد الجلوس لأنه أخذَ يترنحُ مثل البندول، نظر حوله وهو يتكلم دون توقف ويلهثُ من فرطِ سرعته في الحديث: «من ينظِّمُ شؤون حياتنا؟ إنهم أنتم أيها النبلاء، من أفسد الإنسان الجميل؟ من الذي جعله وحشًا قذرًا مريضًا؟ إنهم أنتم أيها النبلاء؛ لذا فالواجب علينا أن نقلِبَ عليكم الحياة رأسًا على عقب، سنفتحُ جروحنا وسنُغرقُكم في دمائنا، سنُغرقُكم في قيءٍ من سمّمتم حياتهم، اللعنة عليكم! حانت ساعة إعدامكم واجتثاثِ أرَواحِكم من هذه الحياَة. كلُّ من شوهتم أجسادهم سيثورون

ضدكم وسيخنقونكم ويسحقونكم سحقًا، نعم هذه هي نهايتكم. هل سمعت عمّا حدث في بعض المدن حين وضعوا رؤوس أسيادهم على أكتافهم؟». رجع ساشا إلى الوراء، اتكأ على الحائط، مدّ ذراعيه إلى الأمام، وانفجر ضاحكًا.

نظر مكلاكوف إلى الرجال من حوله وسألهم ضاحكًا: «هل فهمتم كلمةً مما قاله؟».

أجاب سولوفيوف: «هو حرٌ فيما يقول، لكن ليدع ذلك بينه وبين نفسه، ما يهمنا الآن هو معرفةُ ما إذا كان هناك تنظيمٌ سريٌ تشكّل في سان بطرسبرج وإلامَ يرمي؟».

قال كراسافين مؤكدًا هذا الأمر: «هذا ما نريد أن نعرفه! كما أننا نريد أن نعرف الأشخاص الذين اشتركوا فيه».

صرخ بيوتر بنبرةٍ حماسية: «هذه الثورة أيها الأخوة انتقلت إلى مناطق أخرى وتوسعتْ».

ردَّ سولوفيوف: «لو أنَّ لدينا أُمراءً حقيقيين في هذا المجتمع فستكتسي أعمالنا بالأهمية حينها»، تابع سولوفيوف حديثه مخاطبًا ساشا بلهجةٍ مسيئةٍ: «لديك عشرون ألفًا في البنك أيها الشيطان، وربما ثلاثون ألفًا، أعد حسابها»، وتنحى جانبا.

أخذ ساشا يسعلُ بقوةٍ، أما مكلاكوف فغَدا مكفهِرَّ الوجه، تحرّر يافسي تدريجيًا من قيود انجذابه لحديث الجاسوس المريض، انجذب لحديثه في بادئ الأمرِ لكن هذا الانجذاب ما لبث وأن تلاشى كرمادٍ اشتدت به الريحُ في يومٍ عاصف.

صاحَ ساشا في وجه مكلاكوف قائلًا: «لماذا تنظُرُ إلي؟».

أشاح مكلاكوف بصره عنه وذهب بعيدًا دون إجابة، تبعه يافسي دون أن يشعر فسأله مكلاكوف فجأةً: «هل فهمت شيئا مما قاله ساشا؟».

ـ «أنا لا أحب ساشا».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأن قلبه غارقٌ في الحقد ولدينا ما يكفينا من الحقد».

قال مكلاكوف وهو يُومئُ برأسه قائلًا: «نعم هناك ما يكفي من الأحقاد والضغائن».

تابع كليمكوف حديثه: «يستحيل فهمُ أيِّ شيءٍ منهم، كلُّ واحدٍ منهم يهيم في وادٍ ولا ندري عمَّ يتحدثون...».

انتاب يافسي خوفٌ مفاجئ فعجِز عن إكمال حديثه، نظرَ إلى مكلاكوف وهو يمسح الغبار من قبعته بمنديله غير مكترثٍ بما قيل، لوَّح يديه قائلًا: «حسنًا، إلى اللقاء». أراد يافسي مرافقته لكن الجاسوس وضع قبعته على رأسه وأخذ يحرك شاربه وخرج دون النظر إلى يافسي.

الفصلُ الخامس والعشرون

استيقظتْ المدينةُ على أمرٍ غريبٍ لم تعتد عليه منذُ سنين وكأنها غارقةٌ في حُلمٍ ما إن بدأ حتى تسارعتْ وتيرته؛ اختفى الخوفُ من وجوه الشعبِ فجأةً، فبعد أن كانت علاماتُ البساطةِ والخضوعِ مرتسمةً على وجوههم منذ فترةٍ قصيرةٍ بدت تظهر عليهم تعابير القوة والإنشغال، ترى البنَّائين يستعدون لهدم أحدِ المباني القديمة ويفكّرون في أفضل طريقة لبدء العمل.

أصبح عمّال المصنع يعقدون اجتماعاتهم يوميًا في وضح النهار برفقة ثوَّارٍ معروفين، شرعوا بحضور الشرطة ومسؤولي قسم الأمن في إلقاء بياناتهم حول النظام الجديدً، أشاروا إلى أن بيان الوزير حول مجلس الدوما هو مجردُ محاولة من الحكومة لامتصاص غضب الشعب الذين أرهقتهم مِحنُ الحياة فما كان من الحكومةِ إلا أن تخدعهم بهذا الإصلاح كما هو الحال دائمًا، حثَّ المتحدثون الشعبَ على عدم تصديق أي أحدٍ إلا ما تمليه عليهم عقولهم.

صاح أحدُ المتمردين مرةً قائلًا: «السيادةُ للشعبِ ولا أحد يستحقها غيرهم؛ الأرض مُلكهم والحريةُ طريقهم»، وما إن انتهى من كلماته حتى ردَّ عليه أحدهم مؤيدًا: «ما تقوله عينُ الصواب!».

انزعج يافسي من أصوات الصراخ فذهب إلى الوراء حيث التقى ملنيكوف الذي يقفُ في مؤخرة الحشد؛ عيناه تشتعلان غضبًا، مسوَّدُ الوجه أشعثُ المنظر، أخذ يحركُ ذراعيه كغرابٍ يرفرف بجناحيه وقال ساخرًا: «نعععم صحيييح!».

سحب يافسي رداء ملنيكوف وهمس في أذنه بصوتٍ منخفض: «ما الذي يزعجك؟ هذا المتحدثُ اشتراكي، ونحنُ نراقبه».

أغمض ملنيكوف عينيه وقال ليافسي: «هذا الرجل؟»، وقبل أن يجيب يافسي صرخ مرةً أخرى: «صحيح ما تقوله!».

ثمَّ أشاح ببصره تجاه يافسي وقال غاضبًا: «أخرج من هنا! كلُّ الكلام مثل بعضه ولا أحد يقول الحقيقة».

ابتسم يافسي ابتسامة استحياء من كلِّ تلك الكلمات، نظر حوله مكتوفَ الأيدي محاولًا البحث وسط الحشد عن شخصٍ آخر يستطيع التحدث إليه، وفجأةً لمحتْ عيناه وجه شخصٍ لطيفٍ يبعثُ على الثقة فتنهَّد وقال بداخله: «إن تحدثتُ معه فسيعرفُ أني جاسوس».

سمع يافسي عدة مرات حديث الثُوَّار عن ضرورة تأسيس حياةٍ أخرى على وجه هذه الأرض، عادت به الذاكرةُ إلى أحلام الطفولة وأحسَّ بالرضا في داخله، كان في صغره يؤمنُ بالأثر الذي تُحدِثه الكلمات التي لا تعرفَ للخوفِ طريقًا، لكن هذا الإيمان لم يجد تربةً خصبةً في روحه المهزوزة فتباطأ نموه. ضاق صدرُ يافسي بانطباعات الآخرين عنه، الخوفُ سُمٌ يسري في جسده

الذي أعيته قسوةَ الحياة، إيمانه أشبه بطفلٍ يعاني من مرضِ الكساح، تراه متقوِّس القدمين كبير العينين يسافرُ بناظريه إلى الأفقِ البعيدِ غير قادرٍ على الوصول إليه.

بات يافسي مُعجبًا بهذا التمردِ الذي انتشر في البلاد، بَيْد أنه لم يستطع الوقوع في حبه، صدَّق الكلمات التي سمعها في خطبهم لكنه لم يُصدقهم، مشى وجِلًا وسط زحامهم وكأنه يمشي بجانب شاطئٍ بمياهه المتلألئة متجنبًا الارتماء في أحضان أمواجه المنعشة؛ لكن نفسَهُ تاقت في الوقت ذاته لأن ترى أحدهم ينتصر وتعود الحياة لسكونها وهدؤها ويجد مكانًا ينعمُ فيه بالطمأنينة والسكينة.

لم يستطع يافسي في بادئ الأمرِ أن يستوعبَ السبب وراء استهجان الثُوَّار وكبار الجواسيس من أفعال الحكومة وخداعها للشعبَ، لكن حين خرج الشعبُ أنفسهم إلى الشارع وبدأوا في الكلام توقف يافسي عن التفكير في هذا السؤال.

سار الجواسيس في الطُرقات ببطءٍ وتثاقل، باتوا غريبين على بعضهم البعض والصمتُ يغشاهم، ينظرون إلى عيون رفاقهم نظراتِ شكٍ وريبةٍ كما لو أنهم يتوقعون شيئًا خطيرًا من بعضهم البعض. توقف المسؤولون عن الحديث وتواروا عن الأنظار، لم يعُد لديهم خططٌ يصدرونها ولا خطبٌ يلقونها.

ظلَّ كراسافين يطرحُ ذات السؤال كلَّ يومٍ تقريبًا: «هل سمعتم أيَّ شيءٍ عن اتحاد الأمراء في سانت بطرسبرج؟».

قال بيوتر في إحدى المرات وعلامات السعادة تعلو محياه: «اسمعوني أيها الأولاد، لقد استدعوا ساشا إلى سان بطرسبرج، وسيِّدخلُ في اللعبة معهم».

قال الجاسوس فياخريف ذو الأنف المعقوف والشعر المُحْمَرِّ بنبرةٍ متكاسلة: «لقد سمحوا لاتحاد الشعب الروسي بتنظيم عصابات لقتل الثوَّار، سأذهب إلى هناك فأنا قناصُ جيد».

قال أحدهم: «المسدس اختراعٌ رائع، ما عليك سوى إطلاق النار والهرب».

قال يافسي مناجيًا نفسه: «كيف يتحدثون بهذه البساطة عن كل شيء!»، تذكَّرَ حينها أحاديث أولجا ومكاروف التي حاول إبعادها عنه بكلِّ قوته.

عاد ساشا من سان بطرسبرج أقوى مما كان عليه، عيناه القاتمتان ترميان بشرر، كلماته باتت أبلغ، استقام جسده وبدا أقوى من ذي قبل.

سأله بيوتر: «ماذا علينا أن نفعل الآن؟».

أجاب ساشا: «سوف تكتشف ذلك قريبًا».

حل الخريف بحزنه وسكونه المعتاد، لكن الناس لم يلاحظوا قدومه، خرجوا إلى الشوارع أكثر جرأةً وثقة، ازداد إيمان يافسي بنصرهم الوشيك وبحياةٍ هادئةٍ هانئةٍ دافئة.

حطَّت الأيامُ الفظيعةُ والرائعة في الوقت ذاته رحالها حين توقف الجميع عن العمل، حين توقفت حياة القمعِ التي عاشها الناس لفترة طويلةٍ، حين توقف التيه الذي اكتنف حياتهم وهم يسيرون فيها بلا هدف، توقفتْ هذه الحياة وكأن ماردًا سحقها، نبذَ الشعبُ المدينةَ وحاكمها، تركوا الخبز والنار والماء، غرقتْ لياليهم في ظلام دامس، باتوا جياعًا عطشى، استحالت حياتهم نكدًا ومهانة، سار العمَّال في الشوارع خلال تلك ًالليالي المدلهمة وهم يُغنُّون وفي أعينهم فرحٌ يشبه فرح الأطفال، رأوا لأول مرةٍ قوتهم، اندهشوا من أثرها، أدركوا قيمتها في الحياة، وجدوا طريق المرح والسعادة. نظروا إلى المنازل المظلمة، نظروا إلى الآلات التي أصبحتْ بلا حراك، نظروا إلى الشَرطة التي أصابها الذهول مما يحدث، نظروا إلى المتاجر والمطاعم المغلقة، نظروا إلى الوجوه الوجِلة، نظروا إلى وجوه أولئك الذين لم يُتقن أحدٌ منهم عملًا قط بل كانوا لا يعرفون شيئًا غير الأكلِ والشَرب ويعدُّون أنفسهم شريان حياة المدينة، تمزّقت قوُّتهم كلَّ ممزقٍ ولم تعُد لهم سلطةٌ على الشعب لكن خبثهم ومكرهم لا زال يراوح مكانه. نظر كليمكوف إلى الرجال الذين اعتادوا تولي القيادة، أصبحوا الآن خاضعين لإرادة الجياع والفقراء ورعاع القوم، أدرك أنه من العار أن يعيش السادةُ الذين حاولوا التستر على عارهم بالتبسِّمُ للعاملين والكذبِ عليهم، كانوا خائفين على الرغم من أنهم السادة، بدا ليافسي أن الماضي لن يعود للوراء أبدًا، اعتقد أن سادةً جددًا قد انبعثوا، هؤلاء السادة تمكنوا يومًا من إيقاف الحياة في المدينة لذا سيكون بمقدورهم وضعُ نظامٍ مختلفٍ لهذه الحياة بحيث يتحرر الناس من قيود العبودية وتنعمُ حياتهم بالراحة.

ترك أصحابُ القلوبِ الخبيثة والقاسية المدينة، ذهبوا بعيدًا في الظلام الدامس، بدأت أحوال الناس تتحسن، غرقتْ المدينة في ظلامٍ دامس لكن لياليهم كانت مغمورةً بالمرح والإثارة.

بات الناس يجتمعون في كلِّ مكان، يتحدثون بحماسٍ وجرأةٍ وحريّةٍ عن دنوِ لحظةِ انتصار الحقيقة، تلك الحقيقة التي عضُّوا عليها بالنواجذ وآمنوا بها، أما من كَفَر بهذه الحقيقية فظلَّ صامتًا؛ لكنهم حين نظروا إلى الوجوه الجديدة واستمعوا لخطاباتهم بدأوا يُعجبون بهم.

لاحظ كليمكوف في كثيرٍ من الأحيان وجود الجواسيس وسط الحشود، لكنه لم يرغب في رؤيتهم فتراه يبتعدُ عنهم، قابل مَلنيكوف أكثر من الآخرين، أثار هذا الرجل اهتمامه، يرى حوله حشدًا من الناس يستمعون لصوته الغليظ يتدفق من بينهم كتيارٍ جارف.

استمع يافسي لأحدهم يقول: «كما ترون، أراد الشعبُ تحقيق هذا الأمر وناضلوا حتى حققوه، إذا أراد الشعبُ يومًا تحقيق هدفه فسيحققه لا محالة، قوّتكم لا تقهر أيها الشعب، وتذكروا... لا تفرطوا فيما حققتموه من إنجازات، حافظوا عليها، والأهمُ من ذلك كونوا درعًا لها من مكرِ أعدائكم، أبعدوهم عنها، شرِّدوا بهم في الأرض، وإذا تنازعتم معهم فاضربوهم حتى الموت».

حين انتهى يافسي من سماع هذا الكلام قال لنفسه: «دخل الناسُ السجن في ذلك الوقت بسبب مثلِ هذه الخطابات، دخلت أعدادٌ كبيرةٌ السجن بسببها! والمشهدُ يعيد نفسه مع مثل هذه الخطابات».

أخذ يافسي يتجوّل وسط الحشودِ وحيدًا من لحظةِ بزوغ شمسِ الصباح حتى يدلهِمَّ الليل، شعر في بعض الأحيان برغبةٍ ملِّحةٍ في الحديث لكن بمجردِ إحساسه بهذا الشعور يفرُّ نحو الشوارع الفارغة والزوايا المظلمة ويقول في نفسه: «إذا تحدثتُ أمامهم فسيتعرَّفون علي»، بعدها يطمئنُ نفسه قائلًا: «لا عليك، هناك متسعٌ من الوقت للحديث».

في إحدى الليالي وبينما كان يافسي يسير في الشارع رأى مكلاكوف مختبئًا خلف إحدى البوابات وهو ينظرُ إلى نافذة مضاءة على الجانب الآخر من الشارع ككلبٍ جائعٍ ينتظر طعامًا، قال في نفسه: «أظنُّ أن لديه عملًا هنا»، ذهب إليه وقال: «هل تريد مني أن أجلِس مكانك يا تيموفي فاسيليفيتش؟».

ردَّ عليه الجاسوس بصوتٍ خافت: «أنت... أنا... يافسي؟».

راود كليمكوف شعورٌ بأن هناك خطبًا ما كونها المرة الأولى التي يناديه فيها باسمه الأول ولم يكُن صوتُه طبيعيًا.

قال له الجاسوس: «لا أريد منك شيئًا، اذهب من هنا».

تعوَّد يافسي أن يرى مكلاكوف مهندمًا حسن المظهر لكنه لم يكن كذلك حين رآه هذه المرة، تعوَّد أن يرى شعره ممشطًا يتدلى وراء أذنيه وينزِلُ إلى جبينه وصدغه، أما في هذه المرة فكان على غير عادته تفوح منه رائحة النبيذ.

ردَّ عليه يافسي وهو يرفع قبعته ويمشي ببطء: «حسنًا إلى اللقاء». لم يخطُ سوى بضع خطوات حين سمع نداءه قائلًا له: «اسمعني!».

عاد يافسي صامتًا ووقف بجانب مكلاكوف.

ثمَّ قال له: «هيَّا نسير معًا».

قال يافسي لنفسه: «يبدو أنه ثملٌ للغاية».

قال مكلاكوف وهو ينظرُ إلى الوراء: «هل تعرف من يعيش في هذا المنزل؟».

ـ «لا».

ـ «إنه الكاتب ميرونوف، هل تتذكره؟».

ـ «نعم أتذكره».

ـ «توقعتُ منك معرفته لأنه خدعك ببساطة في ذلك اليوم».

ردَّ يافسي متفقًا معه: «نعم».

مشيًا بخطواتٍ متثاقلة في الشارع الذي عمَّه السكون وهجره المارةُ وغطَّاه البرد.

تابع مكلاكوف حديثه قائلًا: «دعنا نعاودُ أدراجنا إلى حيثُ كنَّا»، عدَّل قبعته على رأسه، أغلق أزرار مِعطفه وقال: «سأذهب بعيدًا يا أخي... إلى الأرجنتين، تقعُ في أمريكا».

أحسَّ كليمكوف باليأسِ في كلماته، أحسَّ أيضًا بالكآبة والحزن حين سمع نبرة صوته فقال له: «لماذا تذهب بعيدًا هكذا؟».

«يتوجبُ عليَّ ذلك!».

توقف مكلاكوف مرة أخرى قبالة النافذة المضيئة، نظر إليها بصمت، نافذةٌ كعينٍ ضخمةٍ على وجهٍ أسود تُلقي ضوءها وسط الظلام الدامس، نافذةٌ كجزيرة صغيرةٍ وسط مياه ضحلةٍ قاتمة.

قال مكلاكوف بنبرةٍ هادئة: «هذه نافذة ميرونوف، هنا يختلي بنفسه ليلًا ليكتب، تعال معي».

سمِعا صوت أناسٍ يتقدمون نحوهم وهم يغنون: «حان الوقت...حان الوقت...سنهزمهم في المعركة الأخيرة!».

قال يافسي هامسًا: «هيا لنذهب إلى الجهةِ الأخرى».

«هل أنت خائف؟»، سأله مكلاكوف على الرغم من أنه كان على وشك تغيير مكانه وتخطي الشارع المتسخ، ثمَّ قال له: «لا داعي للخوف، هؤلاء الأشخاص الذين يتَغنون بالحرب مسالمون، وليس من بينهم أولئك الوحوش الضارية، هيَّا لنبحثَ عن مكانٍ دافئٍ في إحدى المقاهي، لكن المشكلة أنَّ جميع المتاجر والمقاهي مغلقة! كلها مغلقة! يا أخي».

قال كليمكوف: «هيّا بنا إلى المنزل».

«المنزل؟ لا شكرًا لن أذهب، يمكنك الذهاب بنفسك إن كنت ترغب في ذلك».

ظلَّ يافسي قابعًا في مكانه منتظرًا أمرًا جللًا لا مفر منه. جاء صوتٌ من الجانب الآخر من الشارع؛ أشخاصٌ يتحدثون مع بعضهم البعض، قال أحدهم بنبرةِ فرح: «لماذا لا تصدُق أن الأمر سيحدث يا ميشا؟».

أجابه زميله بصوتٍ هادئ: «لم اقل أنِّي لا أصدِّق ولكني أقول أن الأمر لن يحدث قريبًا».

قال مكلاكوف ليافسي فجأةً وهو ينكُزه بكوعه: «اسمع! أيها الجاسوس الشيطان، كنتُ أراقبك منذ وقت طويل، وأراك دائمًا وكأنك على وشك التقيؤ، ماذا بك؟».

غمرتْ السعادة قلب يافسي لأنه أخيرًا سيعبِّر عمّا بداخله فقال: «سأذهبُ بعيدًا يا تيموفي فاسيليفيتش، بمجرد أن يطبِّقوا النظام الجديد سأذهب بعيدًا من هنا، سأنشغل بالتجارة وأعيش بهدوء مع نفسي...».

ـ «ماذا تقصدُ بالنظام الجديد؟»

ـ «كلُّ الأشياء التي تحدثُ الآن متعلقةٌ بهذا النظام الجديد والحياة الجديدة، حين يبدأ الشعب في هذه الحياة».

قال الجاسوس وهو يلوِّح بيده مبتسمًا: «ماذا تقول يا فتى!».

سرقتْ ابتسامته رغبة يافسي في التحدث عن نفسه أكثر، مشيًا في صمتٍ مرة أخرى والكآبة مرتسمةٌ على وجوههم.

صاح مكلاكوف بنبرةٍ خشنةٍ وحادةٍ حين اقتربا من منزل الكاتب وقال ليافسي: «سأغادر روسيا إلى الأبد، وعليَّ تسليم بعض الأوراق لهذا الكاتب... هل ترى هذا الصندوق الذي بين يدي؟».

أخذ يلوِّحُ بصندوقٍ أبيضٍ أمام عينيْ يافسي وقال على عجل: «لن أذهب إليه بنفسي، هذا هو اليوم الثاني الذي أراقبه فيه منتظرًا خروجه، لكنه مريضٌ ولن يخرج، أردتُ تسليمه هذا الصندوق في الشارع، لا يمكنني إرساله عبر البريد فرسائله تُفتح وتُسرق من مكتب البريد وتُسلّم إلى قسم الأمن، ولا يمكن لي أن أذهب إليه بنفسي!».

ضمَّ الجاسوس الصندوق على صدره وأخذ ينظرُ إلى عيونِ يافسي قائلًا له: «حياتي مرتبطة بهذه الأوراق، كتبتُ فيها عن نفسي...قصتي وما أنا عليه... أريده أن يقرأها... فهو يحب الشعب».

وضع الجاسوس يده على كتفِ يافسي وقال له: «اذهب أنت واعطهِ إياها... ضعها بين يديه وأخبره أن...»، توقَّف مكلاكوف عن الحديث واستمر قائلًا: «أخبره أن أحد عملاء قسم الأمن أرسل له هذه الأوراق، وقل له بهذه الطريقة «يتوسَّل إليك أن تقرأها»، سأنتظرك هنا في الشارع، اذهب لكن لا تخبره أنني هنا، وإذا سأل عني قل أنني هربت إلى الأرجنتين، كرر ما قلته لك».

ـ «سأقول أنك ذهبت إلى الأرجنتين».

ـ «ولا تنسى أن تقول له يتوسل إليك...».

ـ «لن أنسى ذلك».

ـ «هيَّا اذهب بسرعة!».

دفع مكلاكوف يافسي من ظهره بلطفٍ واصطحبه إلى بابِ المنزل، مشى بعيدًا وتوقَّف لمراقبته.

أحسَّ يافسي برعشةٍ تعتري جسده شيئًا فشيئًا، لم يعد مدركًا لما يفعله بعد سماعه لكلمات مكلاكوف، ضغط على الجرس وشعر برغبةٍ في دخول الباب ليختفي عن أنظار الجاسوس في أسرع وقتٍ ممكن، ضرب الباب بركبته مرةً أخرى، فتح أحدهم الباب وسأله بصوتٍ مرتفع: «ماذا تريد؟».

«أريد الكاتب السيِّد ميرونوف، طلب مني أحدهم تسليم هذه الأوراق له، بسرعة من فضلك!»، قال يافسي هذه الكلمات مقلدًا طريقة مكلاكوف في الحديث دون أن يشعر، تشوّش تفكيره ولم يدرِ بأي أرضٍ هو، لكن كلمات الجاسوس لا زالت قابعةً فيه جامدةً كعظام الموتى.

سمع يافسي صوتًا يقول له: «كيف أستطيع أن أخدمك أيها الشاب؟».

قال له بصوتٍ خافتٍ وكأنه رجلٌ آلي: «أرسلَ إليك أحدُ عملاء قسم الأمن هذه الأوراق، ويتوسَّلُ إليك أن تقرأها، فقد غادر إلى الأرجنتين». شعر يافسي بإحراجٍ من اسم الدولة الغريب هذا وأضاف بصوتٍ منخفض: «الأرجنتين في أمريكا».

«نعم أعلم لكن أين الأوراق؟»، بدا صوته لطيفًا في أذن يافسي، رفع رأسه ونظر إلى وجهه الذي يتوسَّطُه شاربه المُحْمَر، سحب الصندوق من جيبه وسلمه إياه.

استلمه وقال: «اجلس».

جلَس كليمكوف منكِّسًا رأسه، استمع إلى صوت تمزيقِ غلاف الصندوق، نظر إلى الكاتب بحذرٍ من تحت جفونه دون رفع رأسه، وقف ميرونوف أمامه وهو ينظرُ إلى الصندوق وشاربه يهتز فقالَ له: «قلت لي أنه غادر؟».

ـ «نعم».

ـ «هل أنت عميلٌ أيضًا؟».

ـ «نعم».

بعد قوله «نعم»، قال في نفسه: «سيزجرني الآن لكوني أحد العملاء».

ثُم قال له: «يبدو وجهك مألوفًا بالنسبة لي».

حاول يافسي ألا ينظر إليه، لكنه شعر أن الكاتب يبتسم في وجهه فقال له وهو يتنهد: «نعم أعتقد أن وجهي ليس بغريبٍ عليك».

ـ «هل كنت تلاحقني أيضًا؟».

ـ «نعم كان ذلك في إحدى المرات حين رأيتني من نافذتك وخرجت إلي لتسلمني رسالة».

ـ «نعم...نعم، أتذكرك أيها الشيطان! إذن كان هذا أنت؟ حسنًا أعذرني يا عزيزي إذا كنتُ قد أسأت إليك».

نهض يافسي من الكرسي ونظر إلى وجهه الذي ترتسمُ عليه علامات الضحك وقال له: «لا عليك».

أحسَّ بشعورٍ مربكٍ لا يطاق وهو يستمع إلى صوته الفظِّ واللطيف في الوقتِ ذاته، كان خائفًا من أن يسيء الكاتبُ إليه ويطرده من المنزل.

ـ «كم هو غريبٍ أن نلتقي في هذا الوقتِ بالذات!».

سأله يافسي مرتبكًا: «هل تودُّ قول شيءٍ آخر لي؟».

ـ «ليس لدي شيء آخر، لكنني أراك متعبًا، اجلس هنا وخذ قسطًا من الراحة».

ـ «يجب أن أذهب الآن».

ـ «حسنًا كما يحلو لك، إلى اللقاء، شكرًا لك».

مدّ يده الكبيرة بأصابعه المُحْمرَّة ليصافحه.

فجأةً قال يافسي له: «اسمح لي أن أُخبرك عن حياتي»، بعد قوله هذه الكلمات قال في نفسه: «هذا هو الرجل الذي يجب أن أتحدث إليه، إذا كان الرجل الحكيم مكلاكوف تيموفي فاسيليفيتش نفسه يحترمه فمؤكدٌ أنه الشخص المناسب».

حين تذكر اسم مكلاكوف فتح ستارة النافذة وأخذ ينظر إليه قلقًا ثم قال لنفسه: «لا يهم، ليست هذه هي المرة الأولى التي يقفُ فيها منتظرًا».

قال له الكاتب: «حسنًا أخبرني عن حياتك إن كنت ترغبُ في ذلك، بالمناسبة اخلع معطفك ولنشرب كوبًا من الشاي فالطقس باردٌ هنا».

أراد يافسي أن يبتسم في وجه الكاتب لكنه ضبط نفسه، وبعد بضع دقائق أخبر الكاتب بعينين شبه مغمضتين عن القرية وعن ياكوف وعن الحداد بالتفصيل الممل، وتحدَّث بذات النبرة عن عمله في قسم الأمن.

يتحدثُ يافسي وهو ينظر إلى الكاتب من طرف عينيه، استمع إليه الكاتب وهو يجلس على كرسي عريضٍ ويضع مرفقيه على الطاولة محركًا شاربه بأصابعه محدقًا في السقف فوق رأس كليمكوفَ.

قال في نفسه: «اعتقد أنه لا يسمعني»، فبدأ برفع صوته قليلًا وهو يُلقي بنظراتِه في أنحاء الغرفة دون أن يلاحظه الكاتب.

غرفةَ غارقةَ في الظلام والكآبة، رفوفٌ مزدحمةَ بالكتب عززتْ سماكة الجدران وحجبتْ أصوات الشارع، زجاجُ النوافذ يَتلألأ بين الرفوف في تلك الليلةِ الباردة، بابُ الغرفةِ الأبيض يأْسر الناظر إليه، طاولةٌ عليها غطاءٌ رمادي تقبعُ في منتصف الغرفة، لون الغطاء الرمادي ينشر الكآبة في كلِّ شيءٍ حوله.

جلس يافسي في زاويةٍ على كرسي مغطى بجلدٍ ناعم، انزعج من رؤية الشموع وألسنتها الصفراء تميل ببطء نحو بعضها البعض وكأنها تتبادل أطراف الحديث، ترتجفُ يمنةً ويسرة، صورةٌ كبيرةٌ معلقةٌ على الجدار خلف الكاتب لرجلٍ عليه لحيةٌ صغيرة ينظرُ إلى الواقفِ أمام الصورة.

استمر الكاتبُ في تحريك شاربه، سافر بنظرته إلى خارج حدود الغرفة مما أثار انزعاج يافسي وقطع حبل ذكرياته. فكّر يافسي في إغلاق عينيه وحين فعل ذلك غرق في ظلامٍ دامسٍ، تنهَّد وانتابه شعورٌ مفاجئ بأن هناك شخصين بداخله، شخصٌ عاش تلك الحياة وآخرٌ يروي أحداثها وكأنه شخصٌ غريبٌ عنها. بات قادرًا على الحديث عن حياته بنبرةٍ أقوى وربط أحداثها بقوةٍ متنقلًا من حدثٍ لآخر مثل كرةٍ متدحرجةٍ من الخيوط، سرده لتلك الأحداث حرّر روحه الضعيفة من تجاربه، انتابه شعورٌ بالراحة وهو يسردُ قصة حياته على الكاتب، استمع إلى صوته مندهشًا، تحدَّث بصدقٍ عن حياته وشعر أنه لم يكن مذنبًا إطلاقًا لأنه لم يعش حياته كما أراد وإنما مجبرًا على كلِّ ذلك؛ اضطُر إلى تنفيذِ أوامرٍ لا تعجبه ولا تهمه، اعتراه شعورٌ بالشفقة على نفسه وكان قاب قوسين أو أدنى من البكاء، أحسَّ أنه معجبٌ بنفسه وبما فعله.

حين يسأله الكاتبُ عن نقطةٍ لم يفهمها يقول له بنبرةٍ هادئة دون أن يفتح عينيه: «انتظر سنتحدث عن هذه النقطة في حينها».

تحدّث يافسي عن حياته دون كللٍ أو ملل؛ لكنه حين وصل للحديث عن لقائه بمكلاكوف توقف فجأةً كما لو أنه يقفُ على شفا حفرة، فتح عينيه ورأى عبر النافذة بدايات الخريف مقبلةً مع الصباح وكأن السماء قد ارتدت معطفًا رمادي اللون، تنفَّس الصعداء، انتصب قائمًا، أحسَّ كما لو أن أحدهم غسل قلبه وأصبح خفيفًا على غير عادته خاويًا من الداخل؛ بات قلبه مستعدًا لتلقي أيةِ أوامرَ جديدة.

قام الكاتبُ من كرسيّه بقامته الطويلة، ضمّ يديه وفرقع أصابعه ثم قال وهو يلتفتُ إلى النافذة دون أن ينظر إلى يافسي: «ماذا ستفعلُ الآن؟».

قام كليمكوف من مكانه وكرّر ما قاله لمكلاكوف سابقًا: «بمجرد تطبيق النظام الجديد سأذهب بعيدًا من هنا، سأنشغل بالتجارة... وأنتقل إلى مدينةٍ أخرى... جمعتُ حوالي مئة وخمسين روبل».

التفتَ الكاتبُ نحوه ببطءٍ وقال له: «وماذا ستفعل بعدها؟ أليس لديك احلامٌ أخرى؟».

فكّر كليمكوف هنيهةً وقال: «ليس لدي».

ـ «هل تؤمن بنجاح هذه الحياة الجديدة؟ هل تعتقد أنهم سينجحون في تحقيقها؟».

ـ «بالطبع سينجحون، إذا أراد الشعبُ تحقيق ذلك فماذا سيحول بينهم وبين ما يريدون؟».

ـ «ليس لديَّ شيءٌ أقوله».

التزم ميرونوف الصمت، ذهب إلى النافذة مرةً أخرى وأخذ يمسح شاربه بكلتا يديه، وقف يافسي بلا حراك منتظرًا حديث الكاتب وهو يستمع إلى الفراغ الذي سكن قلبه.

قال الكاتب بنبرةٍ هادئة: «أخبرني، ألستَ نادمًا على ما فعلته بهؤلاء الناس؟ تلك الفتاة وابن عمك ورفيقه؟».

نكَّس كليمكوف رأسه وضم طرفي معطفه دون أن يجيبه.

سأله الكاتب مرةً أخرى: «اكتشفتَ أنهم كانوا على حق، أليس كذلك؟».

ـ «شعرتُ بالأسف لحالهم في بادئ الأمر وخجلتُ من فعلتي، لكني لا اشعر بالأسف الآن».

ـ «لم لا؟».

لم يرد كليمكوف مباشرةً على سؤاله، سكت لبضعةِ ثوانٍ ثم قال: «حسنًا، إنهم أشخاص طيبون وقد حققوا ما يريدون».

ردَّ عليه الكاتب قائلًا: «ألم تفكِّر يومًا أنَّ ما فعلته كان أمرًا سيئًا؟».

تنهَّد يافسي وقال: «صحيحٌ أني لم أكن أحبُّ ما أقوم به، لكني نفذتُ الأوامر التي تُملى عليَّ».

توجَّه الكاتب نحو يافسي ثم التفتَ جانبًا، أخذ يافسي ينظرُ إلى الباب الذي دخل الكاتب من خلاله.

قال يافسي: «يجب أن أذهب».

سأله الكاتب: «هل تريد أن تسألني أي شيء آخر؟».

ـ «ليس لديَّ أمرٌ آخر سأذهب».

ـ «حسنًا إلى اللقاء».

تحرَّك الكاتب من مكانه للسماح له بالمرور والخروج، مشى يافسي على أطراف أصابعه إلى غرفة الإنتظار وشرع في ارتداء معطفه فإذا بالكاتب يسأله: «لماذا أخبرتني قصة حياتك؟».

وضع يده على قبعته وأجاب: «لأن الشخص الذي أرسلني تيموفي فاسيليفيتش يُكِّنُّ لك الاحترام».

ابتسم الكاتب وقال: «آها! هل هذا كل شيء؟».

قال يافسي لنفسه وهو يرمشُ بعينيه وينظر إلى الكاتب: «لماذا أخبرته بهذا الأمر!».

قال الكاتب وهو يفركُ يديه ويهمُّ بالمغادرة: «حسنًا مع السلامة».

أومأ يافسي قائلًا: «إلى اللقاء».

حين خرج من المنزل نظر حوله فإذا به يرى رجلًا في نهاية الشارع يرافق دُلُوكَ الشَّمْسِ، يسيرُ الرجل بهدوءٍ بمحاذاة الرصيف ممسكًا برأسه.

قال كليميكوف لنفسه: «إنه ينتظرني وسيوبخني لأني تأخرتُ في الخروج».

سمع الجاسوس خطوات يافسي وهو يسير على الرصيف المتجمد في سكون الصباح، فرفع رأسه وركض نحوه قائلًا له: «هل أعطيته؟».

ـ «نعم فعلت ذلك».

ـ «لماذا أخذت كلَّ هذا الوقت؟ هل تحدث معك؟ ماذا سألك؟».

يرتعدُ مكلاكوف من البرد مُزرَّق الخدِ أحمر الأنف، أمسك يافسي من معطفه ومن ثمَّ تركه، أخذ ينفخُ أصابعه كما لو أنَّ حرقًا أصابها ويدوس بقدميه الأرض، كان في حالةٍ يُرثى لها من شدةِ البرد ولم يكن كعادته.

قال يافسي بصوت عالٍ: «أنا أيضًا أخبرته عن حياتي»، شعر يافسي بالسعادةِ وهو يخبر مكلاكوف عن هذا الأمر.

ـ «حسنًا، ألم يسأل عني؟».

ـ «سأل عمَّا إذا كنت قد رحلتَ أم لا».

ـ «ماذا قلت له؟».

ـ «قلتُ إنك قد رحلتْ».

ـ «ألم تقل شيئًا آخر؟».

ـ «لم أقل أي شيء».

ـ «حسنا دعنا نذهب، تجمدتْ عظامي من شدةِ البرد يا أخي».

تحرَّك مكلاكوف، وضع يديه في جيوب معطفه، ضرب يافسي على ظهره وقال له: «أخبرته قصة حياتك؟».

ـ «نعم أخبرته بكلِّ شيءٍ حتى اللحظة التي التقيتُ فيها بكم». انتاب يافسي شعورٌ بالسعادة مجددًا لأنه أحسَّ نفسه في منزلةٍ تساوي منزلة الجاسوس الذي يحترمه.

ـ «ماذا قال لك غير ذلك؟».

أحسَّ كليمكوف بالارتباك ولم يردَّ بسرعة فتوقف قليلًا وقال: «لم يقل شيئًا آخر».

توقف مكلاكوف، أمسكه من أكمام معطفه وسأله بنبرةٍ عالية: «هل أعطيته أوراقي؟».

ـ «هاك انظر إنها ليست لدي يا تيموفي فاسيليفيتش».

ـ «حسنًا لا داعي لذلك، حان اليوم الذي أختفي فيه، خذ بنصيحتي فأنا أشفق عليك، اترك هذه الوظيفة وأسرع في ذلك، فهي لا تناسبك، هذا هو الوقتُ المناسب لتغادر هذه الوظيفة، فأنت ترى حال هذه الأيام، لدرجةِ أنك ترى الموتى يعودون إلى الحياة مجددًا، الناس في هذه الأيام يثقون في بعضهم البعض ويمكنهم مسامحة أيَّ أحد، يمكنهم مسامحتهم على كل شيء. كما أنصحك بتجنُّبِ ساشا فهو مريضٌ ومجنون، جعلك تُبلِّغُ عن ابن عمك، يجب أن يُقتل ككلبٍ مصابٍ بالجرب، إلى اللقاء يا أخي».

أمسك بيدِ يافسي بأصابعه الباردة، ضغط عليها بقوة وسأله مرةً أخرى: «متأكدٌ أنك أعطيته أوراقي؟».

ـ «أُقسم لك أني فعلتُ ذلك! أعطيته بمجردِ أن رأيته أمام عيني».

ـ «حسنًا، أصدِّقُ كلامك، لكن لا تتحدث عني هناك لبضعة أيام رجاءً».

ـ «لن أذهب إلى هناك مجددًا، سأتصل بهم في العشرين من هذا الشهر من أجل راتبي».

ـ «يُمكنك حينها أن تخبرهم، سأكون بعيدًا، إلى اللقاء».

تحرَّك بسرعةٍ فنظر إليه يافسي نظرات ريبةٍ وقال في نفسه: «ربما قرر الذهاب بعيدًا لأنه خالف السلطات وخاف منهم فهرب، مظهره يوحي بأنه تعرض للضرب».

شعر بالأسف لأنه لن يرى مكلاكوف مرةً أخرى، ومع ذلك أحسَّ بالرضا حين تذكر حال الجاسوس الضعيف والمضطرب بعد أن كان حازمًا وقويًا. قال في نفسه: «كان يتحدث بجرأةٍ حتى مع ضباط

قسم الأمن وكأنه في منزلةٍ تساويهم، ولكن يبدو أنه كان طوال الوقت خائفًا من الكاتب الذي ظل تحت المراقبة، أما أنا فمجردُ رجلٍ صغير...رجلٍ خائفٍ من الجميع لكني لم أخشَ الكاتب، شربتُ الشاي في منزله، بينما كان مكلاكوف يرتجفُ من البردِ في الشارع»، ابتسم يافسي راضيًا عن نفسه وقال: «لم يستطع الكاتبُ قول أي شيء».

وفجأةً أحس بشعورٍ ممزوجٍ بالحزن والإهانة، أخذ يمشي مشيًا بطيئًا، غرق في تفكيره حول كلِّ ما حدث معه بحثًا عن سبب الحزن المفاجئ الذي اعترى قلبه.

قال لنفسه: «لماذا تحدثتُ إليه عن كلِّ هذا، كان يُستحسن بي أن أقول هذا الكلام لأولجا في ذلك الوقت».

استيقظت المدينة مع بزوغ شمسِ الصباح، أراد يافسي حينها أن يخلُد للنوم، بدا صدرهُ ضيِّقًا حرجًا كأنَّما يصَّعَّدُ في السماء، قلبه أشبه بغرفةٍ صغيرةٍ خَلتْ من الأثاث فأصبحت فارغةً لم يبقَ منها إلا بقعٌ خضراءٌ من أثرِ ورق الحائط الممزّق وتشققاتٌ في جدرانها.

أراد أن ينام لكنه أحسَّ في الوقتِ نفسه برغبةٍ في التسكَّع في شوارع المدينة؛ فمشى نحو المنزل بخطوات متثاقلة.

الفصلُ السادس والعشرون

استيقظ يافسي عند منتصف النهار على صوتِ فيكوف وهو يرتدي معطفًا وقبعة، أمسك بطرفِ السرير وأخذ يسحبه قائلًا برتابة: «هيَّا استيقظ يا كليمكوف، استدعوا الجميع للحضور إلى المكتب... فقد أعلنوا الدستور واستدعوا جميع العملاء من مساكنهم، أصدر فيليب فيليبوفيتش هذا الأمر، هل تسمعني يا كليمكوف؟».

كانت كلماته أشبه بقطراتٍ كبيرةٍ من المطر مليئةٍ بالحزن، بات وجهه كما لو أنه مصابٌ بوجع الأسنان، أخذ يرفرفِ بعينيه وكأنه على وشك البكاء.

قفز يافسي من السرير قائلًا: «ما الأمر؟».

استمر فيكوف في تحريك شفتيه على نحوٍ يبعث على الخوف ثمَّ قال: «من الصعوبة أن نفهم ما حدث؛ فقد سمعنا أن القيصر سيمنح المواطنين دستورًا كاملًا، واليوم سيتلو البيان حول هذه الخطوة، أصبح قِسمُنا أشبه بمستشفى مجانين... أما ساشا فأصبح فظًا يصرخُ ويكرر «أضربوهم...اجلدوهم» وما إلى ذلك من الكلمات، لن استوعب فكرة قتل رجل حتى مقابل خمسمئة روبل فكيف استوعب فكرته التي ينادي بها أن نقتلهم مقابل أربعين روبل في الشهر، يا له من متوحش! لا يمكنُ لعقلونا أن تستوعب الحديثَ عن هذه الفكرة المتوحشة!». انتفخت خدود فيكوف وتنهد بعمقٍ كما لو أنه يسير صعودًا وهبوطًا في الغرفة، ثم قال: «إنه لأمر فظيع! هيَّا أسرع في ارتداء ملابسك، يجب أن نذهب».

قال كليمكوف وهو يسحب بنطاله إلى الأعلى: «من يريدوننا أن نقتل؟».

«يريدوننا أن نقتل الثُوَّار، لكن من هم الثُوَّار الآن؟ وفقًا للمرسوم الإمبراطوري الذي أصدره القيصر يمكننا القول أن الثورة قد وصلت إلى نهايتها، طلبوا منّا أن نجمع الناس في الشوارع ونسير رافعين للأعلام ونحن نغني «فليحفظ الإلهُ القيصر»، سيغنون بالطبع طالما حصلوا على الحرية التي سعوا خلفها، لكنهم طلبوا منا بعد ذلك أن نصرخ قائلين «يسقط الدستور» وما إلى ذلك، لا أستطيع فهم ما يحدث، فهذه الشعارات تعارض بيان القيصر الإمبراطور وإرادته، وهناك الكثير من زملائي الذين لا يفهمون ما يحدث، لست الوحيد في هذا الضياع».

بدتْ الشكوى على صوته، أحسَّ بالإهانة، ضمَّ ساقيه معًا، شعر بخفةٍ في جسده كما لو أن عظامه قد أزيلتْ من جسده.

قال كليمكوف: «لن أذهب إلى هناك».

ـ «ماذا تعني بذلك؟».

ـ «سأسير أولًا في الشوارع وأرى ماذا سيفعلون».

تنهَّد فيكوف مرةً أخرى وصفَر، ثم قال: «بالطبع ستقول هذا الكلام لأنك أعزب، لكن عندما تكون لديك عائلةٌ وزوجةٌ كثيرةُ الطلبات تطلبُ هذا وذاك فعندها ستذهب إلى حيث لا تريد، نعم ستفعل ذلك؛ فالحاجة لتوفير لقمةِ العيش تجبر رجلًا على الرقص على حبل مشدود، حين أرى رجلًا على حبل مشدود أشعر بالدوران في رأسي وبألم في صدري، لكني أقول لنفسي «لو دعتك الحاجةُ يا إيفان بتروفيتش فيكوف فسترقص على حبلٍ مشدودٍ لكسب لقمة العيش». هذا هو واقعنا نحن المساكين، لنعيش يتوجبُ علينا القيام بأشياءَ تُفطرُ قلوبنا سواءً أردناها أم لم نردها، هذا هو قانون الطبيعة كما يقول جروخوتوف».

ارتمى فيكوف في الغرفة وأخذ يصطدمُ بالطاولة والكراسي وهو يتمتمُ وينفخ خدوده الوردية، انتفخ وجهه الصغير مثل كيسٍ مملوءٍ بالهواء، اختفت عيناه الصغيرتان، اختبأ أنفه الأحمر الصغير بين خديه، انزعج يافسي من صوته الحزين وشخصيته المهزوزة وكلماته اليائسة فقال له بنبرةٍ خشنة: «النظام الجديد سيُغيِّر كلَّ شيءٍ ولا فائدة من الشكوى الآن».

«لكن قسمنا لا يريدون هذا النظام المختلف».

وقف فيكوف أمام يافسي وتابع قائلًا: «أَتَفْهمُ ما أقول؟».

انزعج يافسي من فيكوف فجلس على الكرسي وفي صدره رغبةٌ للتعبير عمَّا يجول في خاطره لكنه لم يعثر على الكلمات المناسبة فأخذ يربطُ حذاءه وأنفاسه تتسارع.

استأنف فيكوف حديثه قائلًا: «ساشا من ناحيةٍ يصرخُ قائلًا «أضربوهم ودعوهم يرون معنى الحرية حتى يخافوا»، أما فيخايرف فيرفع المسدس ويقول «سأطلق النار في عيونهم مباشرة»، وهناك أيضًا كراسافين الذي يجمعُ الحشود حوله ويحدثهم عن السكاكين وتقطيع الناس إربًا إربًا وما إلى ذلك، أما تشاسين فيستعدُ لقتل أحدِ الطلبة لأنه أخذ عشيقته منه، وقد انضم إلينا زميل جديد أعور العينين يبتسمُ للجميع بأسنانه الكبيرة التي تخرج من فمه، يا لفظاعة وجهه الذي يشبه الوحوش الضارية».

خفض فيكوف صوته وبدأ يهمس قائلًا: «نعي ضرورة أن يحمي كلُّ واحدٍ منَّا مصدر رزقه... لكن لا نريد إراقة الدماء، فبمجردِ أن تبدأ دوامة القتل فلن يُستثنى أحدٌ منها حتى أنت يا كليمكوف».

ارتجف فيكوف، نظر نحو النافذة وبدأ يستمع إلى صوتٍ ما، ثم رفع يده وأصبح وجهه شاحبًا.

سأله يافسي: «ماذا حدث؟».

ضجةٌ شديدةٌ تصطدم بزجاج النوافذ كما لو كانت تحاول فتحها ودخول الغرفة، قام يافسي من مكانه وهو ينظر إلى فيكوف نظرة استغرابٍ وحذر، يقف فيكوف على مسافة قريبةٍ من النافذة، مدَّ يده للخارج من أجل فتحها دون أن يراه أحدٌ من الشارع، حينها انفجرت أصواتٌ صاخبةٌ في الشارع وحاصرتْ الجواسيس مندفعةً نحو الباب لفتحه، كانت أصواتًا سعيدةً مبتهجة.

قال فيكوف بنبرةٍ هادئة: «كأني أراهم يحتفلون».

ردَّ عليه يافسي وهو يلقي المعطف على عجل: «انظر من النافذة وشاهد ما يحدث».

شرع فيكوف في مراقبة الوضع وإخبار يافسي عمَّا يراه، ينظرُ عبر النافذة ومن ثم ينظر إلى يافسي ويخبره بما يحدث بسرعةٍ متقطعًا في حديثه.

«أرى أناسًا يسيرون... أرى أعلامًا حمراء... أرى عددًا كبيرًا من الناس... لا يُعدُّ ولا يُحصى... يأتون من كلِّ الجهات... مجتمعون في حشدٍ واحد... حتى أن معهم أحد الضباط... كذلك الأب يوسبنسكي معهم... أراهم بدون قبعات... انظر إنه زميلنا ملنيكوف معهم يرفع رايةً!».

هرع يافسي نحو النافذة ونظر إلى الأسفل فإذا به يرى جمعًا غفيرًا من الناس يملئون الشارع بأكمله، بدت وجوه الناس في عينيه مثل نجوم تسبحُ في وجه السماء، رأى على رأس الحشود راياتٍ تلوح مثل الطيور الحمراء، صُمَّت آذانُ كليَمكوف بسبب الضجيج الشديد، رأى في الصف الأول ملنيكوف بقامته الطويلة يحملُ رايةً بكلتا يديه ويلوِّح بها، كانت الراية في بعض الأحيان تغطي رأسه فتبدو مثل عمامة حمراء، تنحدر من تحت قبعته خصلات شعره الداكنة فتسقطُ على جبهته وخديه وتختلطُ مع لحيته، بدا مظهره أشعثًا كالوحوش، بدا ليافسي أنه يصرخ لأن فمه مفتوحٌ على مصراعيه.

تمتم كليمكوف قائلًا: «إلى أين هم ذاهبون؟».

كرّر فيكوف قوله: «إنهم يحتفلون»، نظر إلى الشارع وهو يضع جبهته على زجاج النافذة.

ظلَّ يافسي وفيكوف صامتين يراقبان باهتمام مسير الناس، تعالتْ الأصوات في الشارع والتقط سمعهما بعض الهتافات التي تخرج من وسط تلك الحشود.

هز فيكوف رأسه وقال: «يا لقوة هؤلاء الناس! عاش كلٌ منهم بمفرده فيما مضى والآن توحَّدوا فجأةً وباتوا يسيرون معًا، يا للعجب!».

قال يافسي مبتسمًا مؤمنًا بما يقوله: «إنها الحكمةُ التي جعلتهم أسياد الحياة!».

قال فيكوف: «هل رأيت زميلنا ملنيكوف معهم؟».

ردَّ عليه يافسي وهو يبتعدُ عن النافذة ويشعر بدنوه من هدفه: «كان ملنيكوف يقف دائما مع الشعب».

تابع حديثه وهو ينظرُ إلى وجهه في المرآة: «ستسير الأمورُ على ما يرام من هذه اللحظة، من منّا يحبُ تلقي الأوامر من غيره؟ الجميع يريد أن يعيش وفقًا لما يريد بهدوء وسلام بوجود نظامٍ جيدٍ تسير الحياة وفقه».

بات يافسي يحب وجهه يومًا بعد يوم، أصبح هادئًا مبتهجًا، أحس برغبةٍ في تعزيز هذا الشعور بالرضا من خلال تحسين صورته لدى زميله فقال له: «هل علمت أن مكلاكوف هرب إلى أمريكا؟».

ردَّ الجاسوس غير مبالٍ بالخبر: «وماذا في ذلك؟ يمكنه فعل ما يشاء فهو رجلٌ أعزب».

وبَّخ يافسي نفسه قائلًا: «لماذا أخبرته عن ذلك؟»، أحس يافسي بخطرٍ يُحدق به.

بعدها قال له فيكوف: «لا تُخبر أيَّ أحدٍ بهذا الأمر من فضلك، أقصد ما حدث مع مكلاكوف... حسنًا عليَّ الذهاب إلى المكتب الآن، ألن تذهب برفقتي؟».

«لن أذهب إلى المكتب لكن يمكننا الخروج معًا».

حين أخذا يسيران في الشارع قال فيكوف بنبرةٍ ساخطة: «يا لغباء هؤلاء الناس! لماذا يغنُّون ويرفعون الرايات في الشوارع، السلطةُ بأيديهم الآن لذا من الأفضل أن يطالبوا السلطات على الفور بإلغاء كافة أنواع الممارسات السياسية، وتحويلها لتكون في أيدي الشعب، تُوزع بيننا بالتساوي مع الثُوَّار، وتُمنح الجوائز لمن يستحقها من جانبنا ومن جانبهم، وإصدار إعلان صارم بحظر جميع أنواع الممارسات السياسية، هرِمنا من لعبة التخفي هذه!».

اختفى فيكوف فجأة دون أن يودِّع يافسي، تابع يافسي مسيره دون عجل.

قال في نفسه: «لديّ مئة وخمسون روبل، وعندي ميول للتجارة فضلًا عن خبرتي القليلة فيها، العملُ الحرُ يفتح باب الحرية لصاحبه، كما أنني سأحصل على خمسة وعشرين روبل أخرى».

تحرك الناس في الشارع بحماسٍ وأصواتهم تتعالى فرحين ومبتسمين كأنهم يحتفلون في ليلة خريف قاتمة بعيد الفصح، تعالتْ أصوات الأغاني من كلِّ حدبٍ وصوب، صرخات صاخبة ترافق الأغنيات «عاشت الحرية!».

الأصوات السعيدة وضحكات الناس تأتي من كلِّ جانب مما جعل يافسي يشعر بالسعادةٍ في قلبه، أفسح الطريق للمارين وفي طريقه ينظر إليهم وعليه ابتسامةُ رضا، وبينما هو يمشي أخذ يرسمُ طريق مستقبله القادم بألوان جميلة.

أقبل شخصان من زاوية الشارع وهما يضحكان بهدوء، اصطدمَ أحدهما بيافسي وسرعان ما خلع قبعته وقال: «استميحك عذرا».

أجاب كليمكوف: «لا داعي للاعتذار».

وقف جروخوتوف أمام يافسي حليق الوجه نظيف الهيئة كما لو أنه دهن نفسه بمرطب، ارتسمت على محياه علامات الابتسام، عيناه الناعمتان الصغيرتان تتحركان من جانب إلى آخر كما لو أنهما

في سباق.

حدَّث يافسي قائلًا: «حسنًا يا يافسي، كدتُ أقع في ورطة لولا ذكائي الحاد...هل تعلم ما حصل؟ أُعرفك على بانتيليف، إنه أحد رجالنا». ضاقت أنفاس جروخوتوف وأخذ يتحدث هامسًا وهو يمسح العرق من على وجهه قائلًا: «كنت أسير بمحاذاة شارع البوليفارد حين رأيت حشدًا من الناس يتوسطهم أحدُ الخطباء، ذهبتُ نحوهم وأخذتُ أنصتُ إليه، يتحدثُ عن...تعرف أحاديثهم... يتكلمُ دون قيود، حدثتني نفسي لمعرفة هذا الشخص، سألتُ الرجل الذي بجانبي «وجهه مألوف بالنِّسبة لي، هل تعرف اسمه؟» فقال لي أن اسمه زمين، وما أن انتهى من نطقِ الاسم حتى باغتني رجلان وأمسكا بي من ذراعي وقالا «أيها الناس! إنه جاسوس! وقبل أن أقول كلمةً واحدة وجدتُ نفسي في وسط الحشد ينظرون إليَّ بتلك النظرات الحادة بأعينهم فقلت لنفسي «إنها النهاية»».

قاطعه يافسي منزعجًا وهو ينظرُ إليه ويسرع في مشيته: «أكان اسمه زمين؟».

رفع جروخوتوف رأسه إلى السماء، أشار بعلامة الصليب على صدره، تابع حديثه على عجل: «حينها جاءني إلهامٌ من السماء وصرختُ قائلًا: «أيها الناس أنتم مخطئون فلست جاسوسًا، لكنني معروفٌ بموهبتي في تقليد المشهورين وأصوات الحيوانات، أعطوني فرصةً لإثبات ذلك»، لكنّ الرجلان اللذان قبضا علي صاحا قائلين: «إنه يكذب؛ نحن نعرفه» وما إن انتهيا من حديثهما حتى بدأتُ بتقليدِ قائد الشرطة وناديتُ بصوتٍ عالٍ «من سمممح لكم بعقد هذا الإجتماع؟» فإذا بهم يضحكون على ما فعلته، بدأتُ بعدها بتقليد كلِّ شخصٍ أعرفه... الحاكم ورئيس الأساقفة إيزفيرزنسكي، وقلدتُ كذلك صوت المنشار والخنزير والذبابة؛ فانفجروا ضحكًا، ومن شدةِ ضحكهم شعرتُ أن الأرض تهتزُّ تحت قدمي، حتى الرجلان اللذان قبضا علي اضطرا إلى الضحك... اللعنة عليهما! بعدها أخلوا سبيلي وأخذوا يصفّقون، ها هو بانتيليف يشهدُ على كلامي فقد رأى كل شيء بأمِّ عينيه».

بانتيليف رجلٌ بدينُ الجسمِ قصيرُ القامة يرتدي نظارةً ومعطفًا بلا أكمام، قال بصوت غليظ: «صحيحٌ ما قاله».

ردَّ جروخوتوف: «نعم يا أخي، كانوا يصفقون لي، الآن عرفتُ موهبتي وأني فنانٌ بالفطرة ولا شك في ذلك، يمكنني القول إنني مدينٌ لموهبتي، إنه أمر بسيطٌ للغاية، لكن لا يمكنك أن تُضحِك حشدًا من الناس بمجرد نكتة».

علَّق بانتيليف قائلًا: «بدأ الناس يثِقون في بعضهم البعض، خفَّت الشحناء من قلوبهم كثيرًا».

قال جروخوتوف بنبرةٍ هادئة: «هذا صحيح، انظروا إلى أفعالهم في هذه الأيام»، ثم أضاف هامسًا: «يقومون بما يريدون في وضح النهار، أتتذكرون الأشخاص الذين كنَّا نراقبهم؟ همُ الآن في مقدمة الصف، ماذا يعني ذلك بالنسبة لكم؟».

سأل يافسي مرة أخرى: «هل النّجار اسمه زمين؟».

أجابه بانتيليف: «نعم اسمه ماتفي زمين وهو مجردُ ناشرٍ للإشاعات يعمل في مصنع نوب للأثاث».

ردَّ يافسي بنبرةٍ تشي بعدمِ رضاه: «يجب أن يكون في السجن في هذا الوقت».

صرخ جروخوتوف ضاحكًا: «في السجن؟ ألا تعلم أنهم أطلقوا سراح جميع المساجين؟».

ـ «من الذي أطلق سراحهم؟».

ـ «الشعب».

مشى يافسي بضع خطوات صامتًا ثم قال: «هل سمحوا لهم بذلك؟».

ـ «نعم، لماذا تسأل؟».

ـ «لماذا فعلوا ذلك؟».

قاطعهما بانتيليف قائلًا: «هذا هو رأيي أيضًا، يجب ألا يسمحوا لهم بذلك». تحركتْ نظارته على أنفه العريض، تابع حديثه قائلًا: «يا له من موقفٍ مخزي! السلطات لا تفكر في الشعبِ على الإطلاق».

سأل كليمكوف: «هل أطلقوا سراح الجميع؟».

أجاب بانتيليف بصوته الغليظ وأنفه المتوسِّع: «نعم جميعهم، ولهذا السبب حدثتْ بعض المواجهات مؤخرًا، شاسين على سبيل المثال أخرج مسدسه وهدّد بإطلاق النار عليهم حين كان على وشكِ الوقوع في ورطة، كان يقف في إحدى الطرق حين باغتته امرأةٌ وصرخت فجأةً وهي تقول: «إنه جاسوس!» لم يكن بمقدور شاسين تقليد الحيوانات لذا تعيَّن عليه الدفاعُ عن نفسه بالسلاح، لا يستطيع الآخرون فعل ما فعل لأن المسدس غير متوفر مع كلِّ الجواسيس، لذا تقرر إعطاء كلٍ منا مسدسًا، وأعتقدُ أنه لا خير يُرتجى من هذه الخطوة؛ فطالما أنَّ المسدسُ في يدك فلن يهدأ لك بالٌ حتى تُطلِق منه النار».

قال يافسي: «إلى اللقاء، أنا ذاهبٌ الي البيت».

سار في الشوارع الضيِّقة، رأى الناس في طريقه، عبر إلى الجانب الآخر محاولًا الإختباء عنهم، لديه إحساسٌ شديدٌ بأنه سيلتقي ياكوف أو أولجا أو أي شخصٍ آخر من ذلك المصنع.

قال محاولًا تهدئة نفسه: «المدينة كبيرةٌ وهناك الكثير من الناس»، لكنه في كلِّ مرةٍ يسمع فيها خطوات أحدهم يجتاح قلبَه خوفٌ شديدٌ وترتجف أرجله لدرجةِ لا يقوى على الوقوف.

قال يافسي محدِّثًا نفسه: «لقد أطلقوا سراحهم، سمحوا لهم بالرحيل؛ لكن ماذا عني؟ ألا يهمني مكانهم الآن؟ بالطبع يهمني!».

حلَّ الظلام في المدينة، مصباحٌ أمام أبواب مركز الشرطة يحترق، حين اقترب يافسي منه سمع أحدهم يقول بصوتٍ مكتوم: «تعال من هنا ثمَّ اذهب إلى الفناء الخلفي».

توقف يافسي وحدَّق في الظلام متوجسًا، كانت البوابات الكبيرة مغلقة لكن يافسي رأى رجلًا لم تتضح ملامحه وسط الظلام يقفُ عند البوابة الصغيرة، بدا أنه ينتظره هناك.

صاح الرجلُ قائلًا بنبرةٍ مستاءة: «هيَّا أسرع!».

توقَّف كليمكوف ودخل من البوابة الصغيرة ومشى بمحاذاة الممر المُظْلِم تحت المبنى إلى أن وصل إلى ساحةٍ يشعُّ منها نورٌ خفيف، سمع صوت أقدام تزحفُ على الحجر وأصواتًا مكبوتة وصوت نخنخةٍ مثيرٍ للاشمئزاز. توقف كليمكوف، استدار بهدوء عائدًا إلى البوابة، رفع كتفيه لإخفاء وجهه في معطفه، وصل إلى البوابة الصغيرة وكان على وشك دفعها والخروج لكنها فُتحت من تلقاء نفسها فإذا به يرى رجلًا أمامه، أمسكه الرجل وقال له: «اللعنةُ عليك! من أنت؟».

ـ «أنا؟».

ـ «نعم من أنت؟».

ـ «يافسي كليمكوف».

ـ «آهٍ منك! لماذا تقف هناك؟ ألم تعرفني؟».

نظر يافسي إلى أنفه المعقوفِ وشعره المجعد وراء أذنيه وجبهته الضيقة البارزة.

قال وهو يتنهد: «نعم عرفتك، فيخيرف».

ـ «نعم هو، تعال إلى هنا».

عاد كليمكوف بصمتٍ إلى الفناء، حينها ميَّزت عيناه عددًا من الأشخاص المختبئين في الظلام الدامس ينتقلون من مكانٍ إلى آخر مثل أسماكٍ سوداءٍ كبيرةٍ في مياهٍ باردةٍ مظلمة.

سمع صوت سولفوف الجميل يقول: «هذه لا تناسبني، أريدك أن تحضر لي فتاة، فتاةً صغيرة، فتاةً صغيرةً أنيقة، سأخبرك بمواصفاتها».

قال فيخيرف: «أيها الشيطان، مزاحك دومًا هكذا، لكن الوقت مناسبٌ لهذا المزاح».

ثم تابع حديثه: «لا أحبُّ أن أضرب أحدهم، لكني أحبُّ صوت السياط حين تتهاوى على الظهور، أتذكر كيف اعتدت جلد ابن أخي حينها!».

يتعالى صوت ساشا من إحدى زوايا الفناء بلا انقطاعٍ مثل الماء المتساقط من الأسطح في يوم ممطر، تعتريه الرتابة مثل صوتِ الترانيم التي تُتلى داخل الكنيسة وهو يقول: «حين تقابلون هؤلاء الأشخاص برياتهم الحمر اضربوهم، حين تضربون من يحمل الرايات سيفرُّ الباقي هربًا».

ـ «وإن لم يهربوا؟».

ـ «سيكون لديكم مسدسات، لذا حين ترون أشخاصًا تعرفونهم من مشاركتهم في التنظيمات السرية من خلال تجسسكم عليهم آنذاك والذين خرجوا من السجون اليوم بسبب التمرد الغوغائي اقتلوهم مباشرةً».

قال أحدهم بصوتٍ يشبه صوت بانتيليف: «أيعقلُ هذا!».

ـ «بالطبع، ماذا سنفعلُ غير ذلك؟ إما نحن أو هم».

ـ قال فيخيرف بنبرةٍ حادة: «حصل الناس على حريتهم، ماذا بأيدينا الآن؟».

توجه يافسي نحو إحدى زوايا الفناء واتكأ على كومة من الخشب وأخذ ينظر إليهم ويستمع في حيرة إلى حديثهم.

انتشرت كلمات سولوفيوف التي لا معنى لها مثل بقعة زيتية في أرجاء الفناء وهو يغني: «هذا الجسدُ جسدٌ صغير، صغيرٌ جدًا، رقيقٌ جدًا، كثير اللحم!».

تحيطُ الجدران السميكة القاتمة بالساحة، الغيوم تُغطي السماء شيئًا فشيئًا، ينعكسُ بريق النوافذ على الجدران. رأى كليمكوف شرفةً منخفضةً في أحد زوايا الفناء يقف عليها ساشا مُغلقًا أزرار معطفه، رافعًا قلادته، واضعًا قبعته خلف رأسه، فوقه مصباحٌ صغير له شعلةٌ تهتزُّ وتضعفُ شيئًا فشيئًا كأنها في سباقٍ مع الزمن لتعلن انطفاء نورها، خلف ساشا بابٌ أسودُ اللون، يجلسُ بعض الأشخاص السُمر على درجات الشرفة عند قدميه، كان من بينهم رجلٌ رمادي الشعرِ طويل القامة يقفُ عند المدخل.

قال ساشا وهو يضع يديه خلف ظهره: «لديكم مطلقُ الحرية لشنِّ حربٍ على الثُوَّار».

عمَّ المكانَ صوتُ الأقدام وهي تدوس الرايات وأصواتُ توبيخ قاسية، وفي بعض الأحيان تخرجُ أصوات مكبوتة لهتافاتٍ ونصائحٍ هنا وهناك.

«انتبه! كن حذرًا يا هذا!».

«تَلقيمُ المسدساتِ غير مصرحٍ لنا».

الوجوه الغامضة تشبه بعضها البعض في ذلك الظلام الدامس، سودٌ وجوههم كلون الإثمد، منتشرون في الفناء والسكون ملتفٌ حولهم، وقفوا في مجموعات مُتراصةٍ مستمعين إلى صوت ساشا الغليظ وهم يتأرجحون على أقدامهم يمنةً ويسرةً كما لو كانت الريح تعصفُ بهم، طغى حديثُ ساشا على جميع الأصوات الأخرى، ملأ صدر كليمكوف بكرهٍ ومقتٍ للجاسوس.

صاح ساشا مجددًا: «لديكم مطلقُ الحرية في المضيِ قدمًا في حربكم المفتوحة مع هؤلاء المتمردين، دافعوا عن القيصر الذي ضلَّ عن جادة الصواب بكلِّ الوسائل الممكنة، هناك مكافآتٌ سخيةٌ تنتظركم، من منكم لم يستلم مسدسًا بعد؟ تعالوا إلى هنا».

تعالتْ أصواتٌ مكتومةٌ من هنا وهناك «أنا...أنا...أنا».

تحرَّك بعض الأشخاص نحو الشرفة، تنحى ساشا جانبا فإذا برجلٍ رمادي الشعر يجلسُ القرفصاء أمامه ويقول بصوتٍ متحمِّس: «أيمكن أن أحصلَ عل مسدسين؟».

ـ «لماذا؟».

ـ «لأحدِ رفاقي».

ـ «اُغرب عن وجهي!».

بدتْ أصوات الجواسيس الذين عرفهم يافسي أكثر شجاعةً وسرورًا من ذي قبل.

تابع ساشا: «لن أضرب أيَّ أحد».

ردَّ عليه بانتيليف بوقاحة: «لقد سمعنا ذلك من قبل».

ساشا: «اغلق فمك!».

قاطعه أحدهم شاكيًا وهو يضرب شفتيه قائلًا: «ليس لدي طلقاتٌ كافية، يجب أن تعطينا صندوقًا كاملًا».

قال ساشا: «وضعتُ احتياجاتنا من الطلقات في مركزين من مراكز الشرطة اليوم، وأنا مجهدٌ الآن، سنهتمُ بتوزيعها في الغد».

«حسنًا».

كل تلك الكلمات والأصوات أومضتْ في عقل يافسي كشِهابٍ يَشُقَ جوفَ الظلام، لكنها ما لبثت وأن انطفأت وأضاعت أمله في حياةٍ هادئةٍ كادت أن تشرق عليه، كلّ هذا الظلام الذيَ يحيط به من هؤلاء الناس خلقَ بداخله قوةً تَحُولُ بينه وبين تحقيق أحلامه وأهدافه، قوةٌ باتت تسيطرُ عليه مرة أخرى، أعادته إلى طريقه القديم، أعادته إلى هلعه وخوفه القديم، اشتعلتْ كراهية ساشا في قلبه أكثر فأكثر، اشتعلتْ في قلبه مشاعرُ الكراهية والعنادِ والضعفِ والانتقام كعبدٍ عاش عذاباتِ أمله في الحرية، وقف هناك دون أن يفكر في شيء مدركًا دنو أجلِ آماله، نظر إلى ساشا بعينين شبه مغمضتين وشد آذانه للاستماع إلى كلِّ كلمة يقولها الجاسوس.

شرع الرجال في مغادرة الفناء على عجل مثنى وثلاث واختفوا في الممر الواسع الذي يتوسَّطُ الجدران، اهتزَّ ضوءُ المصباح فوق رأس الجاسوس، تحول لونه إلى الأزرقِ وفجأةً انطفأ نوره، قفز ساشا من الشرفة وكأنه متجهٌ نحو حفرة، أخذ يزجُرُ قائلًا: «لم يأتِ اليوم سبعة رجالٍ من شعبتي في قسم الأمن، لماذا؟ أيحسبون أننا في عطلة؟ لن أتسامح مع الغباء ولا الكسل، أريدكم أن تجعلوا هذا الكلام حلقةً في آذانكم، سأذهب الآن لإصدار قوانين صارمة، فأنا لست فيليب فيليبوفيتش، بالمناسبة من منكم قال لي أنه رأى ملنيكوف يحمل رايةً حمراء؟ من؟».

ـ «أنا رأيته».

ـ «مع الراية؟»

ـ «نعم وكان يسير معهم مناديًا بالحرية».

ـ «من هذا الذي يجيبني، أهذا أنت يا فيخيرف؟».

ـ «نعم إنه أنا».

اختفى جسدُ ساشا الطويل من الشرفة واختلط مع الحشدِ في الفناء، بدا لياقسي كسحابة مَدَّت ظلها في أرجاء المكان متجهةً نحوه في ذلك الظلام الدامس، وقف يافسي من مكانه ومشى باتجاه المخرج كما لو أنه يمشي على الجليد خائفًا من الوقوع في حفرة، لكنه سمع صوت ساشا الغليظ وأحسّ كما لو أنَّ ألمًا ألمَّ به في رقبته.

«حسنًا، سيكون هذا الأحمق أول من يتلقى ضربات السياط، أعرفه حقَّ المعرفة». ضحك ساشا ضحكةً تشبه عواء الذئاب ثمَّ قال: «حين نضربه سنقول له أننا «نضربك نيابة عن الشعب». بالمناسبة من قال أن مكلاكوف خرج من الخدمة؟».

قال يافسي لنفسه: «هذا الحقيرُ يعرف كل شيء».

قال جروخوتوف: «أنا من قلت ذلك، سمعتها من فيكوف، وهو سمعها من كليمكوف».

«فيكوف...كليمكوف...جروخوتوف جميعهم حثالة! سأدوس عليهم بأقدامي جميعًا! هؤلاء الطفيليات الأنذال الكسالى لا ينفعون لشيءٍ أبدًا، هل أحدٌ منهم هنا؟».

أجاب فيخايرف: «أعتقد أن كليمكوف هنا».

صاح ساشا: «كليمكوف!».

مدَّ يافسي ذراعه أمامه ومشى بسرعة فسمع كراسافين يقول: «أعتقدُ أنه غادر المكان، لا تناديهم بأسماء العائلة من الآن فصاعدًا».

ـ «لا أحتاج منك أن تُعلّمني ما عليَّ فعله، قريبًا سأدمِّر أسماء العائلة هذه وما يشابهها من غباء».

قال يافسي لنفسه وهو يصرُّ بأسنانه صرًا حتى آلمته: «بل أنا الذي سأدمرك».

حين غادر من البوابة انتابه شعورٌ مؤلمٌ من العجزِ والعدم، مرَّ وقتٌ طويل منذ أن عانى من هذه المشاعر المُوجعة، مشاعرٌ لم يتحملها قلبه وبات مَذعورًا منها.

حاول أن يشجع نفسه قائلًا: «أستطيع التغلُبَ على مخاوفي... لن ينج ساشا في مخططاته».

لكن يافسي لم يصدِّق أفكاره، أحسَّ دون أن يملك سلطانًا على مشاعره أن جميع الناس مجردون من الإرادة، علِم أن بمقدور ساشا أن يجبر بسهولة كلَّ من يريد إجباره ليخضع لهيمنته.

الفصلُ السابع والعشرون

قرّر يافسي في اليوم التالي البقاء في المنزل لمدةٍ طويلة، استلقى على السرير وهو ينظر إلى السقف، تخيَّل وجه ساشا الشاحب بعيونه القاتمة والبثور الحمراء المتربِّعة على جبهته، ذكّره هذا الوجه بطفولته وبالصورة المشؤومةِ للقمر منعكسًا على مستنقعٍ وسط الضباب.

تمدَّد على فراشه، خاويَ الفؤاد، ضعيفَ الجسد، متبلِّدَ المشاعر، استسلمَ لحزنه على أحلامه المحطمة، الأحلام التي سحقها ساشا بسهولة، تعاظمت كراهيته للجاسوس في قلبه، شعر أنه قادر على عضه بأسنانه واقتلاعِ عينيه.

زاره مرةً بعض رفاقه لإخراجه لكنه ما أن لمحهم حتى فرَّ هاربًا يركضُ من شارعٍ إلى آخر، أحسَّ بالتعبِ فتوقف عند المحطة في انتظار عربةٍ تُقلُّه، وبينما هو ينتظر رأى الناس يسيرون من أمامه دون توقف وأحس بشيءٍ جديد في ملامحهم، أرغم نفسه على مراقبتهم لمعرفة الخطب الذي ألمَّ بهم، سرعان ما أدرك أنهم عادوا لخوفهم السابق الذي يعرف ملامحه جيدًا، رأى أنهم غارقون في هَلعِهم وحيرتهم المعهودة. ينظرُ الناس حولهم بريبة وشكٍ قد اختفت من عيونهم النظرات الودِّية التي بدت عليهم قبل مدة، أمّا أصواتهم فلا يكادُ يُسمع لها حس، يتحدثون بصوتِ المفزوع، بدت عليهم ملامح الغضب والاستياء والحزن.

اقترب شخصان من يافسي؛ أحدهما رجلٌ حليقُ الوجهِ بدينُ الجسمِ يسأل زميله ذي اللحيةِ السوداءِ الكبيرةِ قائلًا: «كم عدد القتلى؟».

ـ «خمسة قتلى وستة عشر جريحًا».

ـ «هل يُطلقُ القوزاق النار؟».

ـ «نعم، قُتل طالبٌ في المدرسة الثانوية».

نظر يافسي إليهم واستفسر بنبرةٍ حادةٍ قائلًا: «لماذا قتلوه؟».

رفع الرجل ذو اللحية السوداء كتفيه وأجاب على مضضٍ بصوتٍ منخفض: «يقولون إن القوزاق كانوا في حالة سكر».

قال يافسي بداخله: «ساشا رتّب هذا الأمر».

أضاف الرجلُ حليقُ الوجه وهو يأخذُ نفسًا عميقًا: «ضرب الغوغاء أحد الطلاب على جسر سباسكي وألقوه في النهر».

سأل يافسي مرةً أخرى: «لم فعلوا ذلك؟».

«لا علم لي، يقولون إنهم من المدافعين عن الوطنية».

أوضح الرجل ذو اللحية السوداء قائلًا: «كان هناك مجموعةٌ من الصعاليك في صباح هذا اليوم يلوِّحون برايات ثلاثية الألوان ويحملون صور القيصر يسيرون في الشوارع ويضربون كل من يرتدي ملابسَ أنيقة».

قال يافسي بداخله: «إنه من عمل ساشا!».

تابع الرجلُ حديثه: «يقولون إن الشرطة وقسم الأمن كانوا وراء هذا الأمر».

انفجر كليمكوف قائلًا: «بكل تأكيد!». بعدها ضغط شفتيه بإحكام، نظر إلى الرجل ذي اللحية السوداء وقرَّر أن يبتعدَ عنهما، لكن في تلك الأثناء وصلت العربة وبينما كان الرجلان يستعدان لدخولها قال في نفسه: «يجب أن أستمر معهما وإلا فسيعتقدان أني جاسوس، ماذا سيقولان عن رجلٍ ينتظر عربةً معهما ثم لم يدخلها؟».

بدا الأشخاصُ في العربةِ هادئين أكثر من المشاة في الشارع.

قال يافسي لنفسه وهو يستمع إلى المحادثة في العربةِ مفسرًا سبب هدوئهم: «هم يحاولون كتمان ما بداخلهم على الرغم من أن ما يحجبهم عن الآخرين هو زجاج نافذة العربة».

في العربةِ رجلٌ طويلُ القامة نحيلُ الوجه قال وهو يمُدُّ يديه: «أنا أيضًا أحب القيصر وأحترمه؛ أشعر بامتنان تجاهه على هذا البيان، ومستعدٌ للصراخ مؤيدًا له والدعاء له أيضًا؛ لكن أن يصل الأمرُ لتحطيم النوافذ وكسر العظام...ما هذا بحقِ السماء!».

بجانبهم امرأةٌ بدينة، قاطعته وقالت: «أيعقلُ أن نرى مثل هذه الهمجية والوحشية في عصرنا! يا لقساوة قلوبِ هؤلاء الناس!».

من طرفِ العربةِ خرج صوتٌ قوي: «كل هذا من صنعِ يدِ الشرطة ولا شك في ذلك! ولكن لأجلِ ماذا!».

ظلَّوا صامتين لدقيقة.

قال كليمكوف لنفسه: «أنا أعرف السبب».

من طرفِ المركبة جاء نفس الصوت: «إنهم يُخطِّطون لشنِّ ثورةٍ مضادةٍ بالأسلوب الروسي، ألقِ نظرة فاحصة على أولئك الذين يقودون المتظاهرين الوطنيين... أفراد الشرطة المُتَخَفِين وعملاء قسم الأمن».

شعر يافسي بالسعادةِ حين سمع هذه الكلمات ونظر إلى وجه الشاب خلسةً، وجهٌ نظيفٌ يتوسطه أنفٌ بارزٌ وشاربٌ صغيرٌ وشعيراتٌ على ذقنه، جلس الشاب متكئًا على مقعده في إحدى زوايا العربة واضعًا إحدى ساقيه على الأخرى، ينظر إلى الركَّاب بنظرةِ الحكيم من عينيه الزرقاوين ويتحدث بنبرةٍ تبوح بمعرفته لكلماته وأفكاره وإيمانه بقوتها، عليه سترةٌ قصيرةٌ وحذاء طويل، يشبهه بهيئته العمال لكن يديه البيضاوين والخطوط الرفيعة على جبينه لا تَدُل على ذلك.

قال يافسي لنفسه: «يبدو أنه متنكِّر! لكن ما شأني فيه! فليفعل ما يريد!».

أخذ يافسي يُصغي إلى الحديث الصاخب للشاب ذي الشعر الأشقر، ينظر إلى عينيه الزرقاوين يشاطره الرأي فيما يقول، فجأةً شَعرَ برجفةٍ في جسده وإحساس غريبٌ يعتريه، عند مقدمة العربة من جانب السائق ظهرَ شخصٌ بكتفين هزيلين ورأسٍ بارزٍ أسود، اهتزّتْ العربة فإذا به يرى وجهًا مألوفًا بالنسبة له، إنه «ياكوف زاروبين!».

استاء كليمكوف من رؤيته زاروبين، نظر مرةً أخرى إلى الشاب أزرق العينين، رآه يزيل قبعته ويمسحُ شعره المُجعد ويقول: «طالما أن حكومتنا تتحكم بالجنود... أعني الشرطة والجواسيس... فلن تمنح الشعب والمجتمع حقوقه دون قتال وإراقة دماء، يجب أن نتذكر هذا الأمر».

صرخ الرجل ذو الوجه النحيل: «هذا غير صحيح يا سيِّدي العزيز، القيصر منحنا دستورًا كاملًا، لقد منحه إيانا، فكيف تجرؤ على قول ذلك؟».

سأل الشاب بنبرةٍ باردة: «لكن من يُدير تلك المذابح في الشوارع؟ ومن يصرخ قائلًا «يسقط الدستور؟» يتعيَّن علينا البحثُ عن المدافعين عن النظام القديم».

في تلك اللحظة توقفت المركبةُ توقفًا تامًا مصدرةً صوتًا مزعجًا، وحين خفَّ ضجيجها سمع الركاب صيحات عالية:

«حفِظ الإله القيصر!».

«يعيش القيصر!».

أولادٌ يركضون أمام العربة، انتشروا في الشوارع كما لو أنهم سقطوا من السماء، حشدٌ من الناس يُلوِّحون برايات ثلاثية الألوان فوق رؤوسهم، يندفعون كَسيْلٍ جارفٍ ويصرخون:

«يعيش القيصر!».

«توقفوا يا أولاد!».

«يسقط الدستور!».

«نحن لا نريد...».

«حفِظ الإله القيصر!».

«يعيش القيصر!».

كان الناس يتدافعون ويشتمون ويلقون قبعاتهم في الهواء، ملنيكوف في المقدمة يمشي منكسًا رأسها مثل ثورٍ هائج، ممسكًا بساريةٍ عليها العلم الوطني، عيناه على الأرض، يرفعُ قدميه عاليًا ويضربُ بهما الأرض بقوة حتى يرتعش جسده ويهتز رأسه، يتعالى صوته الغليظ من بين تلك الحشود وهو يقول: «لا تخدعونا...».

تجمهر خلفهم حشدٌ من الناس، ثيابهم رثَّة، وجوههم شاحبةٌ قاتمة، يقفِزون ويحركون أعناقهم يمنةً ويسرة، يرفعون رؤوسهم وأيديهم وأذرعهم، ينظرون إلى نوافذ المنازل، يقفزون على الأرصفة لإزالة قبعات المارة من رؤوسهم، ركضوا نحو ملنيكوف مرةً أخرى، يصرخون ويصفِّرون ويمسكون ببعضهم البعض، ملنيكوف يلوِّح بالعلم وهو يصدرُ صوتًا مثل جرسٍ ضخم: «يسقط المتمردون! يسقط المحتالون! توقفوا!».

قال كليمكوف لنفسه: «كأن ملنيكوف في حالةِ سكر».

قال الجاسوس ملنيكوف وهو يرفع رأسه ورايته: «توقفوا!».

وأمر الناس قائلًا: «هيَّا غنُّوا!».

تخرجُ من فمه العريض كلمةٌ تحملُ حزنًا ووحشية: «حسننننًا».

تعالت في تلك اللحظة صيحات حماسية في أرجاء المكان مثل سربٍ من الطيور الجائعة، غطَّت أصواتهم على صوت الجاسوس حتى اختفى بينهم: «يعيش الإمبراطور! ارفعوا قبعاتكم احترامًا له! أيها الأرثوذكس الحقيقيون...نريدُ النظام القديم! يسقط الخونة!».

كان الوضعُ هادئًا في العربة، وقف الجميع وهم يرفعون قبعاتهم والصمتُ مخيمٌ عليهم، أخذوا يراقبون الحشد الذي يُطوِّقهم، لكن الرجل المتخفِّي لم يرفع قبعته، نظر يافسي إلى وجهه الصارم وقال في نفسه: «يبدو هذا الرجلُ مغترًا بنفسه».

أخذ يافسي يُقلِّبُ ناظريه في الشارع وابتسامةٌ ساخرةٌ تعلو محياه، انتابه شعورٌ بالعدمية التي يعيشها هؤلاء الناس، خوفٌ وهلعٌ يجلدهم جلدًا ويحملهم من جانبٍ إلى آخر، رآهم يتقاتلون مع بعضهم البعض ويُطلقون صيحاتهم هنا وهناك لكي يثبتوا عدم خوفهم من أيِّ شيء، يركضون حول المركبةِ مثل مجموعةٍ من كلاب الصيد فُكَّ رباطها، يعيشون فرحةً لا معنى لها، غير قادرين على التحرر من قيود الخوف الذي يعتريهم، حتى أنهم غير قادرين على اتخاذ قرارهم للتنقلِ إلى الجانب الآخر

من الشارع، لم يتمكنوا من الإتحاد في جسدٍ واحد، طرحوا أنفسهم أرضًا، صاحوا بأعلى صوتهم، حدقوا حولهم خائفين كأنهم ينتظرون شيئًا ما.

وقف بالقرب من العربة فلاحٌ نحيلُ الجسدِ كثيفُ اللحيةِ يرتدي قبعةً ممزقةً ومعطف فروٍ قصير، يُغمض عينيه ويرفعُ وجهه عاليًا، يفتحُ فمه الجائع مُظهرًا أسنانه الصفراء وهو يصرخ بصوت رقيق: «فليسقطوا! لا نريد...».

تتساقط على خديه دموع الخوف والإثارة، جبهته تتلألأ من العرق، توَّقف عن الصراخ، انحنى ونظر حوله بثقة، ثم رفع كتفيه، أغلق عينيه مجددًا وصرخ مرة أخرى كما لو أنَّ أحدهم يضربه: «يكفييي!».

قال يافسي لنفسه: «هذه الحالة التي كنت سأصبح عليها لولا...».

على الرغم من أن شخصية الفلاح كانت طريفة، شعر يافسي بالأسى لحاله.

رأى الوجوه المألوفة للبوابين؛ وجوهٌ متجهمةٌ على الدوام، رأى الوجه الكبير لحارس الكنيسة كليميتش؛ يبدو عليه التدينُ والضعف، رأى العيون الجائعة لمثيري الشغب الشباب، رأى تعابير وجوه الفلاحين الجبناء، رأى رجالًا يُشجعون المتظاهرين ويعطونهم الأوامر ويزرعون إرادتهم ووحشيتهم في قلوب الضعفاء، علِم يافسي أن التافهين أمثاله يعيشون أسرى للخوف غير قادرين على التحرر من براثنه. يُمكنُ للأقوياءِ السيطرةُ على مثلِ هذا الخوف؛ لكنهم قد يزرعون خوفًا آخر في قلوبهم حين يخضعون لإرادة شخصٍ أقوى منهم، يتخلصون من خوفهم القديم لكنهم يسقطون في خوفٍ آخر. ينظرُ يافسي من النافذة إلى المتجمهرين هنا وهناك محاولًا اقتناص أكبر عددٍ ممكن، شعر بالغثيان من كلِّ ما رآه، ضاق صدره واشتعل قلبه غضبًا.

كان ياكوف زاروبين الصغير يلتوي ويتنقَّلُ وسط الحشد مثل ثعبان البحر، ركض نحو ملنيكوف وسحب كمَّ قميصه وقال له شيئًا وهو يومئُ برأسه في اتجاه العربة المتوقفة.

اقتنص كليمكوف الرجل ذي القبعة متجهًا نحو الباب رافعًا رأسه عاليًا ومقطبًا جبينه، تحرك وراءه ليخرج من العربة لكن ملنيكوف قفز إلى مقدمة العربة وسد الباب بجسمه الضخم.

صرخ قائلًا: «ارفعوا القبعات!».

توجَّه الرجلُ ذو القبعة إلى الباب الآخر حيث قابله زاروبين الذي صاح بصوت عالٍ: «أعرفُ صاحبَ القبعةِ هذا! إنه صانعُ قنابل! احترسوا منه!».

مسدسٌ يلمعُ في يدِ زاروبين يتأرجح في يده كأنه ممسكٌ بحجر، صعد المتجمهرون إلى مقدمة العربة وصادفوا الركاب الذين كانوا يحاولون الفرار فصرخت امرأةٌ منهم قائلةً: «اخلع قبعتك! لماذا هي فوق رأسك يا رجل!».

صرخ الجميع وصاحوا وهم يدفعون بعضهم البعض إلى مقدمة العربة، أخذوا يحدِّقون بجنون بهذا الرجل صاحب القبعة.

صاح صاحبُ القبعة بصوتٍ عالٍ متجهًا نحو زاروبين: «سأطلق عليك النار! ابتعد!»، تراجع الجاسوس زاروبين لكن أحدًا دفعه من الخلف فسقط على ركبتيه. استند على الأرض بيدٍ واحدة، مدّ يده الأخرى فخرجت طلقةٌ من مسدسه ثُم أخرى، ارتجت النوافذ، توقَّفت الصرخات التي غرق المكان بها لعدة ثواني، بعدها تعالى صوتُ أحدهم وهو يصرخ مزدريًا: «أيها الشرير الخسيس!».

خرجت رصاصةٌ ثالثةٌ من مسدسه فارتجتِ النوافذ بها، صرخ زاروبين قائلًا: «يا للقرف!»، ضرب برأسه الأرض كما لو أنه يقف عند قدم أحدهم راجيًا، بدأ الهدوء يعُمُّ محيط العربة، انزوى كليمكوف في زاويةٍ من زوايا العربة مرتعدًا على مقعده وهو يحدِّثُ نفسه قائلًا: «كنتُ سألقى حتفي!».

تتدافعُ الأفكارُ في رأسه، وفجأةً تختفي دون أن تثير إحساسًا في قلبه الغارق في الظلام، لا خوفٌ ولا فرح، أخذ ينظر حوله والإرهاق يعتريه، وقف صاحبُ القبعة في مقدمةِ العربة، تقدّم ملنيكوف نحوه مارًا بيافسي أما زاروبين فمستلقٍ على الأرضِ بلا حراك.

صرخ صاحبُ القبعةِ من مقدمة العربة قائلًا: «سوف أُطلقُ عليكم النار! جميعكم! ابتعدوا من هنا!».

لكن ملنيكوف تابع طريقه وأمسك الشاب ذي الشعر الأشقرِ من خصره وألقاه في الشارع.

صاح ملنيكوف بنبرةٍ عنيفةٍ قائلًا: «هيَّا اقضوا عليه...!».

ثلاث طلقاتٍ خرجت من المسدس واحدةً تلو الأخرى، ثم توقفت طلقات النار، صوتُ أحدهم يعوي ويصرخ كصراخ الأطفال قائلًا: «يا إلهي! ساقي! ساقي!».

صاح رجلٌ آخر بنبرةٍ حادَّةٍ: «هيَّا صوِّب على رأسه! هيَّا...هيَّا!».

صوت هستيري متحمِّسٌ يتعالى: «قطِّعوهم إربًا إربًا أيها الشعبُ العظيم! اخنقوهم! اكتفينا منهم! حان وقتُ رحيلهم! انتهى دورهم وحان دورنا الآن!».

اختفت جميع الصرخات فجأةً حين تعالى صوتُ أحدهم وهو يقول بازدراء: «هؤلاء الأغبياء!».

أخذ يافسي يترنَّح في مكانه بعد شعوره بألم في ساقيه، مشى إلى مقدمةِ العربة وتفاجأ بوجود حشدٍ كبيرٍ من الناس داخلها، ظهورهم منحنيةٌ نحَو الأسفل، يحرِّكون أذرعهم وساقيهم، يُطلقون صيحاتٍ حماسية، أصواتهم مبحوحة، تحرَّكوا نحو الشارع مثل ديدانٍ كبيرة وهم يجرُّون جسد الشاب ذي الشعر الأشقر فوق الحجارة بعد أن سحقوه ومزَّقوه، أخذت ركلاتهم تتهاوى على جسده، وضعوا أقدامهم على وجهه وصدره، سحبوا شعره وساقيه وذراعيه، مزّقوه إلى أشلاءٍ، باتَ جسده مكشوفًا، تنهمرُ الدماء منه، مُمددٌ على الحجارة، ليِّنٌ مثل العجين، يفقدُ ملامحه البشرية مع كلِّ ضربةٍ تتهاوى

عليه، لم يتوانَ هؤلاء الناس عن ضربه، صعد فلاحٌ نحيلَ على رأسه بقدمٍ واحدة محاولًا سحق جمجمته وصاح مغنيًا: «هذه أيامنا والنصرُ نصرنا».

غادر الناس واحدًا تلوَ الآخر الشارع بعد إن أتُّموا مهمتهم متجهين نحو الرصيف، توجَّه رجلٌ وجهه مملوء بالحفر الصغيرة نحو الجسدِ الممدد مدخلًا يده في معطفِهِ الجلدي وسأل كأنه قائدهم: «من الذي أخذ مسدسه؟».

باتت أصواتهم متعبةً متبرمةً، فجأةً تعالتْ ضحكاتُ مجموعةٍ صغيرةٍ من الناس يقفون بجانب عمود الإنارة، قال أحدهم متحمسًا: «أنت تكذب! كنتُ أنا قبلك، فحين سقط ضربتهُ بحذائي على فكِّه».

ـ «سائق العربة ميخائيلوف انقض عليه أولًا ثم ذهبتُ أنا».

ـ «ضربه ميخائيلوف برصاصة في ساقه».

ـ «إذا لم تصل الرصاصةُ إلى عظامه فلا خوف عليه».

باتَ هؤلاء الناس أكثر جرأةً بعد تذوق طعم الدماء، نظروا حولهم بعيونٍ جائعةٍ جشعةٍ مُتوجِّسة. تتكدسُ كومةٌ سوداءٌ في منتصف الشارع تسيل منها الدماء وتسبح بين الحجارة.

قال يافسي لنفسه: «هذه هي طريقتهم إذن...». أخذ يُمعنُ النظر في الخطوط الحمراءِ على الرصيف، يُمعنُ النظر في الضَّباب الأحمر الداكن الذي يسير أمام عينيه، وفجأةً ظهر وجه ملنيكوف ذي الشعر الكثيف أمام يافسي، بدا صوته متعبًا ومكتومًا وهو يقول ليافسي: «لقد قتلوه هناك!».

ـ «نعم قتلوه في لمحِ البصر!».

ـ «قتلوا واحداً آخر هذا الصباح».

ـ «لم قتلوه؟».

«كان واقفًا على الرَّصيف يخطبُ في الناس فإذا بشاسين يُطلِقُ عليه النار في بطنه».

كرَّر يافسي قائلًا: «ولِم أطلق عليه النار؟».

«هؤلاء الخطباءُ مخادعون...كلماتهم مضلَّلة... لا معنى لما يقولون...كلُّ ما يقولونه كذبٌ في كذب!».

قال يافسي بنبرةٍ هادئةٍ واثقة: «هذا كله من صنيع ساشا!».

هزّ ملنيكوف رأسه ونظر إلى يديه الكبيرتين، قال بصوت مخمور: «هناك شخصٌ يخدعنا دومًا».

دخل إلى العربةِ مجددًا، رفع زاروبين من الأرض ووضعه على المقعد ووجْهُهُ في وجْهِهِ قائلًا: «لقد مات في مكانه».

أخذ يافسي يبحثُ عن الندبة التي خلَّفتها ضربة الزجاجة على وجه زاروبين حين رماه بها فيما سبق بَيْدَ أنه لم يجدها، فوق عينه اليمنى رأى فتحةً حمراء صغيرة لم يتمكن من أن يرفع عينيه عنها، آلمته وأحسَّ بالشفقة على ياكوف.

سأله ملنيكوف: «هل لديك مسدس؟».

ـ «لا أحمل مسدسًا».

ـ «خُذ مسدس ياكوف».

ـ «لا أريده فلست بحاجة إليه».

ردَّ ملنيكوف وهو يضع المسدس في جيب معطف يافسي: «الكلُّ الآن بحاجة إلى مسدس».

ـ «نعم كلامك صحيح، بالأمس كان معنا ياكوف والآن غادر عنَّا».

قال يافسي وهو ينظر إلى وجه رفيقه: «لقى حتفه بسببي!».

بات زاروبين شاخص البصر، عيونه الشاخصةُ كأنها تفكِّرُ في أمرٍ جللٍ، شاربه الأسود الصغير منحنٍ على شفته، بدت على وجهه علاماتُ الإنزعاج قبل أن تخرجَ روحه حتَّى أنَّ فمه كان مفتوحًا وكأنه يستعدُّ لرمي وابلٍ من الكلمات.

قال ملنيكوف ليافسي: «تعال معي».

ردَّ عليه يافسي وهو يحدِّقُ في جسد زميله: «وماذا عن هاتين الجثتين؟».

«الشرطة ستأخذهما من هنا، غيرُ مسموحٍ لنا بإزالة الجثث من مكانها، هيَّا نذهب لننفض الغبار عن أنفسنا ونمرح، لم آكل شيئًا اليوم، مرَّت عليَّ ثلاثةُ أيام بلياليها لم أذق شيئًا، وكذا النومُ لم أذق طعمه». أخذ نفسًا عميقًا كأن به خطب واختتم حديثه ببَرودٍ قائلًا: «لو أنني قُتلت بدلًا من ياكوف».

ردَّ يافسي: «ساشا سيِّدمِّر كلَّ شيء، سيِّدمِّرنا جميعًا، فروحه غارقةٌ في الظلام».

مشيا بمحاذاةِ الشارع دون ملاحظةِ شيءٍ يُذكر، تحدَّثَ كلٌ منهما عمَّا يشغل باله، كانا يتحدثان وكأنهما في حالةِ سكر.

سأل ملنيكوف وهو يمدُّ يده إلى الأمام قائلًا: «أين الحقيقة؟».

ردَّ عليه يافسي متملصًا من الردِّ عن سؤاله: «كما رأيت فقد قتلوا رجلين بدمٍ بارد».

ـ «قُتل الكثير من الناس اليوم، يجب أن أعيد التفكير فيما أفعل فقد أصابنا العمى جميعًا».

ـ «لماذا خطط ساشا لكلِّ هذا؟».

ـ «أنا لا أحبه أيضًا».

صرخ يافسي وبداخله رغبةٌ في الانتقام: «تمنيتُ لو أنه قُتل هناك!».

ظلَّ ملنيكوف صامتًا لفترةٍ طويلة، ثم رفع قبضته فجأة وقال بحزم: «يكفي ما فعلتُه! كم من الخطايا ارتكبتُ حتى الآن! لديَّ قريبٌ على الضفةِ الأخرى من نهر الفولجا؛ إنه عمي العجوز، هو كلُّ ما أملك في هذا العالم، سأذهب إليه، لديه منحلٌ صغيرٌ لصنع العسل... حاكموه بتهمة التزوير في شبابه». صمت الجاسوسُ هُنيهةً ثُمَّ ضحك ضحكةً هادئة.

سأله يافسي منزعجًا: «ما الأمر؟».

«يا لي من شخصٍ كثيرِ النسيان؛ مات عمي منذ ثلاث سنوات».

وصلا إلى مقهى اعتادا إرتياده، توقَّف يافسي عند الباب وأخذ يتأمَّلُ النوافذ المضيئة، قال بنبرةٍ منزعجة: «الناس مجددًا! لا أريد الذهاب إلى هناك».

ردَّ عليه ملنيكوف وهو يشدُّ على يده: «دعنا نذهب إلى هناك فكلُّ الأماكن مثل بعضها، لا أرغبُ في أن أدخل بمفردي، كما أني أصبحتُ خائفًا، لا تفكِّر أني خائفٌ من أن يتعرفوا على هويتي ويقتلوني لأني جاسوس، إنما هو خوفٌ اعتيادي».

لم يدخل الرجلان إلى القاعة التي اعتاد رفاقهما الإجتماع فيها بل توجَّها للجلوس في زاوية القاعة المشتركة حيث كان هناك عدد من الأشخاص، كان حديثهم صاخبًا على الرغم من أنهم لم يكونوا ثملين، بدأ كليمكوف كعادته يسترق السمع وينصت للأحاديث التي تدور بينهم، يُفكِّرُ في الوقت ذاته في ساشا، تعمَّق كرهه وخوفه من الجاسوس أكثر فأكثر بعد تلك الأحداث الأخيرة.

صورة الوجه القاتم لزاروبين الراحل تؤرقُّ تفكيره، وكذا الأمرُ مع الجثة المشوهة للرجل ذي الشعر الأشقر، أخذ يُحدِّقُ بنظراتٍ مرتبكةٍ في زوايا المقهى الصاخب، يرمشُ بعينيه كما لو أنه على وشكِ النوم، بدتْ الأحداث غير مترابطةٍ أمام عينيه كما لو أنه يعيشُ كابوسًا. يشربُ ملنيكوف الشاي دون أن ينبس بكلمة، يَسْبَحُ بيديه ويُحرِّكُ رجليه من حينٍ لآخر.

ليس ببعيدٍ عنهما يجلس ثلاثةُ رجال، يبدو أنهم يعملون كتَّابًا في إحدى المؤسسات، كانوا في ريعان شبابهم يرتدون ملابسَ أنيقةً بألوانٍ مختلفة، تحدَّث أحدهم وهو شاب مُجَّعدُ الشعر أسمرُ الوجه داكن العينين قائلًا: «يستغلُّون وحشية أولئك المشاغبين الجياع ليثبتوا لنا أن الحرية مستحيلةٌ بسبب وجود

أمثال هؤلاء البرابرة، لكن...اسمحوا لي.... لم يظهر هؤلاء المتوحشون بين ليلةٍ وضُحاها؛ فهم موجودون من قبل وكانت العدالة سدًا منيعًا تقف أمامهم وتقطع آمالهم؛ كان القانون رادعًا لأفعالهم، فلماذا يُسمح لهم اليوم بارتكاب أفعالهم الهمجية وانتهاك الحرمات؟».

أخذَ الرجلُ يلقي بنظراته في أرجاء المقهى بنظرةِ المنتصر، بعدها قال مجيبًا عن سؤاله: «لأنهم يريدون أن يقولوا لنا «أيها السيِّدات والسادة طلبتم الحرية وها هي الحرية التي طلبتموها؛ جرائمٌ وسرقةٌ وكلُ ما يخطرُ في البالِ من الأفعال الغوغائية»».

قاطعه يافسي قائلًا: «أليس هذا مخططًا من ساشا؟».

أثار صوت الشاب المتحمِّس أملًا في روحه فقال في داخله: «ربما لن ينتصر ساشا».

نظر ملنيكوف إليه بنظراتِ تجهمٍ دون أن يرد عليه.

قام الرجل ذو الشعر المجعد من كرسيه يُلوِّحُ بكأسٍ من النبيذِ في يده قائلًا: «هذا ليس صحيحًا، وأنا أعترض على كلامك؛ الأشخاصُ الصادقون يريدون الحرية ليس من أجل قمعِ بعضهم البعض ولكن من أجل أن يحمي كلٌ منهم الآخر من العنف السائد في حياتنا الخارجة عن القانون؛ الحرية هي آلهة العقل، يكفي ما شربوه من دمائنا، أقولها مجددًا أنا احتج على كلامك، تحيا الحرية!».

وقف زوار المقهى على أقدامهم وصفقوا له.

نظر ملنيكوف إلى الرجلِ ذي الشعرِ المجعد وتمتم قائلًا: «يا له من أحمق!».

ردَّ يافسي بنبرةٍ غاضبة: «إنه يقول الحقيقة».

سأله الجاسوس وهو يشرب الجعةَ على مهلٍ قائلًا: «من أين لك هذا الكلام؟».

تولَّدت رغبةٌ في صدر يافسي ليقول لهذا الرجل السمين أنه مجردُ رجلٍ أحمقٍ متوحشٍ أعمى، لا يعرف شيئًا من هذه الحياة سوى ما علمه أسياده الماكرون المتوحشون لتعقب الناس، لكن ملنيكوف رفع رأسه ونظر في وجه كليمكوف بعيونه الواسعة وهمس قائلًا: «أنا خائف لهذا السبب: عندما كنت في السجن وقع حادث هناك...».

قاطعه يافسي: «انتظر أريد الاستماع لما يقوله ذلك الرجل».

صوتٌ رقيقٌ تلقَّفتهُ آذان الجالسين حتى طغى على أصواتهم قائلًا: «هل سمعتم؟ يتحدثُ عن آلهةٍ أخرى مع أن الشعب الروسي ليس لديه سوى إلهٌ واحد وهي أمُّ الربِ القديسة مريم العذراء، هذا هو كلامُ هؤلاء الشباب!».

ـ «اخرج من هنا!».

ـ «اخرس!».

ـ «لا تقل هذا رجاءً، إذا كانت هناك حرية فلكل فردٍ الحقُ في...».

ـ «هل ترون ما يحدث؟ يمشي الشباب ذوي الشعرِ المجعَّدِ في الشوارع ويضربون الناس الذين يسعون للدفاع عن القيصر في مواجهة الخونة؛ بينما لا نجرؤ نحن الروس الأرثوذكسيين الحقيقيين على الكلام، هل هذه هي الحرية؟».

بدأ كليمكوف يرتعدُ خوفًا وقال: «سيتقاتلان، سيقتل أحدهما الآخر، أنا ذاهبٌ من هنا».

ردَّ عليه ملنيكوف قائلًا: «يا لك من رجلٍ غريب! حسنًا، دعنا نذهب، وليذهبوا هم إلى الجحيم؟ ماذا يعنون لنا؟».

وضع ملنيكوف المال على الطاولة وهمَّ بالخروج، نكَّس رأسه كما لو أنه يحاول إخفاء وجهه، حين وصلا إلى الشارع الغارقِ في الظلام بدأ يتحدث بصوت خافتٍ قائلًا: «حين كنتُ في السجن... بالمناسبة دخلتُ السجن بسبب أحدِ المسؤولين في المصنع حين وجدوه مخنوقًا هناك، فقبضت الشرطةُ عليَّ مع عمالٍ آخرين، أخبروني أنهم سيِّدخلونني في سجن الأشغال الشاقة، الجميع قال ذلك؛ بدايةً من الطبيب الشرعي ثم الشرطة، انتابني شعورٌ بالخوف فقد كنتُ صغيرًا آنذاك ولم أتخيل فكرة الأشغال الشاقة، كنتُ أبكي دائمًا». باغته سعالٌ مفاجئٌ قطع حديثه ثم واصل قائلًا: «جاءني في إحدى المرات مساعدُ مشرفِ السجن اسمه أليكسي ماكسيميتش وهو رجلٌ عجوزٌ قصير القامة، كان يحبني ويحزنُ لحالي على الدوام، حين التقى بي قال لي «أنا ليابين... اسمي الحقيقي ليابين، كم يؤسفني وجودك هنا، يا لك من رجلٍ مثيرٍ للشفقة!»».

تلقَّى يافسي كلمات ملنيكوف وكأنه يسيرُ في زقاقٍ ضيقٍ يقوده إلى ظلامٍ دامسٍ، طريقٌ يثير الفضول والخوف في الوقتِ ذاته.

تابع ملنيكوف حديثه: «أتى إليَّ ليابين مرةً وقال لي «أريد أن أنقذك لتعيش حياةً أفضل، قضيتك مُعقدة لكن يمكنك الهرب منها، الشيء الوحيد الذي عليك فعله هو إعدام أحد المساجين المدانين بجريمةِ اغتيالٍ سياسي، سيُشنقُ وفقًا للقانون بحضور الكاهن وسيُعطى صليبًا لتقبيله حتى لا تأسى على حاله»، أجبته بأني سأفعل ذلك بالطبعِ إن كان الأمر بموافقة السلطات وسأخرجُ من السجن، لكني لا أعرفُ كيف أفعل ذلك... فقال لي «سنعلمك كيف تقوم بالأمر، لدينا رجل متخصصٌ في ذلك لكنه يعاني من الشلل ولا يستطيع أن يفعل ذلك بنفسه»، بعدها بدأوا بتعليمي طوال المساء في إحدى الزنزانات، حيث قمنا بتعبئة كيسٍ بملابسٍ بالية وربطناه بخيوطٍ ليكون على شكلِ رقبة، ثم سحبته لأعلى المشنقة وتعلمت كيفية القيام بذلك. وفي صباح اليوم التالي أعطوني نصف زجاجة لأشربها وأخرجوني إلى الفناء بصحبةِ جنود يحملون بنادق، رأيتُ حبل مشنقة وأمامه عددٌ من الضباط، كانوا جميعهم معصوبي العين والخوفُ يعتريهم، حدث هذا الأمرُ في الخريف في شهر نوفمبر. صعدتُ عبر السقالات والألواح تهتزُّ من تحتي ولها صريرٌ كصريرِ الأسنان، انتابني شعورٌ مزعجٌ فقلت لهم أعطوني مزيدًا من النبيذ لأني خائف، أحضروا لي النبيذ فشربته».

بدأ ملنيكوف في السعال مجددًا واضعًا يده على رقبته، أمسك يافسي بيده محاولًا السير معه في خطى متساوية، مشى منكسًا رأسه لا يجرؤ على النظر إلى الأمام أو الالتفات.

استأنف ملنيكوف حديثه: «رأيتُ شابًا قويًا، يقفُ بثبات، ويحرِّكُ رأسه إلى الأمام والخلف، بدأتُ في وضع قطعة القماش على وجهه، حين شرعتُ في سحبه قال لي بهدوء دون غضب «على مهلك يا أخي»، أعطاه الكاهن الصليب وقال إنه لا يحتاجه لأنه لا يؤمن بالمسيح؛ بدا وجهه كما لو أنه واثقٌ من معرفته بما سيحدث بعد الموت وبما سيحدث اليوم وغدًا، شنقته فأخذ جسده يهتز، شعرت بالفزع بسببه... بدا هادئًا جدًا... سيِّدًا في حضرةِ الموت».

صمت ملنيكوف، نظر حوله، بدأ يحثُّ خُطاه.

قال يافسي هامسًا: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

«شنقته فخرجتْ روحه منه، هذا كل شيء، ومنذ ذلك الحين عندما أرى أو أسمع أن رجلًا قد قُتل يأتيني هذا الرجل في مخيلتي... أعتقدُ أنه الرجل الوحيد الذي عرف الحقيقة، ولهذا السبب كان يعرف ما لا يعرفه غيره. تعال لتنام معي يا يافسي».

قال يافسي بنبرةٍ هادئة: «حسنا».

كان سعيدًا بموافقة يافسي على السير معه، لم يستطع المشي إلى غرفته بمفرده في تلك الشوارع المظلمة، شعر بضيقٍ في صدره وألم شديد في عظامه كما لو أنه يزحف تحت الأرض وهي جاثمةٌ على صدره وتضغطُ على جانبيه ورأسه متجهةً به نحو حفرةٍ عميقةٍ لا يستطع الهروب منها... لينزلق إلى هاوية لا قعر لها.

قال له ملنيكوف: «جيدٌ أنك وافقت على ذلك، سأشعر بالملل وحدي».

قال له يافسي ناصحًا: «لو أنك تقتلُ ساشا!».

رفض ملنيكوف الفكرة قائلًا: «ها قد بدأنا! هل تعتقد أني أحب القتل؟ طلبوا مني مرةً أخرى أن أشنق امرأة وطالبًا ورفضت ذلك، كنت سأتذكر شخصين بدلًا من واحد، يظهر القتيل في وجهك أينما ولَّيت».

ـ «أيحدث ذلك دومًا؟».

ـ «في بعض الأحيان تتذكرهم لكن تأتيك لحظاتٌ تنساهم فيها، يأتونك في الغالب حين تريد أن تخلُد للنوم ليلا، كيف تدافع عن نفسك حينها؟ لا أستطيع أن أدعو الإله حين يأتونني لأني نسيت صلواتي. هل تتذكرها؟».

ـ «نعم أتذكر صلواتي».

دخلا إلى فناء المنزل، أمضيا وقتًا طويلًا هناك ومشيا يتعثران فوق الألواح والأحجار والقمامة، بعدها نزلا عبر سلم طويل، شعر كليمكوف وهو يتلمَّسُ الجدران بيديه أنها لن تنتهي أبدًا، أخيرًا وجد نفسه في مكانٍ إقامة الجاسوس، أشعل ضوء المصباح وبدأ يلقي بنظره في أرجاء الغرفة، اندهش لرؤيته مجموعةً من صور المثليين والزهور الورقية التي تُغطي الجدران، غرفةٌ صغيرةٌ بها سريرٌ واسعٌ في زاوية خلف الستائر البيضاء.

قال ملنيكوف وهو يخلع ملابسه: «كلُّ هذه الزينة من صنعِ المرأة التي كنت أعيش معها، لكنها هربت، تلك الفتاة الوقحة! أغواها أحدُ رجال الشرطة ففرتَ معه، لا أستطيع فهم ما حدث، كان ذاك الشرطي أرملًا له شعرٌ رماديُ بينما كانت هي في ريعان شبابها، ومع ذلك هربت، هي المرأة الثالثة التي تهجرني، هيَّا دعنا نذهب إلى السرير».

استلقيا جنبًا إلى جنب في نفس السرير الذي بدا ليافسي مثل بحر عميقٍ يهوي به إلى الأسفل فيغرق قلبه في قاعه، سقطت كلمات الجاسوس بشدة على صدره حين قال: «كانت أولجا واحدةً من تلك الفتيات».

ـ «ماذا!».

ـ «أولجا. لماذا؟».

ـ «لا شيء».

ـ «كانت أولجا نحيفةَ الجسدِ ظريفةَ الطباع، اعتادت على إخفاء قبعتي، وحين تفعل ذلك أقول لها أين قبعتي يا أولجا فتقول «ابحث عنها بنفسك فأنت جاسوس». كانت تحب المزاح، لكنها كانت امرأةً لعوبًا، ما أن أدير رأسي عنها حتى أجدها مع شخصٍ آخر، كنت خائفًا من ضربها فقد كانت ضعيفة، لكني كنتُ أشدها من شعرها، تعين عليَّ فعلُ شيءٍ ما».

قال كليمكوف بنبرةٍ هادئة: «يا رب! ماذا سأفعل!».

ظلَّ رفيقه صامتًا لبضع دقائق ثمَّ عاود حديثه قائلًا: «لذلك تراني أبكي في بعض الأحيان».

دفن كليمكوف رأسه تحت الوسادة، ضغط شفتيه بإحكام لكيلا يعبِّر عن صرخاته وشكواه.

الفصلُ الثامن والعشرون

استيقظ يافسي وفي قلبه قرارٌ سريٌّ التفَّ حوله مثل حزام خَفي، شعر أن هناك كائنًا غريبًا متربعًا في نهاية الطريق، يقوده إلى قدرٍ لا مفر منه، حاول التصدِّي لهذا الشعور وإمعان التفكير فيه، لكنه في الوقت نفسه لم يكن يرغبُ فيِّ فهمِ هذا الشعورِ الغريب.

أرتدى ملنيكوف ملابسه، غسل وجهه لكنه لم يمشِّط شعره، جلس على الطاولة وإبريقُ الشاي أمامه، يمضغ الخبز رويدًا رويدا مثل الثور.

سأله ملنيكوف: «هل نِمت جيدًا البارحة؟ أما أنا فغفوتُ قليلًا ثم استيقظتُ في منتصفِ الليلِ فإذا بي أرى جسدًا ممدَّدا إلى جانبي، قلتُ لنفسي من هذا الذي ينام بجانبي؟ تانيا غير موجودة معي، ونسيت أنك أنت الذي تنام بجانبي؛ فقلتُ لنفسي أن هذا الرجلَ الممدد أحسَّ بالبرد وجاء إلى السرير لتدفئةِ نفسه». بعدها ضحك ملنيكوف وتابع قائلًا: «أنا لا أمزح، شعرت بالخوفِ وأشعلت عود ثِقابٍ لأرى وجهك، بدوت لي مريضًا فوجهُك مُزرَّقٌ مثل...»، توقفت كلماته هنا بعد أن باغته سُعالٌ مفاجئ. خلال لحظةِ الصمتِ هذه قال يافسي لنفسه: «قالت ريسا من قبل أنني سأخنق نفسي يومًا ما».

ارتعد يافسي خوفًا من هذه الفكرة، لم يرغب في تذكرها، جاهد نفسه ليُهدِّئ من روعه ويخفي هذه المشاعر الحتمية المُقدَّرة، سأل يافسي قائلًا: «كم الساعةُ الآن؟».

ـ «الحادية عشرة».

ـ «لا يزل الوقتُ مبكرًا».

أكد ملنيكوف قائلًا: «نعم لا يزال الوقتُ مبكرًا»، غرقا في صمتهما لبعض الوقت ثم قال ملنيكوف: «لِم لا تعيشُ معي؟».

ـ «لا أدري ما أقول».

ـ «ماذا؟».

ـ «ماذا سيحدث؟».

«لن يحدث شيء، فأنت رجلٌ هادئ ولا تتحدثُ إلّا قليلًا وأنا أيضًا لا أحب الحديث كثيرًا، أتحدثُ حين أشعر بالضجرِ وإلا أظلُّ صامتًا، عندما تسأل عن شيءٍ ما تأتيك إجاباتٌ مختلفة؛ فالأولُ يقول لك كذا والثاني كذا والثالث كذا، فليذهبوا إلى الجحيم! يثرثرون كثيرًا ولا أحدَ منهم يقول الحقيقة».

أجاب يافسي: «نعم».

فكّر في الدفاع عن نفسه وهو يقول بداخله: «يجب عليَّ فعل شيءٍ ما، في البداية سـ... ساشا...»، لكنه لم يرغب في استباق الأحداث القادمة فتوقف عن التفكير.

سأل يافسي قائلًا: «أين سنذهب الآن؟».

أجاب ملنيكوف: «إلى المكتب».

ردَّ عليه يافسي بحزمٍ قائلًا: «لا أريد الذهاب».

أخذ ملنيكوف يمشِّطُ لحيته دون أن ينبُس بكلمة، أبعد الأطباق من الطاولة ووضع كوعيه عليها وقال بنبرةٍ هادئة: «باتت مهمتنا صعبة، بدأ الجميع في التمرد؛ ولكن من هم المتمردون الحقيقيون هنا؟ أخبرني عنهم إن كنت تعرف».

تمتم كليمكوف: «أعرفُ سيِّدهم!».

استفسر ملنيكوف: «أتقصد ساشا؟».

لم يردَّ يافسي على سؤاله كونه منشغلًا بالتخطيط لخطوته القادمة، بدأ ملنيكوف يرتدي ملابسه ويأخذُ نفسًا عميقًا ثمَّ قال: «إذن سنعيش معا؟».

ـ «نعم».

ـ «هل ستجلبُ أغراضك اليوم؟».

ـ «لا أدري».

ـ «هل ستنام معي الليلة؟».

قال يافسي بعد تفكيرٍ: «نعم».

حين غادر الجاسوس الغرفة قفز كليمكوف على قدميه، نظر حوله خائفًا، ارتعدت أوصاله من الشكِ الذي باغته قائلًا لنفسه: «حبسني هنا وذهب ليخبر ساشا عني، سيأتون قريبًا ليقبضوا علي، سأهربُ من النافذة».

هرع إلى الباب لكنه لم يكن مُغلقًا، هدأ روعه وقال كما لو أنه يحاول إقناع شخصٍ آخر: «حسنًا، هل من الممكن أن تعيش بهذه الطريقة؟ لا تُصدِّق أي أحد... ولا أحد...».

جلس طويلًا خلف الطاولة دون أن يتحرك، مشوشَ الذهن، يفكِّر في وضع خطةٍ ماكرةٍ ليهزم عدوه دون تعريض نفسه للخطر، وأخيرًا استقر على تنفيذ الخطة التالية: يستدْرِجُ ساشا ليخرج من المكتب

إلى الشارع بطريقةٍ ما ثم يمشي معه، حين تجتمعُ الحشود يصرخُ يافسي قائلًا: «إنه جاسوس اضربوه!»، حينها سيحدثُ ذاتُ الأمر الذي حدث مع زاروبين والرجلِ ذي الشعر الأشقر، إذا لم يشرع الناس في ضربه كما فعلوا بالأمس مع الثائر المُتنكّر سيبدأ يافسي في إطلاق النار كما فعل زاروبين لكنه لن يخطئ رميه بل سيطلق عليه النار في بطنه.

شعر كليمكوف بقوةٍ وشجاعةٍ في قلبه وهمَّ في المغادرة، أراد تنفيذ خطته على الفور لكن ذكريات زاروبين أعاقته وكشفت له عن مدى بساطة خطته وعدميتها، كرّر ما قاله حين قُتل زاروبين قائلًا: «لقى حتفه بسببي».

لم يعاتبِ نفسه أو يلقي باللوم عليها، لكنه شعر أن هناك خيطًا رفيعًا يربطه بعالم التجسس ويتوجب عليه فعلُ شيءٍ ما للتخلصِ مَنه، قال لنفسه: «لم أودِّع زاروبين حين رحل...أين سأجده الآن؟».

ارتدى معطفه وأحسَّ بالسعادة وهو يتحسس المسدس في جيبه، أحسَّ بقوةٍ وعزيمةٍ بداخله، خرج إلى الشارع بخطى ثابتة، لكنه مع اقترابه من قسم الأمن أحسَّ بتلاشي تلك المشاعر القوية، تبدد شعوره بالقوة، حين رأى الزقاق الضيق المؤدي إلى مبنى قسم الأمن ذي الثلاثةِ طوابق أحسَّ برغبةٍ قويةٍ في العثور على زاروبين ووداعه.

قال في نفسه وهو يشعرُ بالحرجِ من فعلته: «لقد أهنته»، وفجأةً غيَّر من هدفه وقال: «يجب أن أجده».

أحسَّ في الوقت ذاته أنه غيرُ قادرٍ على الهروب مما يعتري قلبه، شعورٌ يدفعه إلى الوراء ويذكِّره بهذا الأمر المرعب.

عزمُه على تدميرِ ساشا لم يمنع تلك القوة المظلمة من النمو في قلبه لكن رغبته المفاجئة في العثور على جثة الجاسوس الصغير أعاقت تنفيذ خطته لتدمير ساشا.

جاهد نفسه لكيلا تختفي رغبته برؤية زاروبين كما اختفت رغباته السابقة، تجوَّل من مركز إلى آخر لعدة ساعات بحثًا عن جثةِ رفيقه، حين اكتشف مكان الجثة كان قد فات الأوان على زيارتها، عاد إلى المنزل وفي داخله سعادةٌ لأن اليوم شارف على الإنتهاء.

حين وصل إلى الغرفةِ لم يجد ملنيكوف فظلَّ يافسي وحيدًا طوال الليل محاولًا عدم إحداث ضجةٍ في المكان، لكنه حين يتحركُ تصدرُ المظلةُ فوقه ضجيجًا، أحسَّ بالرطوبة تُبلل وجهه، السرير يعزف لحنًا بصريره؛ انتابه شعورٌ بالكبتِ والغثيان والخوف، تمشي الفئران الدنيئة في أرجاء الغرفة وتكسرُ سكون المكان، تُمزِّقُ أصواتها حبل أفكاره الرفيع وهو يفكِّرُ في زاروبين وساشا، بعد كلِّ هذا التشويش على أفكاره أيقن يافسي أنه لا أمل يُرجى من الحياة التي يعيش فيها بهدوئها وفراغها الذي يمتزجُ مع فراغه الداخلي.

الفصلُ التاسع والعشرون

خرج يافسي مبكرًا في صباح اليوم التالي نحو ساحةٍ كبيرةٍ يتوسطها كوخٌ أصفرٌ على سطحه صليب، سمع حارسًا أحدبًا رمادي الشعر وهو يفتح الباب ويقول: «هناك اثنان هنا، تعرفنا على أحدهما والآخر لم نتعرف عليه، سنأخذُ الشخص المجهول قريبًا إلى المقبرة».

حين انتهى الحارسُ من حديثه رأى يافسي وجه زاروبين الكئيب، لم يتغير عن السابق إلا أنه بات يميل للزرقة قليلًا، غسلوا الجرح الصغير في مكان الندبة وتحول لونه إلى الأسود، بدا جسده الصغير العاري نظيفًا، وجهه متجهٌ نحو السماء، يداه مطويتان على صدره كما لو أنه يقولُ للناظر إليه: «وماذا بعد؟».

تستلقي بجانبه جثةٌ أخرى قاتمةٌ منتفخةٌ تغطيها بقعٌ حمراءٌ وزرقاءٌ وصفراء، شخصٌ ما غطى وجهه بأزهار زرقاء وبيضاء، حين أمعن يافسي النظر فيما تحت الأزهار رأى عظام جمجمته وخصلةً من شعره ملتصقةٌ بالدم وأذنه الممزقة.

رجل مسنٌ متكئٌ على الحائط يكسر سكون المكان ويقول: «يصعبُ التعرف على هذا الشخص فرأسه مهشمٌ تقريبًا، ومع ذلك حددنا هويته بالأمس حين أتت سيِّدتان بهذه الزهور لتغطيا وجهه الغاضب، أما الآخر فلم نحدد هويته بعد».

قال يافسي بنبرةٍ جادة: «أنا أعرفه، إنه ياكوف زاروبين، يعملُ في قسم الأمن».

نظر إليه الحارس وهزَّ رأسه نافيًا وهو يقول: «لا، إنه ليس هو، أخبرتنا الشرطة أنه زاروبين واستفسر مكتبنا من قسم الأمن لكنهم قالوا إنه ليس هو».

صرخ يافسي منزعجًا: «لكنني أعرفه حقَّ المعرفة».

ـ «قالوا لنا في قسم الأمن «لا نعرف شخصًا بهذا الاسم ولم يعمل معنا قط»».

ـ «هذا ليس صحيحا!».

فجأةً دخل عليهما شابان، سأل أحدهما الحارس قائلًا: «من الذي لم تحددوا هويته؟».

أشار الأحدب بإصبعه إلى زاروبين وقال ليافسي: «أترى؟».

خرج كليمكوف إلى الفناء ووضع عملةً معدنية في يد الحارس وقال له: «إنه زاروبين!».

ردَّ عليه الرجل العجوز: «كما يحلو لك، لكن إذا كان الأمر كذلك فمن المفترض أن يتعرف عليه الآخرون، جاء عميل إلى هنا بالأمس بحثًا عن شخص قُتل، لكنه لم يتعرَّف على هذا الرجل، فلماذا

لم يعترف بأنه يعرفه».

ـ «من كان ذاك العميل؟».

ـ «رجل بدينٌ أصلعٌ له صوتٌ لطيفُ».

توقَّع يافسي أن الرجل كان «سولوفيوف». لاحظ في الوقتِ ذاته أنهم على وشكِ أن يضعوا جثة زاروبين في تابوتٍ أبيض غير مصبوغ.

تمتم أحد الرجال قائلًا: «التابوت لا يتسعُ له».

ـ «لنثني ساقي هذا الشيطان!».

ـ «لن نستطيع غلق الغطاء حينها».

ـ «أجعله مستلقيًا على جانبيه».

قال الرجل العجوز بهدوء: «لا تثيروا هذه الضجة يا أولاد».

ردَّ عليه الرجل الذي أمسك برأس الجثة: «أيها العمُ فايدور إنه جاسوس».

ردَّ عليه الأحدب وهو يمشي نحوهم: «هوية الأموات تختفي بمجردِ موتهم».

صمتَ الرجلان بعد كلامه، حاولا الضغط على الجثة وإدخالها في التابوت الضيق.

قال أحدهما للآخر غاضبًا: «أيها الأحمق، احضر تابوتًا آخر».

ردَّ الآخر: «كلها مثل بعضها، كما أن هذا الرجل لا يستحقُ هذا الاهتمام».

غادر يافسي ساحة المستشفى وفي قلبه شيءٌ من الإهانة المريرة لما فعلوه بزاروبين، وأثناء مغادرته سمع الأحدب يقول: «هناك أمرٌ غير مفهوم، جاء إلى هنا يقول إنه يعرف هذه الجثة، أعتقدُ أنه يعرف كل شيء عن هذه القضية».

أجاب الرجلان في وقتٍ واحد: «يبدو أنه جاسوس أيضًا، لكن ما الفرق بالنسبة لنا؟».

قفز كليمكوف نحو سيارة أجرة وصاح مناديًا السائق: «هيَّا أسرع!».

ـ «إلى أين؟».

ـ «إلى الأمام مباشرة».

لم تتركه صورة زاروبين وأخذ يفكِّر قائلًا لنفسه: «لقد دفنوه مثل الكلاب...لا أحد يريده... ولا أحد يريدني أيضًا».

تسير السيارةُ به فتستقبله الشوارع واحدًا تلو الآخر، المنازل ونوافذ تهتزُّ أمام ناظريه، الناس يمشون بصخبٍ في الشوارع، بدا كلُّ شيءٍ غريبًا عليه.

قال مناجيًا نفسه: «سأقضي اليوم على ساشا، سأذهب إلى هناك وأطلق النار عليه، يجب إتمام هذا الأمر فلا شيء يُهمني بعد الآن».

خرج من سيارة الأجرة، دخل إلى أحدِ المطاعم التي اعتاد ساشا زيارتها، توقف أمام باب القاعة التي يجتمع فيها الجواسيس، قال لنفسه: «سأطلق عليه النار في اللحظة التي أراه فيها».

ضرب الباب بضرباتٍ متتالية والمسدس في يده، كانت روحه متصلبةً كالجليد.

سأل شخصٌ ما على الجانب الآخر من الباب قائلًا: «من على الباب؟».

«أنا».

فتح الباب قليلا، فإذا به يرى وميض عيني سولوفيوف بأنفه المحْمَر قائلًا له: «أهذا أنت! سمعنا شائعة بأنك لقيت حتفك».

أجاب كليمكوف بهدوءٍ وهو يزيل معطفه: «كلا لم أقتل».

«حسنًا، أغلق الباب خلفك، يقولون إنك تعيش مع ملنيكوف...».

كان سولوفيوف في تلك اللحظة يمضغ قطعةً من لحم الخنزير وهو يتحدث، ارتطمت شفتاه الدهنيتان ببعضهما البعض فخرجت منه بضعُ كلماتٍ قائلًا: «إذن لم تذهب مع ملنيكوف كما سمعنا».

ـ «لماذا تقول ذلك؟».

ـ «لأنك على قيد الحياة، وهو في حالة يُرثى لها، لقد رأيته بالأمس».

ـ «أين؟».

أخبره الجاسوس باسم المستشفى وكان ذاته المستشفى الذي جاء منه توًا.

استفسر كليمكوف بنبرةٍ غير مبالية: «لماذا هو في المستشفى؟».

«تهاوت على رأسه ضربات القوزاق بلا هوادة وسحقوه تحت حوافر الخيول، لا نعلم سبب ذلك وكيف بدأ الأمر، ما نعرفه أنه فاقد للوعي في هذه الأثناء، يقول الأطباء أنه لن يتعافى».

سكبَ سولوفيوف النبيذ الأخضر، أمسكه بيده ورفعه نحو المصباح، أخذ يتمعَّن فيه ثمَّ شربه وسأل يافسي: «أين كنتَ مختبئًا؟».

ـ «أنا غير مختبئ».

ـ «كنت مختبئًا وظهرت».

صوتُ طبقٍ يسقطُ على الأرض، نهض يافسي من مكانه متذكرًا أنه نسي إزالة المسدس من جيب معطفه.

قال له سولوفيوف: «ساشا غاضبٌ منك».

أخذ يافسي ينظرُ إلى قرصِ القمر الأحمر الشرير وحوله ضباب كثيفٌ، رائحةٌ كريهةٌ تنبعثُ في أرجاء المكان، استرجع في تلك الأثناء صوت ساشا وهو يلوِّحُ بأصابعه الصفراء الطويلة فقال: «ألن يأتي هنا؟».

«لا علم لي، لماذا؟».

ترتسمُ على وجه سولوفيوف علامات السعادة وكأن شيئًا أدخل الرضا في قلبه، يبدو على صوته عذوبة صوتِ الأرستقراطيين، أحسَّ يافسي بالاشمئزاز من كلِّ هذا، أفكارٌ مشتتة تتصارع في عقله؛ ما إن تأتي فكرةٌ حتى تمحوها أخرى.

قال يافسي لهم: «جميعكم أوغاد...أنا حقًا متأسفٌ لحال ملنيكوف...لماذا لم تعترف أيها السمين بمعرفتك لياكوف حين ذهبت إلى المستشفى؟».

سأل سولوفيوف وهو يرفعُ حواجبه: «أكان هو الذي...؟».

ـ «أنت تعرفه، لقد كان في المستشفى. وأخبروني أنك رأيته».

ـ «نعم...نعم...نعم...بالطبع رأيته».

سأل يافسي بنبرةٍ صارمة: «لماذا لم تقل لهم أنك تعرفه؟».

ضرب الجاسوس المُسنُّ رأسه الأصلع وصرخ ساخرًا: «ماااذا؟».

كرَّر يافسي السؤال ولكن بنبرةٍ أخف.

ردَّ سولوفيوف قائلًا: «أريدك أن تعرف أن هذا الأمر ليس من شأنك يا صديقي العزيز، يا لك من غبي! لكني سأخبرك بالسبب، لا حاجة لنا بالحمقى، فنحن لا نعرفهم ولا نفهمهم ولا نتعرف عليهم، يجب أن تفهم هذا الأمر وتجعله حلقةً في أذنك. تذكر ما أقول واغلق فمك!».

لمعتْ عينا سولوفيوف الصغيرتين كعملتين فضيتين، أما صوته فشرٌ مستطير، هزّ أصابعه السِّميكة القصيرة في وجه يافسي.

قال يافسي في داخله: «لا فرق عندي، فكُلُّهم عصابةٌ واحدة.. يجب أن...».

أدخل يده في معطفه وسحب المسدس من جيبه وصوَّبه نحو سولوفيوف قائلًا: «حسنا...حسنًا!».

سقط العجوز من كرسيّه وبدأ يتخبُّط في الأرض مثل كومةٍ من النفايات، أمسك الطاولة بيدٍ ومدَّ الأخرى نحو يافسي قائلًا: «لا... لا تفعل ذلك، أرجوك يا سيِّدي العزيز لا تلمسني!».

أحكم كليمكوف قبضته على الزناد، قال وهو يمسحُ شعره: «سوف أذهب بعيدًا من هنا...سأتزوج غدًا...سأذهب بعيدًا عنكم...إلى الأبد...لن أكون...». تتطاير كلماته الجبانة في الهواء، تلمع الدهون على ذقنه، يرتعشُ المنديل في صدره.

لم تخرج الرصاصة من المسدس حين أطلق يافسي النار؛ فتخدَّر إصبعه ودبَّ الرعبُ في جسده من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه حتى ضاق نفسه.

صاح سولوفيوف قائلًا: «سأعطيك المال إن أردت... ولن أقول شيئًا...سأظل هادئًا...إلى الأبد...».

رفع كليمكوف يده وألقى المسدس على الجاسوس، ثم أمسك معطفه وفرَّ هاربًا وهو يسمعُ أحدهم يصرخُ قائلًا: «آهٍ منك...آهٍ منك».

الفصلُ الثلاثون

عَلَقَتْ الصرخاتُ في رأس يافسي مثل الديدانِ الصغيرة، أغرقته في خوفٍ وهلعٍ ومضت به في طريقِ الخوفِ أكثر فأكثر، رأى خلفه حشدًا من الناس، خُيِّلَ له أن أقدامهم لا تمسّ الأرض، ركضوا وراءه وهم يمدُّون أياديهم الطويلة التي وصلت إلى عنقه وشعره، ظلُّوا يسخرون منه وفجأةً اختفوا ثُمَّ عاودوا الظهور، أخذ يتنقَّلُ من سيارةٍ إلى أخرى ومن شارعٍ إلى آخر ويعاود الأمر مرارًا وتكرارًا، أحسَّ بأن ذلك الحشد قريبٌ منه طوال الوقت رغم أنَّه لا يراه، فازداد خوفه أكثر فأكثر.

شعر براحةٍ في قلبه حين رأى أمامه جدارًا تكسوه أغصانٌ عارية، وكأن ذلك الجدار مستعدٌ لمقابلته، دخل إلى غابةٍ مليئةٍ بالأشجار وسار في وسطها، أخذ يُحرِّك يديه كما لو أنه يطلبُ من الأشجار أن تحتضن بعضها البعض، نزل إلى وادٍ سحيق، جلس على تربته الباردة ثمَّ قام من جديد، راح يسير بمحاذاة الوادي وأنفاسه تتسارع والعرقِ يتصبب منه والخوفُ يعتريه. رأى ممرًا بين الأشجار فتقدم نحوه بحذرٍ وهدوء، صادف أمامه سكةَ حديد خلفها أعدادٌ كبيرة من الأشجار الصغيرة والمتباعدة، حين أمعنَ النظر رأى خلفها سقفًا رماديًا لأحدِ المباني.

مشى بسرعةٍ نحو مجرى الوادي حيث تبدو الغابة كثيفةً ومظلمة.

قال لنفسه: «سيمسكون بي...سيقبضون عليَّ... مؤكدٌ أنهم شرعوا في البحث عني... والآن يركضون خلفي...».

صوتٌ ناعمٌ ضلَّ طريقه في الغابة، بدا مصدرُ الصوتِ قريبًا، هزَّ الأغصان الرقيقة المتمايلة في ظُلمة الوادي المُدْلهِم، يتصدع الجليد الرقيق تحت قدميه، جليدٌ يغطي الحفر الصغيرة الرمادية المتبعثرةُ في بطنِ الوادي.

جلسِ كليمكوف على الأرضِ وانحنى ليتناول قطعةً من الجليد ويضعها في فمه، بعدها قفز من مكانه وتسلّق المنحدر الحاد للوادي، خلع حزامه وحمالة بنطاله وربطهما مع بعضهما البعض.

قال لنفسه: «ليس عليَّ خلعُ معطفي، فكلما كنتُ أثقل أصبحت أسرع في الحركة».

حثَّ يافسي خطاه، ارتعشت أصابعه من البرد، ارتفعت كتفاه لدرجةِ أنَّ رقبته اختفت، عقله مشغولٌ بالتفكير في أمرٍ واحد: «ليس لدي وقت، سأتأخر كثيرًا».

مرَّ قطارٌ على حافة الغابة، تحركت أغصان الأشجار مستاءةً منه، ارتجفت الأرض من قوته، بخار أبيض يشقُّ طريقه بين الأغصان، انتشر في الهواء واختفى على حين غرة، كما لو أنه أتى لرؤية هذا الرجل والرحيل بعدها.

رأى يافسي طائر القرقفِ يدنو منه مزقزقًا، تلمعُ هذه الطيور في أعشاشها على أغصان الأشجار، حركتها السريعة تحثه على الإسراع.

أمسك بالحبل وعقده، رماه على غصنِ شجرةٍ وسحبه حتى غدا قويًا، بعدها شرع على عجل في صنع عقدةٍ في حمالةِ بنطاله، استعدّ لتنفيذ خطته وتنهد قائلاً: «الآن سأتلو صلواتي».

لكنه لم يتذكَّر أيًا منها، فكَّر لبضع ثوان فتذكَّر بعضها لكنها ما لبثت وأن اختفت فبات غير قادرٍ على تلاوة صلواته.

تذكَّر حينها حديث ريسا وقال في نفسه: «علمت ريسا مصيري الذي كنت أسير نحوه».

دفع رأسه إلى حبل المشنقة الذي صنعه، قال بهدوء دون أن يشعر بخوفٍ في صدره: «باسم الأب والابن وروح القدس».

دفع الأرض بقدميه وقفز في الهواء، وهو يثني ساقيه، أصابت أذنيه جروحٌ مؤلمة وتفاجأ بضربةٍ على راسه فإذا به يهوي إلى الأرض الصلبة وينزلِقُ من المنحدر، علِقت ذراعه في جذور الأشجار وضرب رأسه على جذوعها فغاب عن الوعي.

عندما استعاد يافسي وعيه وجد نفسه جالسًا في بطن الوادي وحمَّالاتُ بنطاله الممزقة تتدلى على صدره، تمزَّق بنطاله، ركبتاه مليئتان بالخدوش وملطختان بالدماء، ألمٌ يدبُّ في كلِّ أجزاء جسده وخاصةً عنقه، أحس بالبرد يأكلُ جلده، استلقى على ظهره، نظر إلى المنحدر فرأى حبل مشنقته يتأرجحُ في الهواء مثل الثعبان.

قال لنفسه يائسًا: «لا أستطيع...لا أستطيع...لا شيء...لا أعرف كيف...».

أخذتِ الدموع تنهمرُ من عينيه بكاءً على عجزه وشعوره بالإهانة، استلقى على الأرض يشاهد السماء المُظلمة الملتحفة بالسواد، تخيَّل الأغصان وكأنها لوحةٌ في السماء.

استلقى لفترة طويلة مختبئًا في معطفه يعاني البرد والألم؛ في تلك اللحظات مرَّت حياته الغريبة أمام ناظريه مثل حلقات قاتمةٍ من الدخان، مرَّت به مندفعةً واحدةً تلو الأخرى، داست تلك الذكريات على روحه الميتة بلا رحمة، سحقتها سحقًا ولم تترك أي بارقةٍ لأملٍ في قلبه وهوت به إلى القاع.

كآبةٌ تشتعل في صدره، تنخر عظامه نخرًا، يرتجفُ جسده الصغير من المرض ومن البرد، قابعٌ في مكانه بلا مأوى وهو يهوي إلى القاع أكثر فأكثر.

تمرُ القطارات على الغابة قطارًا تلو قطار، تنشر هديرها في الغابة، تُغرقها بسحبٍ من الدخان، تنشر أضواءها في أرجائها، تخترق هذه الأضواء جذوع الأشجار؛ وكأنها تتلمسها بحثًا عن شخص ما هناك، ثم تختفي على حين غرة.

يحاول يافسي الوقوف على قدميه حين يرى أضواء القطار تدنو منه، ويسقط وهو يحاول اللحاقِ بها، يتوقف عند الحافة، يتكئُ على جذع شجرة منتظرًا وهو يستمع إلى ضجيج المدينة البعيد. حلَّ

المساء فانتشر اللون الأرجواني في سماء الغابة، أما المدينة فتلوَّنت باللون الأحمر من الأنوار التي استعدت للقاء الليل.

سمع يافسي أصوات ضجيجٍ قادمةً من بعيد، بدأت سكة الحديد تعزفُ لحنها، عبر القطار من فوقها بعيونه الحمراء المتلألئة ليغوص بعدها في ظلام الغابة مبتعدًا، توجَّه مسرعًا يمشي على ركبتيه نحو سكة الحديد، فجلس فيها واضعًا عنقه على سكة الحديد، لفَّ رأسه بمعطفه وأخذ ينتظر.

أحسَّ براحةٍ لبعض الوقتِ وهو يضع رقبته على الحديد الساخنِ الذي خفَّف من ألمها، لكن سرعان ما اهتزت السكة وبدأت تعزفُ لحنًا يشي باقتراب القطار، لم يبقَ عضوٌ في جسده إلا واشتدَّ عليه الألم من هذا الصوت، ارتجفت الأرض من تحته وكأنها تسبح بعيدًا، تنبذُ جسده وتقذفه بعيدًا عنها.

حان موعدُ مرورِ القطار، يسير ببطءٍ على سكةِ الحديد، صوتُ العجلات وهي تسير على قضبان السكة تصمُّ آذانه، صفير القطار يدفعه للتراجع إلى الخلف، كل شيءٍ حوله بات يهتزُّ ويرتج.

لم يعد بإمكانه الإنتظار أكثر من ذلك، وقف على قدميه، ركض على القضبان، وأخذ يصيح قائلًا: «أنا مذنب... سأفعلها.. كل شيء... نعم سأفعلها!».

بدأت أضواء القطار تنتشر على طول قضبان سكة الحديد وكأنها تسابق كليمكوف، أخذت تتوهج أكثر فأكثر، واصل يافسي ركضه إلى الأمام وأشعةُ الضوءِ من خلفه تخترق ذراعيه وكأنها ترشده لمواصلة مسيره.

صرخ وهو يلوح بيديه قائلًا: «سأقوم بـ...».

فإذا بجسمٍ صلبٍ يصدمه من الخلف، سقط بين قضبان سكة الحديد الحمراء، اختفت صرخاته وسط قعقعة الحَّديد الصلب.

هوامش

http://raffy.me/page/623

يُطلق اسم القوزاق على الجنود الفلاحين الذين كانوا يعيشون في مناطق نهري الدنيبر والدون بشرقي أوكرانيا وغربي روسيا، وقد بدأت روسيا وبولندا في القرن الخامس عشر الميلادي بتنظيم القوزاق في وحدات عسكرية تساعد في حرب التتار الغزاة، ومنحت كلٌّ من روسيا وبولندا القوزاق عدة امتيازات مكافأة لهم على خدمتهم وشكَّلوا وحدات حكم ذاتي مبنية على أسس ديمقراطية. كلمة القوزاق تعني بالتركية الإنسان الحر. (المترجم)، (المصدر: marefa.org)

إبريقٌ لإعداد الشاي. (المترجم)

عبارة عن أضواء خضراء تتشكل على القطبين الشمالي والجنوبي للكرة الأرضية. (المترجم)

تقعُ مدينة تسارسكوي سيلو بالقرب من مدينة سانت بطرسبرج الروسية. (المترجم)

أسماء لأوراق اللعب المستخدمة في لعبة الورق وتأتي على أربع أشكال وهي الهاس والديمن والكلفس والسبيت، وكل واحدٍ منها لها مستويات عدة تبدأ بالإكه أو الخال ومن ثم الباشا وبعدها الميم وأخيرًا الغلام الذي تأتي بعده الأرقام من 10 إلى واحد. (المترجم)

إحدى المجالس المنتخبة إبان حِقبة روسيا القيصرية. (المترجم)

ما يُلْبَس فوق الخُفّ للوقاية من الوحل. (المترجم)

أليكساندر نيكيتيش أحدُ القادة العسكريين الروس، وُلد في عام 1780 م، وتقلَّد عدة مناصب في روسيا القيصرية من بينها مساعد وزير الحرب وشارك في عدة معارك كُبرى خاضتها روسيا. (المترجم)

فستان طويل من الزي التقليدي الروسي. (المترجم)

المعمودية هي طقس مسيحي يمثل دخول الإنسان الحياة المسيحية، تتمثل المعمودية باغتسال المعمّد بالماء. (المترجم)

خانية خيوة Khanate of Khiva هي دولة سابقة في آسيا الوسطى في منطقة خوارزم التاريخية من 1515 إلى 1920 باستثناء فترة احتلال فارس من نادر شاه بين 1740 ـ 1746. وفي 1920، أُلغيت الخانية واستبدلت بجمهورية خوارزم الإشتراكية السوفيتية. وفي 1924، ضُمت المنطقة رسميًا إلى الإتحاد السوفييتي، وهي اليوم جزء من محافظتي قرة قول باكستان ومحافظة خوارزم في اوزبكستان. (المترجم) (المصدر: marefa.org).

منشوريا منطقة تقع في الجزء الشمالي الشرقي للصين، اشتهرت بمواردها الغنية مثل الفحم الحجري والحديد. وتتمركز معظم مراكز الصين الصناعية حول مدن منشوريا مثل شانج شن وهَاربِنْ وشنيانج. وتتميز هذه المنطقة أيضًا بتربتها الخصبة حيث تنتج معظم الغذاء للصين. تعرف منشوريا الآن في الصين باسم الشمال الشرقي فقط. (المترجم) (المصدر: marefa.org).

نوع من النبيذ المصنوع من التوت مع النبيذ أو الماء. (المترجم).

طقسٌ مسيحي يسبق عيد قيامة السيّد المسيح عليه السلام، ويدعى أيضًا بـ (الصوم السيّدي أو الأربعيني)، ويبلغ 55 يومًا غير متقطّعة، إذ يمتنع فيه الصائم عن تناول الأطعمة ذات المنشأ الحيواني؛ كاللحوم والبيض والألبان والأجبان ويأكل عوضًا عنها الخضراوات والفواكه، أو ما يعرف بالأكلات المطهوة بالزيت في مواقيت محدّدة تُعرف بالقطاعة. (المترجم) (المصدر: mawdoo3.com).

شجرة من الفصيلة الصفصافية في شعبة النباتات الوعائية. (المترجم)
مجلس الدوما هو مجلس النواب في الجمعية الاتحادية لروسيا (السلطة التشريعية). يقع مقر مجلس الدوما في وسط موسكو على بعد خطوات قليلة من ميدان مانيجا. (المترجم).